

المؤرخ المصرى



دراسات وبحوث فى التاريخ والحضارة

(مجلة علمية محكمة نصف سنوية)

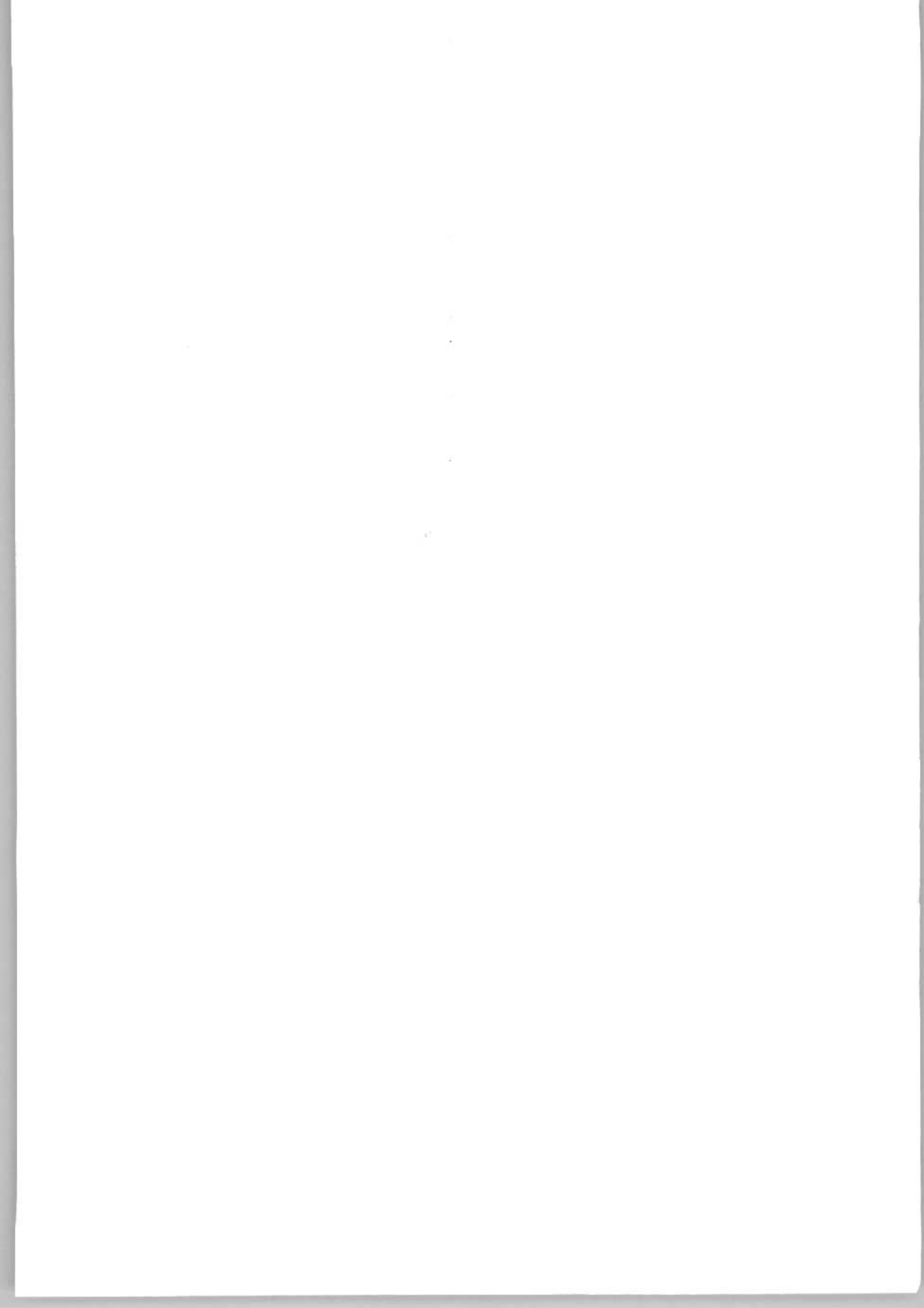


يصدرها قسم التاريخ

كلية الآداب - جامعة القاهرة

الجزء الثانى

العدد الثانى والأربعون يناير ٢٠١٣







المؤرخ المصرى

دراسات وبحوث فى التاريخ والحضارة

(مجلة علمية محكمة نصف سنوية)

يصدرها قسم التاريخ

كلية الآداب - جامعة القاهرة

العدد الثانى والأربعون

الجزء الثانى

يناير ٢٠١٣م

الهيئة الاستشارية

قواعد النشر

- ترحب مجلة المؤرخ المصرى بنشر الأبحاث والدراسات الأصلية ذات المستوى الجاد بعد التحكيم، فضلا عن مراجعات وعرض الكتب الجديدة.
- تقبل حوليات المؤرخ المصرى للنشر الأبحاث التاريخية والحضارية المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية، على ألا يقل عدد الصفحات عن ٣٠ صفحة مسجلة على ديسك كمبيوتر، وفق برنامج (word) مع نسخة مطبوعة على ورق حجم A4 ، بما فى ذلك الهوامش والجداول وقائمة المراجع، على أن تكتب الهوامش فى نهاية البحث.
- حوليات المؤرخ المصرى لا تنشر بحوثا سبق أن نشرت أو معروضة للنشر فى مكان آخر، وتقوم رئاسة التحرير بإخطار المؤلفين بإجازة بحوثهم للنشر بعد عرضها على هيئة التحكيم.
- تحتفظ حوليات المؤرخ المصرى لنفسها بحق قبول أو رفض الأبحاث أيأ كان قرار هيئة التحكيم.
- النشر فى مجلة المؤرخ المصرى متاح لأعضاء هيئة التدريس بالجامعات المصرية والعربية والأجنبية وسائر المهتمين بالدراسات التاريخية.
- الآراء الواردة فى مجلة المؤرخ المصرى تعبر عن وجهة نظر أصحابها.

المراسلات : **ترسل البحوث والمقالات باسم أ.د. محمد عفيفى رئيس التحرير على العنوان التالى :** (قسم التاريخ) **كلية الآداب – جامعة القاهرة – بريد الأورمان – الجيزة.**

All correspondence to be directed to : Editor- in chief- Prof. Mohamed Afify, Cairo University, Faculty of Arts, Orman, Giza, A.R.E.

محتويات العدد (الجزء الثانى)

افتتاحية

بحوث فى التاريخ القديم والحديث

بحوث متنوعة

بسم الله الرحمن الرحيم

الافتتاحية

يسعدنى أن أقدم للقارئ الكريم العدد الجديد من مجلة المؤرخ المصرى، هذه الدورية التى لعبت دوراً هاماً فى إثراء الدراسات التاريخية فى عالمنا العربى منذ العقد الأخير من القرن الماضى وحتى الآن.

ونأمل دائما على التواصل مع كافة الزملاء فى عالمنا العربى وإمداد المجلة بالأخبار الجديدة والفاعليات التاريخية، فضلا عن عروض الكتب الجديدة والهامة.

والله ولى التوفيق

رئيس التحرير

محمد عفيفى



الأسرة في مجتمع المغرب القديم
(تونس- الجزائر- المغرب الأقصي)
فترة الاحتلال الروماني

أبو بكر سرحان
مدرس مساعد التاريخ القديم (يوناني روماني)
قسم التاريخ- معهد البحوث والدراسات الأفريقية-
جامعة القاهرة

كانت الأسرة في مجتمع المغرب القديم منذ أقدم العصور، أسرة زواجية بمعني أنها تنشأ عن رابطة الزواج، بمفهومها المحدود الذي يتكون من الأب والزوجة والأبناء، وهي في ذلك تشبه الأسرة الفينيقية واليهودية والرومانية، وأيضاً الأسرة بمفهومها الأكبر وهي التي تنشأ عن روابط القرابة(الأمومة والأبوة والأخوة والبنوة والمصاهرة)، مكونة العائلة أو القبيلة، وقد أطلق الرومان لفظي عائلة Familia وقبيلة أو شعب Tribus علي الأسرة الكبيرة من سكان المغرب، فــ"بمبونيوس ميلا" Pomponius Mela حين تحدث عن الرحل قال إنهم يعيشون في شكل عائلات تتكون من عدة أسر صغيرة[1]، ولفظ Familia، عُرف أيضاً بنفس المعني حين يقول بلينيوس: Gens maurorum attenuate bellis ed pancas recidit familias أن شعب المور أضعفته الحروب العديدة فتحول إلي عدة عائلات[2]، ونجد إحدي النقوش المكتشفة بتونس" شخص يدعي "ماثون" رئيس أو زعيم عائلة ميديه

ينسب إلي جده الأكبر "ماسيران" Mathun, Massiranis Filius, princeps familiae medid [٣].

والأسرة الكبيرة هنا تدل علي العرش والآل والعشيرة، أي جملة الأشخاص الذين هم من نسل واحد ومن سلالة واحد، والذين هم خاضعون لسلطة رئيس واحد وأن من ينضم إلي الأسرة سواء بالزواج والمصاهرة أو بالتبني يصير فرداً فيها خاضعاً لسلطة رب الأسرة[٤]، وهكذا فإن الأسرة الصغيرة (الزواجية) التي تضم الزوج والزوجة والأبناء، والأسرة الكبيرة (العائلة) التي تشمل الأجيال الثلاثة، الجد والأبناء والأحفاد كان جميعهم متضامنين يعيشون في مسكن واحد، وتحكمهم الأعراف والتقاليد والقوانين[٥]، فالأسرة المغربية كيان مستقل لاتقبل أن يتدخل في حياتها الخاصة أية سلطة خارجية، فهي التي تعاقب أفرادها حسب قوانينها العرفية، وتضامنها في مواجهة المخاطر قوي جداً، وأخيراً فأنه كان يمكن أن يضاف إلي الأسرة رجال آخرون لا تربطهم بها صلة الدم، مثل الأتباع والعبيد[٦]. ولا شك أن هذا النظام الأسري كان له الشكل الأرقي الذي بلغه المجتمع بعد مراحل طويله من التطور الاجتماعي[٧].

ونلاحظ أن الأسرة الأبوية هي النمط السائد لدي المغاربة والذي عرفوه منذ الألف الثانية قبل الميلاد، أما الأسرة الأموية وتعني تسلسل الأنساب عن طريق الأم، فكانت نادرة في المغرب بإستثناء بعض القبائل التي مازالت تمارس هذا النظام حتي الآن وهم بعض قبائل الطوارق، ويكون الطفل في هذه الحالة للقبيلة ويلتحق بأمه في حالة نبلها أو عبوديتها، ويكون نظام الميراث أن ينتقل الميراث من أحد الرؤساء لأكبر من يأتي وراءه من إخوانه للأم، وإذا لم يوجد فينتقل الإرث للأكبر من أبناء خالته أو للأكبر من أبناء

أخته الكبري، ولكن لم نعرف أن المغرب خلال تاريخه القديم كانت تحكمه النساء[٨].

أما بالنسبة للأسرة الرومانية في المغرب، والتي انتقلتِ بشكلها ومفهومها وعاداتها وتقاليدها الرومانية، فلم تختلف في ذلك كثيراً عن مجتمع المغرب إلا فيما يخص الثقافة الرومانية التي كانت تميز أفراد الأسرة بطبيعة الحال[٩]، فقد كان الرومان يقدرون ويفهمون معني الأسرة والحياة المنزلية وعبّروا عن ذلك في أدبهم، وعرفوا عبادة آلهة الأسرة (لاريس وبيناتيس) Lares and Penates، وكانت الأسرة بالنسبة للروماني ميدان التدريب علي حب الوطن(المدينة)، وكلمة (ورع)Pietas التي كانت تدل علي الإخلاص، كان يلقب بها الابن البار بأبيه كما يفعل المواطن للحاكم والمتعبد للآلهة، والمواطن الروماني عموماً كانت تتألف شخصيته من ثلاث صفات جوهرية؛ الحرية وصفته كمواطن روماني وأن يكون عضواً في أسرة[١٠].

ورغم أن المصادر الخاصة بهذا الموضوع قليلة للغاية إن لم تكن نادرة، إلا أنه يمكن الاعتماد علي بعض الإشارات القليلة في النصوص المصرية واليونانية والرومانية، وبعض النقوش و والحفائر التي تمت مؤخراً لا سيما فيما يخص نظام الأسرة ودور كل فرد فيها متمثلاً في رب الأسرة والمرأة والأطفال كما سيرد[١١].

أولاً- رب الأسرة

نقصد برب الأسرة هنا الأب، فهو الذي يهيئ لأسرته وسائل العيش والحماية، وسلطة الأب مطلقة مثل سلطة أب العائلة الروماني، ومن حقه

ممارسة هذه السلطة وبعنف علي غرار المجتمعات الأخري التي لها نفس النظام الأسري الأبوي، والأب له جميع الحقوق علي أبنائه، حتي حقوق الحياة والموت، وبناته يتحكم فيهن كيف شاء فيزوجهن ممن يشاء، ويبقيهن تحت نفوذه، وقد يشهرهن للبيع العلني بالمزايدة، وأبناؤه عموماً خاضعون له حتي زواجهم الذي لا يمكنهم أن يعقدوه إلا بتصرف الأب، فهو الذي يقرره ويفوّض في شأنه، وغالباً لا يستشيرهم في ذلك، هذه السلطة للأب كانت تستمر حتي وفاته(١٢) وعند وفاة الأب فإن السلطة تنتقل إلي أكبر أبنائه ويأخذ صفة الوالد حتي إذا كان غير متزوجاً(١٣).

كذلك رب الأسرة الروماني كان يتمتع طوال حياته بالسلطان المطلق Patria Potestas علي الزوجة والأبناء والبنات غير المتزوجات وكذلك وكلائه عبيده وممتلكاتهم، وفي داخل الأسرة كان هو المالك الأوحد للمتاع والكاهن الأوحد والحارس لمقدسات الأسرة والقاضي الأوحد، وكان من حقه إعدام زوجته أو طفله، وكان بيده فقط تنشئة أو إهمال شأن نسله من حديثي المولد، نفهم من ذلك أن الأسرة كانت أبوية، فالقانون لم يعتبر الإبن نسيباً لأقارب الأم وحتي قرابته لأمه كانت عن طريق الأب(١٤).

ثانياً- المرأة

لم يصلنا ما يشير إلي الانتقاص من شأن المرأة في المغرب القديم إلا بعض الإشارات لدي بعض المؤرخين القدامي فيذكر"هيرودوت" مثلاً أن في بعض قبائل شمال أفريقيا كانت النساء تختلط بالرجال بلا حدود، ومن هذه القبائل قبائل النسامونيس Nasamons، في خليج سيرت، وكانت المرأة تفتخر بحب عدد كبير من الرجال لها، وذكر أيضاً أن قبائل الآدورماخيديس Adyrmachides غرب مصر كانوا يقدمون للملك الفتيات

اللواتي يصلحن للزواج ، وإذا أعجبته إحداهن فأنه يكون أول من يعاشرها معاشرة الأزواج [١٥].

وفي مدينة سيكا Sicca (الكاف بتونس حالياً) كانت النساء يعرضن علي الزوار في معبد إلهة الجمال الرومانية "فينوس" Venus، فهل هذه عادات من أصل محلي؟ الأمر ممكن ويحتمل أيضاً أنها انتقلت علي يد الأجانب الوافدين كالفينيقيين أو الرومان خاصة أن مثل هذه العادات كانت توجد في أوروبا بكثرة مثل جزر كناريا ووجدت بكثرة في بعض مدن أمريكا الجنوبية، والغالب أن هذه العادات السيئة لم تثبت علي سكان المغرب لا من قريب ولا من بعيد إلا باستثناء بعض الطقوس السحرية التي كانت تقام علي فترات زمنية بعيدة[١٦].

وفيما عدا ذلك فقد كان لها مكانتها في المجتمع، والتي وصلت إلي حد إضفاء صفة التقديس علي بعض النساء[١٧]، وكذلك لم يستنكف المجتمع من قيام المرأة ببعض أدوار الرجال، مثل القيادة والمشاركة في الحياة العسكرية والسياسية، فيذكر المؤرخ اليوناني "ديودور الصقلي" قصة النساء المحاربات الأمازونيات Amazones، واللائي لا يتزوجن إلا بعد نهاية الحرب لإنجاب الأطفال[١٨]، وإن كانت هذه القصة بها الكثير من الخيال؛ لمخالفتها لما هو مألوف عن وضع المرأة في مجتمع المغرب، ولكن من الثابت أن المرأة المغربية كانت تشارك الرجل في بعض أعمال الحرب، مثل حفر الخنادق ونصب الخيام للجند، والعناية بالخيل والإبل، ومداواة الجرحي، ويمسكن بالأسري، فقد أشارت بعض المصادر إلي أسيرات جيتوليات جئ بهن إلي قرطاجة علي جمال قوية، جباههن موشومة وأطفالهن ملتصقون بصدورهن[١٩].

كانت العادات والعرف تمنع اختلاط الرجال بالنساء من غير أسرهن، إلا في حالات الضرورة؛ مثل التنقل والترحال من مكان لآخر أو في الحرب، فالمرأة لا تذهب إلي الأسواق، ولا يراها الأغراب، باستثناء المرأة المتقدمة في السن؛ فإنها تتمتع بحرية كبيرة لدرجة أنها تمارس التجارة، ولم يكن للمرأة المغربية خبرة في الزراعة فالحرث ورمي البذور والحصاد والتذرية من أعمال الرجال، أما المرأة فكان يمكنها نزع الحشائش فقط، وفي الأيام العادية، كان علي النساء الخروج لإحضار الماء للشراب وجمع الحطب، وفيما عدا ذلك كانت النساء تقر في بيتها تحلب الحيوانات وتطحن الحبوب وتطبخ وتصنع الخبز، وتقدم الطعام لأفراد الأسرة، وتربي الأطفال في سينهم الأولي(٢٠).

كانت المرأة المغربية تقوم بممارسة الحرف الصغيرة من داخل منزلها، فكانت تنسج الحلفاء (حشائش برية تصنع منها بعض المفروشات)، والسلال المضفورة باليد، والحصر المصنوعة علي النول الذي يصلح لصنع نسيج الصوف، وصباغة النسيج مستخدمة في ذلك الألوان النباتية، فلا يوجد ما يدل علي أنها استخدمت صبغة الأرجوان التي كان يستخدمها الفينيقيون وأخذها عنهم الرومان، وكذلك كانت تقوم بصناعة الفخار، وبسبب قسوة الحياة التي عاشتها المرأة في هذا المجتمع وكثرة الأعباء التي كانت تتحملها والحمل المتكرر كانت تصاب بالشيخوخة في سن مبكرة(٢١).

وعلي الرغم من علو شأن المرأة الذي وصل في بعض الأحيان لحد التقديس، إلا أن نظرة المجتمع لها كانت تضعها في مكانة أقل من الرجل، فالزوجة تخضع للزوج خضوعاً كلياً، ولاشك أن الزوجة الجميلة والذكية كان لها تأثير قوي علي الزوج حيث كان يحسن معاملتها و يقبل آراءها، ومثال

علي ذلك تأثير"سوفونيسبه" Sophonisba المرأة القرطاجية الجميلة المثقفة، علي فكر الملك النوميدي "سيفاكس"(٢٢).

وهناك أيضاً الأميرة الموريتانية "كيريا" Kyria أخت الأمير "فيرموس"Firmus الثائر الذي قاد الحرب ضد الرومان، فكان لكيريا دور كبير في إدارة شئون الحكم ودعم الثورة ضد الرومان وتمويلها بمالها الخاص(٢٣).

إلي جانب ذلك نجد قبائل البقواط (إحدي القبائل الموري) تضع المرأة في مكان أفضل، وإنها القبائل الوحيدة في المغرب التي تعترف بالأسرة الأموية أو التي تنسب للأم، وهو نوع من التشريف للأمهات، كذلك كانت المرأة تعمل برفق ولين وتتمتع بحرية كبيرة فتنتقل كما تريد وتتحدث مع من تشاء، وتختلط مع الرجال في الاحتفالات وغيرها، ولا تتزوج إلا إذا قبلت الزواج، المال الذي يدفعه الزوج لها هو بمثابة مهر وليس ثمناً للشراء، وكان الإخلاص هو الواجب الوحيد المفروض عليها، ولها حق فسخ عقد الزواج مثلها في ذلك مثل الزوج، أما تعدد الزوجات فكان أمراً استثنائياً(٢٤).

أما في الأسرة الرومانية فكانت المرأة إما تحت سلطان أبيها قبل زواجها، أو تحت سلطان زوجها بعد زواجها، أو تحت وصاية قريب لها من الذكور حالة وفاة الزوج، والقانون الروماني لم يعترف بأمومتها، ولم يكن لها أية سلطة علي أبنائها، وعندما كانت تخطئ يستدعي أقرباءها من الذكور، ولا يحق للزوج أن يطلق زوجته بغير مشورة الأسرة، ويحرم عليه القانون بيع زوجته وفقاً لما جرت عليه العادة الدينية، وبدأ شيئاً فشيئاً إقرار نظم جديدة بهدف التخلص من قانون الوصاية لضمان حرية واستقلال المرأة

الرومانية، والتي كانت البداية لانهيار سلطة الوالد علي ابنته والزوج علي زوجته[٢٥].

ثالثاً- الأطفال

كان المغاربة يرحبون بكثرة انجاب الأطفال، وكان ذلك من أهم أسباب تعدد الزوجات، وكانوا يستقبلون الذكر بفرح شديد، لأن الذكور عناصر قوة في الكتلة الاجتماعية التي ينتسبون إليها، أما البنات فقدومهن لا يقابل بمثل فرح الذكور الكبير، ومع ذلك فلا يقع التخلص منهن لا بالقتل ولا بالتخلي عنهن، ويقمن بخدمات في عون الأم في العمل المنزلي، وإذا بلغن سن الزواج كان يؤخذ من الزوج تعويض يغطي تقريباً ما تم انفاقه عليهن، ولقد اقتضت الحياة المشتركة الناتجة عن الزواج العناية بالأطفال، فالأم تعتني بهم وتربيهم كما تري، والأب يهيئ لهم وسائل العيش ويقوم بحمايتهم[٢٦].

تذكر العديد من المصادر أنه كان يوجد للمغاربة الكثير من الأولاد، خاصة الأسر الريفية المكونة من الأهالي، فهم يمقتون العقم ويحبذون الإنجاب، وهذا ما تبينه نذرية أودعها أصحابها في أضرحة الآلهة تضرعاً منهم إليها ابتغاء مزيد من الأطفال[٢٧]، وتشير النصوص الأدبية إلي أن القبائل المغربية كانت كثيرة العدد إلي حد أن كثيراً من تلك القبائل كان يسميها كتاب العصر شعوباً بدل قبائل[٢٨]، ثم إن عجز الرومان في السيطرة علي هؤلاء الريفيين والبدو رغم وسائل الإفناء التي استعملوها ضدهم دليل علي أن أعدادهم كانت تتكاثر بسرعة، وهذا التكاثر كان يدفعهم إلي الثورة قصد الحصول علي مجالات حيوية أوسع، أو خروجاً من الطوق الذي كان مضروباً علي بعضهم، وكثيراً ما أحرز الثوار انتصارات باهرة بفضل أعدادهم الكبري أمام الجيوش الرومانية المنظمة ذات الإستراتيجية المحكمة

والسلاح القوي الفعال(٢٩).

أما في المدن فالأمر كان علي عكس ذلك، فتبين الإحصائيات الجنائزية أن نسبة الأطفال الأحياء كانت في المتوسط، من اثنين إلي ثلاثة أطفال في الأسرة الواحدة في المدن الداخلية وأقاليمها، مثل مدن" تبسة وسطيف وحيدرة ودقة وجميلة وقالمة ووليلي"، بينما كانت منخفضة في بعض المدن الحضرية مثل "قرطاجة، فكان للأسرة الواحدة من طفل إلي طفلين، وهي اخفض في أوساط الأهالي والعبيد بناء علي الوثائق الجنائزية المعتمدة في هذا الموضوع، ولهذا الانخفاض في معدل الأطفال للأسرة الواحدة له عدة عوامل منها؛ أن الحياة كانت عسيرة بالنسبة لمعظم السكان، فهناك ما لايقل عن نسبة ٩٠% من السكان كانوا يعيشون في فقر مدقع، فقد كان الغذاء وحده يستهلك معظم دخل الأغنياء والميسورين وثلثي دخل متوسطي الحال، وأكثر من ثلاثة أرباع دخل بقية السكان، ويضاف إلي هذا أن العناية الصحية كانت منعدمة، حيث اختفي التطبيب لغالبية الناس، فسوء المعيشة وتعذر الصيانة الصحية بالأطفال أمور أدت بمعظم المولودين حديثاً إلي الهلاك، هذا فضلاً عن الأوبئة الفتاكة التي حصدت صغار السكان أكثر من كبارهم(٣٠).

وهكذا أدت ظروف المعيشة والضيم الاجتماعي إلي شيوع ظاهرة الامتناع عن الإنجاب لدي كثير من الزوجات وممارستهن أسلوب الإجهاض إن حملن، إذ تذكر النصوص أن النساء كن يمتلكن وسائل شتي لمحاربة الحمل أو إسقاطه، منها السحر وتداول مستحضرات الأعشاب وغيرها من العقاقير التي تؤثر علي صحة المرأة وتؤدي أحياناً إلي العقم التام، وكان القانون لايجرم مثل هذه الظاهرة، فكانت المرأة الحرة لها الحق أن تسقط حملها، والأب له الحق في أن يحتفظ بأبنه أو لا يحتفظ، إلا بعض النداءات

من رجال الدين بتحريم هذه الظاهرة، ويظهر أن عادة الامتناع عن الإنجاب كانت منتشرة لدي الطبقة الإرستقراطية التي كانت تري أسرها في كثرة الأطفال ضرباً من المشاغل التي تحول بينها والتمتع بملذات الحياة، مما يؤكد صحة الوثائق الأثرية بخصوص تلك الظاهرة(٣١).

غير أن صعوبة العيش وظروف الحياة القاسية كان لهما أثر قوي بنية الأسرة والمجتمع معاً، فلم يكن الإنجاب مفضلاً لدي طبقة العبيد والمعتقين؛ علي الرغم من تشجيع أسيادهم لهم علي التوالد للإكثار من الأيدي العاملة، كما أن الأحرار الفقراء كانوا يضطرون إلي التخلي عن أطفالهم عندما يعجزون عن إعالتهم، وهذا ما تؤكده ظاهرة انتشار الأطفال المشردين الذين يعهد بتنشئتهم إلي النساء العاقرات، ثم يباعون عبيداً، وقد احتفظت الوثائق القديمة بمعلومات تفيد بأن ظاهرة بيع الأبناء كانت شائعة في أوساط العائلات الفقيرة، وهي تبرز لنا أحد أوجه القهر الاجتماعي الناتج عن الشقاء المتفش في الطبقة المحرومة من مجتمع ذلك العصر، وكانت كثيرة العدد(٣٢).

لم يصلنا ما يدل علي شيوع ظاهرة التبني، والحادثة الوحيدة في هذا السياق هي تبني الملك "ميسيبسا"(مكوسن) لابن أخيه "يوجورتا" وهذا يعني أن التبني مقبولاً في نطاق الأقارب وهذه الحالة النادرة من التبني كانت لغرض سياسي ولم تكن لدوافع اجتماعية، ولهذا نستبعد أن تكون هذه الظاهرة شائعة في المجتمع المغربي، مع أن التقاليد إلي اليوم تعتبر أبناء الأخ كالأبناء من الصلب، لكنها لم تصل إلي التبني بالمعني القانوني المعروف، أما تبني الأغراب فلا يوجد ما يثبته(٣٣).

وعلي عكس ذلك فإن القانون الروماني فكان يسمح بالتبني، ويعترف بالأبوة عن طريقه، مادام هذا الطفل نتيجة زواج شرعي وليس سفاحاً، والابن

بالتبني شرعياً كان يعد ابناً له كل الحقوق والواجبات حيال الأسرة والدولة[٣٤].

ولا يوجد دليل علي أن سكان المغرب الأصليين والفينيقيين كانوا يزاولون عادة الختان لأطفالهم، مع أن الفينيقيون كانوا يمارسون في بلادهم، لكن يبدوا أنهم تخلوا عنها في المغرب[٣٥].

إن الأسرة المغربية كما وصفناها سالفاً، تؤدي أهم أدوارها الاجتماعية، وهو الاستمرار في الوجود وتضامن الأجيال، في الوقت الذي كان فيه المتحضرون بالعالم القديم يحددون من عدد أبائهم، ويقولون"أن الأفارقة لهم أبناء كثيرون كثرة تجعلهم لا يحبونهم حباً جماً" وكان لوم هؤلاء المتحضرين تبريراً سيئاً لكبريائهم[٣٦].

والسبب الحقيقي لضعف الأسرة المغربية هي الحالة الوضيعة للزوجة، سواء في ذلك الأسرة المتعددة الزوجات والتي فيها زوجة واحدة، فالمرأة المغربية اشتريت وكأنها بضاعة، وتطلق حسب هوي زوج ولا تتدخل هي برأي فيه، وتستسلم لإرادته الطاغية، وترزح تحت أفدح الأشغال، وليس لها علي سيدها من سلطة سوي جمالها وسرعان ما يبلي، ولا تجد شئ يعزيها سوي حب أبنائها لها[٣٧].

هوامش البحث

(١) عقون محمد العربي: الاقتصاد والمجتمع في الشمال الأفريقي القديم، دار الهدي للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ٢٠٠٨م، ص١٦٩.

(2) Plinius: Natural History(Historia Naturalis), Translated by: Jones, W.H.,(L.C.L.), London, 1955,V.P.22.

(3) Gsell,S.: Histoire Ancienne de L'Afrique du Nord,. Tomes 8, Paris, 1972. T.V, P.54.

(٤) أحمد صفر: مدنية المغرب العربي في التاريخ، الجزء الأول، دار نشر بوسلامة، تونس، ١٩٥٩م.، ص٦٤.

(5) Gsell, S.: Op.Cit.,T,V,P.36.

(6) Plinius: Op.Cit., V,P.27.

(7) Gsell, S.: Op.Cit.,V,P.42.

(٨) مصطفي بوتفنوشت: العائلة الجزائرية، التطور والخصائص الحديثة، سلسلة المجتمع، ترجمة أحمد دمري، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٨٤م، ص٤٥.

(٩) دي بورج، و.ج.: تراث العالم القديم، ترجمة زكي سوس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٩م، ص٢٤٧.

(10) Gsell, S.: Op.Cit.,V,P.42.

(11) Marcy, G.: Les inscriptions libyques bilingues de l'Afrique du Nord, Chiers de la Societe asiatique, fasc (C.I.L.)T.V. Paris, 1936, P.243.

(١٢) دي بورج، و.ج.: مرجع سابق، ص٢٤٧، ٢٤٨.

(١٣) شارل أندري جوليان: تاريخ أفريقيا الشمالية، تونس- الجزائر- المغرب الأقصى، من البدء إلي الفتح الإسلامى٦٤٧م، ترجمة، محمد مزالي والبشير بن سلامة، الطبعة الثالثة، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٥١م. ، ص٨٠

Gsell, S.: Op.Cit.,V, P.51.

(١٤) دي بورج، و.ج.: مرجع سابق، ص٢٤٧، ٢٤٨.

(١٥) المرجع نفسه، نفس الصفحات.

(16) Gsell,S.: Op.Cit.,T.V, P.33.

(17) Ibid: P.33, 34.

(18) Diodorus Sicilus: History (Historia), Translated by:Russel, M.G., (L.C.L.), London, 1953.III,P.55.
(19) Sallustius: Jugurthan War (Bellum Iugurthinum),Translated by: Rolfe, S.E.,(L.C.L.), London, 1960.LIV,LXXXVII,LXXXIX.
(20) Gsell,S.: Op.Cit.,V, P.33.

(٢١) عقون محمد العربي: مرجع سابق، ص١٧٢، ١٧٣.

(22) Gsell,S.: Op.Cit.,V,P.48,49.; VI, P.72,73.

"سوفونيسبه" Sophonisbe، هي أميرة قرطاجية تنتمي إلي عائلة ثرية، كان لها حضور سياسي، وكان أبوها عزربعل من سادة قرطاجة، قام بدور مهم أثناء الحرب البونية الثانية، وكان له علاقة بالملك "سيفاكس" الملك النوميدي، فزوجه من ابنته التي لم تبلغ سن العشرين عام ٢٠٥ق.م. وكانت "سوفونيسبه" كما يذكر المؤرخون غاية في الجمال والثقافة، وكانت في بداية الأمر خطيبة الملك"ماسينيسا"، إلا أنه وبعد توتر العلاقات بينه وبين القرطاجيين، عدل الأمير القرطاجي عن هذه الزيجة وزوجها الملك "سيفاكس"، وكان لها تأثير قوي عليه، فجعلته ينحاز إلي جانب القرطاجيين في حروبهم ضد الرومان، غير أنه عندما ألقي القبض علي الملك "سيفاكس" في معركة سيرتا عام ٢٠٣ق.م.، وحتي ينتقم منه "ماسينيسا" تزوجها أمامه، إلا أن "سكيبيو الأفريقي" قائد جيش الرومان تحفظ علي ذلك الزواج، مطالباً "ماسينيسا" بتسليم "سوفونيسبة" للرومان، حيث أعتبرها من الأسلاب والغنائم التي هي من حق المنتصر، وهو ما دفع "سوفونيسبة" للانتحار بتناول كوباً من السم.

Lipinski,E.: Sophonibaal, Dictionnaire de la Civilisation Phenicienne, P.421.

(٢٣) عبد العزيز سالم: المغرب الكبير، الجزء الأول، القاهرة، ١٩٦٩م، ص٤٣.

(24) Gsell, S.: Op.Cit., V, P.48, 49.; VI, P.72,73.

(٢٥) دي بورج، و.ج.: مرجع سابق، ص٢٤٨-٢٥٠.

بوسنا نسكي، م.: مقدمة لأفريقيا المجاورة للصحراء فيما قبل التاريخ المتأخر، موسوعة تاريخ أفريقيا العام، المجلد الثاني، حضارات أفريقيا القديمة، اليونسكو، ١٩٨٥م، ص٣٣، ٥٩-٦١.

(26) Gsell, S.: Op.Cit.,P.50,51.
(27) Ibid: P.51.

(28) Sallustius: LIV,LXXXVII,LXXXIX.

(٢٩) محمد البشير شنيتي: التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب أثناء الاحتلال الروماني ودورها في أحداث القرن الرابع الميلادي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٤م، ص٢٠٩.

(30) Picard, G. CH.: Daily, Lifein Carthage Translated, by: Foster.A. E., London,1961, P.119.

(٣١) محمد البشير شنيتي: مرجع سابق، ص٢٠٨، ٢٠٩.

(32) Lassere, J.M.: Ubique Populus, Peuplement et movement de Population dans l'Afrique romaine de la chute de carthage a la fin de la dynastie severes(146A.C.-195P.C.) Paris,1977, P.508.

(٣٣) عقون محمد العربي: مرجع سابق، ص١٧١.

(٣٤) دي بورج، و.ج.: مرجع سابق، ص٢٤٨.

عبد الحليم محمد حسن: تاريخ الرومان، دار الثقافة العربية، القاهرة، د.ت، ص٤٤.

(35) Gsell, S.: Op.Cit.,VI, P.14.

(36) Ibid: P.50, 52.

(37) Ibid:P.50, 52, 53

اليهود وهجراتهم إلي المغرب القديم (تونس - الجزائر- المغرب الأقصي) وعلاقتهم بالسكان فترة الاحتلال الروماني

أبوبكر سرحان

مدرس مساعد التاريخ القديم (يوناني روماني)

قسم التاريخ- معهد البحوث والدراسات الأفريقية-

جامعة القاهرة

كان اليهود أحد العناصر المهمة التي شكلت نسيج مجتمع المغرب القديم (تونس- الجزائر- المغرب الأقصي) في الفترة (١٤٦ق.م.-٤٢٩م.)، مما جعل الإمبراطور"أغسطس" (٣٠ق.م.-١٤م.) يوليهم اهتماماً خاصاً؛ زادهم اطمئناناً وأمناً علي أوضاعهم كأقلية، فقد أصدر قراراً أعلن فيه أن يهود الإمبراطورية الرومانية أثبتوا ولاءهم للشعب الروماني في الحاضر والماضي وبصفة خاصة عندما كان "هيركانوس"Hiercanus اليهودي حبراً أعظم زمن "يوليوس قيصر"، وعلي ذلك فقد قرر أغسطس السماح لليهود بمباشرة عاداتهم طبقاً لشريعة آبائهم، وأن يسمح لهم بإرسال أموالهم إلي "أورشليم"، ويتوعد كل من يسرق أموالهم أو كتبهم المقدسة بالجلد، ومصادرة ممتلكاته[1].

ويرجع وجود اليهود في بلاد المغرب القديم من خلال عدد من الهجرات المتتالية التي تمت قبل فترة الاحتلال الروماني له وكانت مجالاً للقصص التي اختلطت فيها الحقيقية بالخيال حتي لدي الكتاب اليهود أنفسهم

فتضاربت الروايات تضارباً شديداً؛ فقد شاعت الكثير من الحكايات الشعبية في أوساط يهود بلاد المغرب، التي تتحدث عن وجود علاقات قديمة واتصالات عديدة بين بني إسرائيل وبين هذه المنطقة، وحول هذه الهجرات الموغلة في القدم، يذكر المؤرخ فراس السواح أن المؤرخين اليهود سكبوا أطناناً من الحبر حتي الآن من أجل إعادة ترتيب هذه الأخبار المختصرة الغامضة ووضعها في إطار تاريخي مقبول(٢)، فأخرجوا ممالك من العدم وأسبغوا عليها الطابع التاريخي ورسموا حدودها ووضعوا علاقتها مع الممالك الوهمية الأخري استناداً إلي التوراتية وحدها، فتذكر بعض هذه الحكايات أن نبي الله موسي عليه السلام والخضر الذي أخبرنا بها القرآن الكريم في سورة الكهف بأن موسي عليه السلام إلتقي مع الخضر عند مجمع البحرين وهما البحر المتوسط والمحيط الأطلنطي، ولكن هذه القصة مردودة عليهم لأن المقصود بالبحرين في القرآن الكريم هو إلتقاء خليج العقبة بخليج السويس أو التقاء أحد فروع النيل السبعة القديمة بالبحر المتوسط في دلتا النيل، وكذلك لاستحالة وعدم تقبل العقل بأن يسيير نبي الله موسي من أرض مدين" الأردن حالياً" إلي المحيط الأطلنطي قاطعاً كل هذه المسافة ماراً بأرض مصر وهو مترقب من أهلها، وكذلك تذكر التوراة أن أول خروج لسيدنا موسي من مدين كان إلي مصر، وكل هذه القرائن تدحض ما يزعمه اليهود من أن نبي الله موسي قد زار هذه المنطقة، ومن هذه الروايات أن يوشع غلام سيدنا موسي دفن في هذه المنطقة، ولكن هذا القول لا يجد ما يؤيده من دليل تاريخي ويتعارض أيضاً عما وجد في التوراة، غيرها من القصص الشفهية التي لا يؤيدها سند تاريخي(٣).

فلا تكاد تتفق روايتان من هذه الروايات في التفاصيل ولا حتي في

الترتيب الزمني وفقاً للافتراضات التاريخية[٤]، ويرجع ذلك لنقص المعلومات والأدلة التاريخية حول هذا التواجد الذي يبدو أنه كان في تلك الفترة في أضيق الحدود، فتذكر أغلب الروايات علي أن الهجرات وبداية التواجد اليهودي في بلاد المغرب يعود لفجر التاريخ البشري، وأن اليهود هم أول من ضربوا بجذورهم الاستيطانية في منطقة المغرب القديم، لذلك من الأفضل الفصل بين الافتراضات التي تستند للحكايات والمرويات الشعبية الشائعة بين يهود المنطقة وبين الافتراضات التاريخية، لمحاولة وضع أفضل الإفتراضات التاريخية وأقربها للواقع[٥].

ومن هذه الفرضيات التاريخية، أن أول هجرة لليهود إلي المغرب تمت في عهد نبي الله الملك داوود "عليه السلام" عندما تغلب علي جالوت؛ فعلي أثر هذا الحدث هاجر اليهود إلي مصر، التي لم ترحب بهم، فشدوا الرحال إلي بلاد المغرب، وهذا مايؤكده أكثر من مؤرخ، وبصفة خاصة المؤرخين المسلمون الذين اتخذوا من التوراة مصدراً لكتاباتهم عن اليهود إلي جانب احتفاظهم في هذا الشأن أيضاً بالرواية الشفهية، وكذلك أن اليهود وصلوا إلي المغرب برفقة الفينيقيين في عهد الملك سليمان عليه السلام في القرن العاشر قبل الميلاد، وأقاموا هناك بصفة دائمة وكونوا بذلك أول تواجد يهودي في المغرب، وإحدي هذه الفرضيات التاريخية أنه علي أثر هجوم "نبوخذ نصر" البابلي علي يهود أورشليم عام ٥٧٨ق.م.؛ لعدم احترامهم للمواثيق والمحافظة علي سلامة القوافل التجارية المارة بأرضهم، فحطم "نبوخذ نصر" أورشليم وأسر يهودها إلي بابل وهو مايعرف في التاريخ بــ"السبي البابلي"،ومن أفلت من هذا السبي هاجر إلي المغرب، فبعض اليهود استقر في مدينة "جربة"، وآخرون استقروا علي مدينة "طلميثة" Talmesa- مدينة

قديمة تعرف بـ"توليمايس" وكانت مركزاً تجارياً هاماً في العصر اليوناني، وقد وفد إليها بعض المستوطنين من يهود برقة للسكن بها- والتي عثر فيها علي عملة برونزية يهودية من ذات الربع الشيكل، من النوع الذي كان يسمونه المكابي(١٣٩-١٣٥ق.م.)(٦).

هذه هي معظم الفرضيات التي جاءت حول بداية التواجد اليهودي في بلاد المغرب، ومن الصواب أن نتعامل مع هذه الفرضيات بموضوعية دون تهويل أو تهوين، فبداية التوافد اليهودي إلي هذه المنطقة، وإن صح بعض ما ذكر من فرضيات، لم يلعب دوراً فعالاً في المنطقة، ولم تكن لهم مستعمرات أو حتي تجمعات سكانية ذات شأن، وهذا هو السبب في عدم وجود آثار لهذا التواجد اليهودي في عهد الفينيقيين في المغرب, وكان هذا التواجد يزداد بصورة طفيفة مع ازدياد موجات الاضطرابات والحروب في أرض كنعان خاصة بعد تدمير الهيكل الأول, ولكن هذا لم يمكن اليهود من أن يكون لهم تأثير ملحوظ علي مسرح الأحداث في تلك المنطقة, نظراً لأعدادهم الضئيلة للغاية ولضعفهم الاقتصادي والحضاري(٧).

وقد استمرت هجرة اليهود إلي بلاد المغرب منذ بداية الاحتلال الروماني وكان مصدرها في هذه المرحلة من الإقليم الغربي بليبيا حيث كانوا يمثلون عنصراً رئيسياً من حيث العدد والأهمية، فقد عثر علي نقوش في مدينة "بيرينيكي"Bereneke (بنغازي)(٨)، تشير إلي وجود جالية يهودية كبيرة في تلك الفترة(٩). كما عثر علي نقوش ترجع إل عام ٦٥-٥٥ق.م. بنفس المدينة الليبية تشير إلي وجود جالية يهودية كان لها مجلس من عشر أراخنه (رؤساء) لتدبير شئونهم الداخلية(١٠).

فقد حدث وأن تأزمت العلاقة بين الرومان واليهود في بعض أنحاء

الإمبراطورية الرومانية بسبب معاملة الرومان لهم علي أنهم أقلية مغلوبة وخاضعة للضريبة التي يفرضها الرومان عليهم والتي تؤدي إلي جوبيتر" الإله الروماني الوثني[١١]، فنشبت ثورة اليهود الكبري في مدينة برقة Barca في إقليم قوريني شرق ليبيا عام ١١٥م. في عهد الإمبراطور تراجان(٩٨-١١٧م.) في الوقت الذي كان فيه الإمبراطور "تراجان" يخوض غمار الحرب ضد مملكة "بارثيا" في آسيا، ونظراً لخطورة هذه المملكة قام "تراجان" بسحب عدد كبير من حاميات الجنود في أفريقيا لتعزيز قواته في آسيا، وبدأت الثورة في بداية الأمر بين اليهود والإغريق، وما لبثت أن تحولت إلي صراع ضد الحكومة الرومانية، ارتكب فيها اليهود أبشع صور القتل والتنكيل ليس ضد الحكومة الرومانية فحسب بل ضد أغلب العناصر السكانية، حتي بلغ عدد الذين أهلكهم اليهود مائتي وعشرون ألف نسمة، وبعد أن أنهي "تراجان" حربه في "بارثيا" أرسل قائده الشهير"ماركيوس توريو" علي عجل، ونجح هذا القائد في إخماد الثورة في بعض المدن عام ١١٧ق.م. وأنزل الهزيمة الساحقة باليهود، وعمل علي استئصال شأفتهم، والذين نجوا منهم بادروا بالفرار إلي القبائل المغربية واحتموا بها، وأسهموا في النضال الطويل بين تلك القبائل والحكومة الرومانية، وظلت الحكومة الرومانية سنوات طوال لترميم ما أفسدته ثورات اليهود، فلم تكف مدة "هادريان" لأعمال الترميم والإصلاح بل أمتدت إلي عهد خلفائه.[١٢].

هكذا واجه الرومان هذه الثورة بكل قوة، وتم تدمير أماكن استقرار الجاليات اليهودية في مصر وليبيا لإشتراكهم في هذا التمرد، مما دفعهم للهجرة ناحية الغرب وأقاموا في المدن الساحلية والمناطق الداخلية من الصحراء في بلاد المغرب هرباً من الاضطهاد حيث قتل منهم الآلاف؛ هكذا أرغم الضغط

الروماني اليهود علي ترك ديارهم والنزوح إلي الداخل المغربي، ومنه مافعله بهم القائد "تتيوس" Teteus خلال سنوات ٦٦-٧٠م. وفي عهد "هادريانوس" Hadreanus بين عامي ١٣٢-١٣٥م.[١٣]، وإثر ذلك لجأ اليهود إلي القبائل في بلاد المغرب التي استضافتهم ورحبت بهم في المناطق الجبلية والأقاليم الصحراوية وكانوا السبب في اعتناق بعض سكان المغرب للديانة اليهودية[١٤]، ويؤكد ذلك ابن خلدون أن الدين اليهودي أخذه المغاربة عن بني إسرائيل، وانتشر بين عدد من القبائل[١٥]. وقد قوبل اليهود بقدر كبير من التسامح من قبل سكان المغرب مما سهل لهم الاندماج في هذا المجتمع سريعاً[١٦].

ويلاحظ أن المصادر المختلفة تحدثت عن وجود شواهد محلية تدل علي وجود اليهود وهجراتهم للمغرب قبل تداعيات ثورتهم الكبري في ليبيا, وكان ذلك منتصف القرن الثاني قبل الميلاد وأن هؤلاء أقاموا في المناطق الداخلية من البلاد وفي الصحراء مع القبائل المغربية هرباً من أعين الرومان حيث كانت تدور في ذلك الوقت رحي الحرب بينهم وبين القرطاجيين[١٧].

توجد إشكالية في تاريخ اليهود الذين قطنوا الأماكن القروية داخل القبائل المغربية، بسبب الطابع المتجزئ للكتب التاريخية التي تتناول تاريخ اليهود المغاربة، فنجد أن اليهود الذين يتكلمون بالدارجة ويعيشون في المدن، قد خلفوا وثائق عن تاريخهم وتاريخ علاقاتهم مع شعوب هذه المدن، وبالمقابل فإن المعطيات الخاصة بتاريخ اليهود الذين عاشوا في المناطق القروية قليلاً ما ترد في وثائق مكتوبة لأنها شفوية لا تتداولها سوي الألسن، والمشكلة هنا تتمثل في اختلاطها بعدد من الأساطير والخرافات[١٨].

إلا أن المكتشفات الأثرية أكدت بداية الوجود الحقيقي والمؤثر لليهود

في المغرب منذ نهايات القرن الثاني الميلادي، ففي مدينة "وليلي" التي تقع بين مدينة مكناس وفاس بالمغرب الأقصي، تم العثور علي بعض العبارات منحوتة علي شاهد قبر بالخط العبري تذكر:"مترونا ابنه ربي يهودا لها السكينة"، وكذلك في خرائب هذه المدينة تم العثور علي شمعدان برونزي منقوش عليه صورة لشمعدان، وفي منطقة "طنجة" تم العثور علي أواني خزفية مرسوم عليها شمعدانات ذات سبعة عروش(١٩).

لكن كيف استطاع اليهود الاندماج في هذا المجتمع المتعدد العناصر – هم فيه بكل الأحوال أقلية– بداية فإنه من الملاحظ أن اليهود أثناء هجراتهم وتوافدهم علي بلاد المغرب كانوا يلجأون للسكان الأصليين في الأماكن الداخلية والصحراوية من البلاد، وكيف أن هؤلاء استقبلوهم بسماحة وترحيب، ويمكن أن نرجع ذلك أولاً إلي كون الإثنين تعرضوا للاضطهاد والملاحقة من قبل الرومان باعتبارهم أقليات مقهورة ومغلوبة، أما مسألة الاندماج فقد سعي إليها اليهود قبل السكان المحليين واعتمدوا في ذلك علي أمرين: الأول أن التوراة كانت تنظر إلي الشعوب والأجناس التي خرج بهما موسي عليه السلام من مصر(٢٠) ومن انضم إليهم من الشعوب الأخري أسرة واحدة، لا فرق بينهم بسبب اللون أو الجنس وبذلك تكون اليهودية هي كل من يعتقد في الديانة اليهودية، ويؤمن بها ويمارس طقوسها وشعائرها بغض النظر عن لونه ووطنه(٢١)، فكان اليهود خليط من شعوب سامية وغير سامية، وكانوا يقصون علي المغاربة قصص التوراة لإظهار عظمة الله، وقواعد السلوك وأركان العقيدة وحياتهم منذ بداية تاريخهم وبطولتهم في مواجهة الأحداث، كل ذلك استمال سكان المغرب إلي دينهم وتضاعف عددهم بمرور الوقت، ولاقي هذا الدين في نفس هؤلاء قبولاً، خاصة أن معظمهم

من القبائل التي اعتادت التمرد والثورة ضد الظلم وعدم الخضوع لأي مستعمر، في الوقت الذي كانوا يخضعون فيه لزعماء القبائل طائعيين مختارين(٢٢).

وقد حرص اليهود من وراء سرد هذه القصص التي وردت بالتوراة أيضاً إلي جانب نشر الديانة اليهودية، التأكيد علي أنهم وسكان المغرب من أصل واحد من نسل آدم ثم إبراهيم (عليهما السلام)، وأن سكان المغرب أصلهم إحدي قبائل العرب وإن بينهم قرابة من ناحية أبناء العم، وذلك لكسب تعاطفهم في مواجهة الاضطهاد الذي تعرضوا له من قبل الرومان، لذا بحث اليهود علي من يثقون بهم، والأمر الثاني أن اليهود لم يكن يشغلهم أو يعنيهم نشر الديانة اليهودية قدر ما كان يعنيهم جمع المال والثورة فتحولوا إلي ارستقراطيين حريصين علي مخالطة علّية القوم، فتحالفوا مع رؤساء القبائل ليحافظوا علي وضعهم الاجتماعي والاقتصادي، ودفعوا الإتاوات ليأمنوا غارات القبائل أثناء مرورهم بتجارتهم بين أقاليم المغرب المختلفة أو إلي الموانئ لتصديرها(٢٣).

أمر آخر تجدر الإشارة إليه وهو أن اليهود استغلوا وجه التقارب بين عاداتهم وتقاليدهم وتلك الخاصة بسكان المغرب لكسب ودهم وصداقتهم مدللين علي ذلك بأنهم جميعاً من أصل واحد كما أشرنا، كما وجدوا في مصاهرة سكان المغرب فرصة لزيادة أعدادهم بعد عمليات التنكيل التي تعرضوا لها من قبل الرومان(٢٤)، فظهرت علي سبيل المثال أسماء يهودية ذات أصول مغربية، مثل عائلة"حلفون وخلفون واللبدي وبيجوا وسجمار ودوناش..الخ(٢٥)، وتقرب اليهود لسكان المغرب عن طريق شرح ماورد في ديانتهم عن أمور الحياة من جميع النواحي، مثل إقامة الحد علي مرتكبي

الزنا والسرقة، ولكن حين كانت النصوص الواردة في التوراة والخاصة بهذا تتعارض مع مصالحهم كانوا يفسرون النصوص وفق هذه المصالح للحفاظ علي امتيازاتهم الخاصة[٢٦].

هوامش البحث

1- Dio Cassius: History (Historia), Translated by: Cary, E.,(L.C.L.), London,1956,P. 32,3.

٢- فراس السواح: أرم دمشق، إسرائيل في التاريخ والتاريخ التوراتي، دار علاء الدين، دمشق، ١٩٩٥م، ص١٢٨.

٣- محمود نعناعه: المشكلة اليهودية وهل تحلها إسرائيل، الجزء الأول"من ظهور ابرام حتي سقوط يهوذا" مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٢م، ص٢٧١-٢٨١.

٤- فراس السواح: مرجع سابق، ص١٢٨.

5- Karen,B.S.: Lnscribing Devotion and Death, Archaeological Evidence for Jewish Populations of North Africa,Vo. 161,Boston, 2008,P.44,45.

6- Karen.B.: Op.Cit.P. 8.

٧- فراس السواح: مرجع سابق، ص٢٣٤.

٨- حاييم الزعفراني: ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب، ترجمة: أحمد شحلان، عبد الغني أبو العزم، الدار البيضاء، ١٩٨٧م، ص٩.

تدل التنقيبات الأثرية علي أن موقع مدينة "بيرينيكي" يشغل حالياً وسط مدينة بني غازي، وكانت هذه المدينة مزدهرة في العصر الروماني.

أحمد حسن غزال: اكتشافات جديدة لمقابر من العصر الروماني، في منطقة سيدي حسين بنغازي، مجلة كلية الآداب، عدد٦، بنغازي، ١٩٧٤م، ص١٤.

٩- ناتان شوراقي: تاريخ اليهود في شمال أفريقيا، إصدار سفاريم عام عوفيد، تل أبيب، ١٩٧٥م، ص٤١.

معظم النقوش المتعلقة باليهود في المغرب مكتوبة باللاتينية سواء منها الدينية أو غير الدينية.

Lassere,J.M.: Ubique Populus, Peuplement et movement de Population dans l'Afrique romaine de la chute de carthage a la fin de la dynastie des severes(146 A.C.-195P.C.)Paris,1977,P. 33-55.

١٠- مصطفي كمال عبد العليم: دراسات في تاريخ ليبيا القديم، المطبعة الأهلية، بنغازي، ليبيا، ١٩٦٦م.، ص١٩٠.؛ ميخائيل مكس أسكندر: بنتابولس المدن الخمسة الغربية، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٨٧م، ص٦١.

تارن: الحضارة الهلينستية، ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد، راجعه زكي علي، القاهرة، ١٩٦٦م، ٢٢٣، ٢٢٤-٢٣١.

11-Hirschberg: The Problem of The Judized Berbers, The Journal of African History, Vol.4,1963.P.64.

Praset,P.M.: Hadrian and acayrene WIth a note by, Appleebaum, JRS Vol,XL,1950,P.84.

12-Karen,B.S.: Op.Cit.,P.88.89.

محمد بن عثمان الحشائشي: العادات والتقاليد التونسية، تحقيق: الجيلاني، دار ساس للنشر، تونس، ١٩٩٤م، ص٢٤٠.؛ ميخائيل مكس أسكندر: بنتابولس المدن الخمسة الغربية، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٨٧م، ص٤٧.

برقة من الكلمات العبرية وتعني مكان تجمع مياه الأمطار، أرضها حمراء اللون ولها رائحة كريهة ويستخدم ترابها مع الزيت في علاج الجرب الذي يصيب جمال قبائل الطوارق(عكس جمال العرب التي تتحمل المشاق) وبرقة كثيرة الفواكهة والمراعي.

ابن سعيد: كتاب الجغرافيا، تحقيق: إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٨٢م، ص١٤٦، ١٤٧.

١٣-عبد اللطيف محمود البرغوثي: التاريخ الليبي القديم منذ أقدم العصور حتي الفتح الإسلامي، دار صادر، بيروت، ١٩٧١م، ص٣٦٧-٤٠٣، ٤٠٤.؛ ميخائيل مكس أسكندر: مرجع سابق، ص٨٠.

١٤-صالح بن داوود الآنسي: فتح الملك المعبود في ذكر إجلاء اليهود، تحقيق: محمد عيسي الحريري، مجلة دار العلوم، م٥، القاهرة، ١٩٨٥، ص٤.

Hirshberg: History of The Jews in North Africa VolumeI London,1974,P.54.

Slowsch,N.: Empirne de Berghouata at Origines des Blad-es.Siba-Revue du Monde Msulman,T,II,Paris,1910, P.394.

Ibid: Encyclopaedia:Judaic Jerusalem,Volume,4,Paris,1910,P.587.

١٥- عبد الوهاب بن منصور: قبائل المغرب، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٦٨م، جـ١، ص٣٠٨.

16- Slowsch,N.: Empime de,P.394.

17-Karen,B.S.: Op.Cit.,P.145.

أحمد الشحات هيكل: يهود المغرب، تاريخهم وعلاقتهم بالحركة الصهيونية، سلسلة الدراسات الدينية والتاريخية، العدد ٣٥، مركز الدراسات الشرقية، جامعة القاهرة، ٢٠٠٧م، ص١٥.

رشيد نجيب سيفاو: اليهود الأمازيغ، تاريخ وحضارة، مجلة الأفق الأمازيغي، عدد ١٤، ٢٠٠٧م، ص١٦.

http://alofoq-alamazighi.maktoobbog.com/?post=282499

18- Karen,B.S.: Op.Cit.,P.145.

http://alofoq-alamazighi.maktoobbog.com/?post=282499

١٩-حاييم الزعفراني: مرجع سابق، ص٩.

20-Karen,B.S.: Op.Cit.,P. 216.

لقد فشلت إلي الآن كل الجهود التي بذلت من أجل إثبات تاريخية أحداث قصة الخروج ولم يستطع المؤرخون وضع هذه الأحداث ضمن إطار تاريخي محدد.

فراس السواح: مرجع سابق، ص٧٢.

21-Karen,B.S.: Op.Cit.,P.177.

محمد خليفة حسن: تاريخ الديانة اليهودية, دار قباء للنشر والتوزيع, القاهرة, ١٩٩٨م, ص٢٩.

٢٢-حسن ظاظا: الفكر الديني أطواره ومذاهبه, دار القلم, سوريا, ١٩٧٨م, ص١٢, ١٣.

رشيد نجيب سيفاو: مرجع سابق, ص١٦-١٩.

http://alofoq-alamazighi.maktoobbog.com/?post=282499

أحمد توفيق المدني: كتاب الجزائر, دار الكتب, الجزائر, ١٩٦٣م, ص٩٩.

أحمد مرسي, فاروق محمد جودي: الفلوكلور والإسرائيليات, دار المعارف, القاهرة, ١٩٧٧م, ص٨.

Basset, R.: Nedromah et Les Traras, Paris,1901, P.10,11.

Ibid: Selections from The Koran, The Christian Literature Society for India, London And Madras, 1896, P.61.

٢٣-جمال حمدان: اليهود أنثروبولوجياً، المكتبة الثقافية، دار الكاتب للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٧م، ص١٦.

٢٤- حاييم الزعفراني: مرجع سابق، ص٩.

إذا كان الأب متهود فلا يعترف بأبنائه كيهود لأن النسب للأم اليهودية، ولذلك لا يجوز أن يتزوج متهوداً زوجة يهودية إلا إذا وافق علي أن ينسب الأبناء لديانة الأم، فكانت المصاهرة تتم في حالة زواج اليهود من البربري لكسب أنصار للديانة لأنه ينسب الأبناء للأم، ويعد يهودياً من يولد لأم يهودية وأب غير يهودي.

Karen,B.S.:Op.Cit.,P. 212.

عبد العزيز بن عبد الله: مظاهر الحضارة المغربية، جـ٢، دار السلمي، المغرب، ١٩٥٨م، ص١٤١؛ عبد الوهاب محمد المسيري: موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية رؤية نقدية، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية، الأهرام، القاهرة، ١٩٧٥م، ص٢٠٥.

٢٥-صالح بن داوود الأنسي: مصدر سابق، ص١٧٥؛ الفردبل: الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتي اليوم، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، دار ليبيا للنشر والتوزيع، بنغازي، ١٩٦٩م، ص٥٥.

Goitein,S.D.: A Mediterranean Society,The Jeuish Communities of The Arab World As Portrayed in The Documents of The Cairo Geniza-969-1250,University of California Press,Vol,3,1978.
Hirshberg: Op.Cit., P.155.

٢٦-ثروت أمين الأسيوطي: نظام الأسرة بين الاقتصاد والدين، الجماعات البدائية بنو إسرائيل، النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٦م، ص١٩٥.

Hirshbearg: The Problem.Op.Cit.,P.319.

الحاضنة أو المرضعة τροφεὺς في مصر في عصر الرومان

أسماء محمد متولي الطموهي
دكتوراه التاريخ القديم اليوناني الروماني جامعة القاهرة

اهتمت الأمهات منذ فجر التاريخ القديم بإرضاع مواليدهم سواء بأنفسهم أو عن طريق أخريات فتثبت المصادر القديمة وجود مهنة المرضعة في مصر منذ عصر الفراعنة(١) فقد كان بعض الأفراد لسبب أو لأخر يقومون بإستئجار احدي السيدات لإرضاع مواليدهم أو لقطائهم والاهتمام بهم حتى الفطام(٢) ورغم وجود وانتشار المهنة إلا أن الكتابات المصرية القديمة تثبت أن الطبيعي أن تقوم الأم بإرضاع المولود حيث امتدت فترة الرضاعة قديماً إلى ثلاث سنوات فيوصى الحكيم " إني " ابنه في إطار قيمة الوفاء للأم وكيفية معاملتها وما لها من أفضال قائلا " ضاعف مقدار الخبز الذي تعطيه لوالدتك واحملها كما حملتك ثم بعد ولادتك حملتك حول رقبتها وقد أعطتك ثديها ثلاث سنوات، ولم تكن متبرمة ولم تنفر من فضلاتك، ثم ألحقتك بالمدرسة لتتعلم الكتابة "(٣)

ومن عصر البطالمة تصور النقوش على جدران معبد الدير البحري ملكات البطالمة وهن يرضعن أولادهم كذلك وجدت عقود لعمل المرضعات ترجع إلى العصر البطلمي وان كانت للأسف قليلة جداً إلا أنها تثبت استمرار المهنة بتلك الفترة (٤)

استمرت المهنة في مصر في العصر الروماني يدلنا على ذلك عدد كبير من البرديات[٥] التي حفظت عقود وإيصالات ابرمها الأفراد مع المرضعات لضمان حقوق وواجبات الطرفين

وقد أشير إلى الحاضنات أو المرضعات بالمصادر بمصطلح τροφεὺς أو τροφεὶων حيث ورد المصطلح بعدد من البرديات[٦]

تثبت البرديات إن بعضاً ممن مارسن مهنة المرضعة في مصر الرومانية كن فارسيات الأصل فذكرت المرضعة ديودورا بتوقيعها على عقد حضانة أنها فارسية الأصل

LL.66-67Hανδ 6
Διοδώιρα ἡ καὶ ταποντῶιτος Δημητρὶου τοὺ καὶ πετερ-
μούθεως περσὶνη [٧]

(أنا، ديودورا، الياس تابونتوس، ابنة ديمتريوس، إلياس بترونيموسيس فارسية)

كما ذكرت ديدوما ابنة ابوللونيوس، في العقد الذي أبرمته، إنها فارسية الأصل، وكذلك الوصي [٨] عليها أخوها اسخوريون ابن ابوللونيوس.

LL.3-5
καί παρ[αΔ]ιδ[υ]μης [τῆσ] ΄Απολ[ωνὶού Περ]σεὶνης
[μετὰ κυρὶου] τουὰδελφου
Ισχυρὶωνος τοῦ Απολλων[ὶου Πέρσου τῆς ὲπιγονῆς[٩]

ويبدو أن عدداً من الفارسيات قد امتهن تلك المهنة, فعبارة فارسية περσὶνη، أو فارسية الأصل أو من فئة الفرس πὲρσαι της ἑπιγονῆς قد كررت بعدد غير قليل من عقودهن[١٠].

اغلب ما لدينا من وثائق يثبت عمل حرائر بتلك المهنة، وبخلاف عقود

العمل المبرمة بين الحاضنات ومن يستأجرهن، فان ابرز دليل على كونهن حرائر، الوثائق القانونية للشكاوى والمرافعات القضائية، التي كانت المرضعات طرفاً فيها، فيذكر أن العبيد والنساء(١١) كانوا ناقصي الأهلية القانونية بتلك الفترة، كذلك لم يكن يحق لهم اى من المعاملات المالية بدون مالكيهم، ومما يثبت ممارسة الحرائر للمهنة، تمثيلهم القضائي لأنفسهم مع الوصي عليهن، سواء الأخ أو الزوج، كذلك استلامهم للمخصص المالي لهم بأنفسهم .

يثبت هذا دفاع المرضعة سارئيس عن نفسها بنفسها، في محاكمة أمام الاستراتيجوس، فاعترفت باستلامها النقود المتفق عليها والطفل ولكنها ادعت وفاة الطفل بعد فترة قصيرة من استلامه، وأن الطفل الذي استولى عليه بيسريس المدعى عليه، من منزلها الشخصي عنوة هو ابنها، وكان رد الأستراتيجوس الذي كلفه الوالي بالتحقيق في الشكوى وإصدار الحكم، أن يَنظر إلى ملامح الطفل محل النزاع جيداً، لملاحظة ملامحه وبعد المعاينة تبين أن الطفل هو بالفعل أبن المرضعة وزوجها، فأمر بإعادته إليها، وحكم عليها أن تعيد بنفسها المال الذي تسلمته من بيسريس، إليه مرة أخرى .

LL.24-30

Ο στρατηγὸς,επεὶ εκ τῆς οψεως φαὶνεται τῆς Σαραεῦτος εῖναι τὸ παλδον,εὰν χιρογραφὴσηι αυτὴι τε και ὸ ὰνηρ αὺτῆς ὲκεῖνο τὸ ενχει-ρισθὲν αὺτῆι σωμὰτιον υπο τοῦ Πεσοὺριος τετελευτηκὲναι, φαὶνεταὶ μοι κατὰ τὰ υπὸ τοῦ κυρὶου ἠγεμὸνοσ κρλθὲντα ὰποδοῦσαν αὺτὴν ο εὶλφεν αργὺριον εχειν τὸ [ὶδιο]ν τὲκνον. (١٢)

(الاستراتيجوس من ملامح الطفل يبدو انه ابن سيريس فلو قامت هي وزوجها بعمل إقرار مكتوب إن اللقيط المعهود إليها به من بيسوريس قد مات، فأنى أعطى حكماً تبعاً لقرار الوالي إن من لديها هو ابنها على إن تعيد المال الذي تسلمته)

لم تكن المهنة مقتصرة على الحرائر فتثبت البرديات عمل الإماء أيضاً بتلك المهنة، فلدينا عقداً لمرضعة أمة تعاقد سيدها عنها(١٣)، والوثيقة من عام ٥ ق.م حيث تعاقد مواطناً رومانياً يدعى جايوس أجناتيوس مكسيميوس عن أمة تدعى "خروتاريون" كان يمتلكها لتعمل مرضعة لدى احد الافراد (١٤)

ولدينا عدة وثائق عبارة عن إيصالات مخالصة عن حقوق مرضعات (١٥) فيذكر بتلك الإيصالات إقرار مالك المرضعة بتسلمه كامل أجرها

LL.6-25
ὁμολογῶ ἀπεσχηκὲναι
παρὰ σοῦ διὰ ' Ἡλιοδὼρου καὶ τῶν σὺν αὐ-
τῷ ἐπιτηρητῶν τῆς ε'πί τοῦ πρός Οξυρὺγχων πὸλει Σαραπ-
εἱου τραπέζης,ἧς ὑπὸχεσις ἐδὸθη ὑπο''Επιμάχου,α'ργυριου
σεβαστοῦ νομίδματος δραχμὰς τετρακοσίας , οὔσας ὑπὲρ
τροφεὶων καὶ ἐλαίου καί ἱματισμοῦ καὶ τῆς ἀλλης δαπ-
άνης πάσης ἐτῶν δύο ὧν ἐτρὸφευσεν ἡ δούλη μου Σαραπι
άς τήν θυγατέρα σου Ελένην χρηματίζουσαν ἐξ οὗ(١٦),
ην και παρείληφας απο γεγαλακτισμένην καί τετευχυῖαν
πάσης ἐπιμελεὶας ,καί μηδέν σοι ἐνκαλεῖν μηδέ ἐνκαλέσ
ειν μηδέ ἐπελεύσεθαι μήτε περὶ τοὺτων μηδὲ περὶ ἀλλου
μηδενός ἁπλῶς μέχρι τῆσ ενεστώσης ἡμ[ὲ]ρας. κυρὶα ἡ
ἀποχὴ(١٧)

(أقر إنني قد تسلمت منك عن طريق هليودوروس والذين معه وكلاء البنك القائم في السيرابيوم بمدينة اوكسيرنخوس الذي اصدر له وكلاء

ابيماخوس ضماناً بدفع مبلغ أربعمائة دراخمة من العملة الفضية الإمبراطورية, كأجر للمرضعة، وللزيت وللكساء وسائر النفقات الأخرى للعامين التي قامت خلالهما أمتي سيرابياس بحضانة أبنتك هيلينا المنسوبة اباً إلى من كان (اى ابنة أبيها المجهول) والتي تسلموها بعد أن فطمت وتمت معاملتها بكل رعاية ولن يكون في الحاضر أو المستقبل اى مطالبة نحوك ولن اتخذ اى إجراء حول هذا الأمر أو بخصوص اى موضوع أخر مهما كان حتى يومنا هذا والإيصال قانوني) [١٨]

ويبدو أن الأفراد قد اعدوا إمائهم لتلك الوظيفة لما تدره من ربح هذا إن كانت قد ولدت طفلاً قريبا لكن عندما لم يكن لدى الإماء المرضعات رضع مكلفين بهم فان مالكيهم كانوا ينتفعون بهم في اى عمل أخر فقد ذكر بأحد الخطابات الخاصة التي أرسلتها ثيرموثاس لامها فاليريوس أن مرضعتها رودينى ترسل لها الكثير من التحيات وتشرح لامها أنها قد أرسلت المرضعة لعمل خارج المنزل لفترة وتقر لامها بأنها تشعر بالاحتياج إلى رودينى[١٩]. وللأسف لا يوضح الخطاب طبيعة العمل الذي أرسلت المرضعة لأدائه لكن يفتح الخطاب مجالاً للاعتقاد بان هناك من كان يجلب تلك الفئة إلى منزله لإرضاع الطفل بمنزل والديه

تضمنت عقود المرضعات العديد من الشروط والالتزامات والجزاءات التي حكمت العلاقة بين المرضعة وولى الطفل مما يحفظ حقوق الطرفين على أكمل وجه[٢٠] ومن هذه الشروط أن المرضعات كن يمارسن هذا العمل لطفل واحد فقط طوال مدة العقد كما نصت على ذلك شروط العقود فكانت المرضعة تلتزم بالا ترضع طفلاً أخر أثناء مدة التعاقد المتفق عليها ويفهم من هذا الشرط ألا تعقد عقدا لإرضاع طفل أخر طوال فترة العقد الأول بخلاف ابنها الذي ولدته ورغم عدم التصريح بعبارة – الاقتصار– على ابنها المولود

لها إلا انه يفهم ضمناً لأنه من الطبيعي أن يكون للمرضعة طفلاً سواء بلغ الفطام أم لم يبلغ بعد وتثبت عريضة دعوى بيسيريس ضد سارئيس ذلك فهي تصرح علناً أن الابن الذي استولى عليه الأول من منزلها هو ابنها الذي ولدته[٢١] استمرت مهمة المرضعات لمدد متراوحة سواء لأقل من عام[٢٢] أو لخمسة عشر شهراً [٢٣] أو لستة عشر شهراً [٢٤] أو لعام ونصف العام[٢٥] أو لعامان [١]أو ما يزيد عن العامان بنصف عام [٢٧]

LL.46-47
[Ca.10 letters
ῶ ὀνομαι]Ἐπαφρὸδιτοσ ἄρὸης ἐφ ε'τη δύο ἀπὸ
[παυνι του δευτέρου καί ἐικ]ọσ̣του ἔτους κα<ίσ>αρος[٢٨]

("يدعى... " ذكر, لمدة عامان, تبدأ من "شهر" بؤونة للعام الثاني والعشرين) وقد شملت مهام المرضعة عدد من الالتزامات المفروضة عليها لضمان استمرار عملية الرضاعة على خير وجه حتى نهاية الفترة المحددة بعقد الرضاعة حيث التزمت الحاضنة برعاية نفسها والرضيع رعاية تامة مما يعنى أن صحة الطفل الرضيع مرتبطة بصحة المرضعة وبالظروف التي تحيط بها[٢٩] وكان من ذلك الالتزام بعدم مخالطة الرجال[٣٠] وألا تأخذ طفلاً أخر إضافيا غير المتعاقد عليه وبعدم الحمل أثناء فترة حضانة الرضيع

LL.56-59
καὶ οὐκ ἐξεσται τῃ Διοδωρα τειν οὐδεν δυόενθετον προσφ
εριν επει τῃ του
γὰλακτος ἐγλειψελ,ἀλλά καὶ μετὰ τον χρόνον παραδο-
τωσαν τὸ θρεπτον ὑγειη[٣١]

(ولا يسمح لديودورا أيضا أن تضاجع الرجال، أو إن تأخذ طفلاً إضافيا، وألا يفسد لبنها)

إن المقصود بعدم إفساد المرضعة للبنها هو الحرص على ضمان كثافة

اللبن وقيمته الغذائية بعدم تناول كميات كبيرة من الماء قبل الرضاعة[٣٢] ونضيف إلى ذلك انه من الممكن أن يكون المقصود بإفساد اللبن هو الحالة النفسية للمرضعة حيث كان من المعتقد أن الحزن **أو الغضب** يودى إلى فساد اللبن أو قلته على اقل تقدير[٣٣] هذا رغم إن **الدراسات الطبية الحديثة** قد أثبتت إن هذا الاعتقاد ليس صحيحا بالمرة، فلا علاقة بين فساد اللبن والقلق أو الغضب.[٣٤]

كانت المرضعات ملزمات بإحضار الطفل إلى بيت من عهد إليها به في أوقات وعدد مرات محددة إذا نص عقد الحضانة على ذلك وكان الهدف من ذلك أن يتأكد صاحب الرضيع من وجوده, ويتأكد من حسن رعايته، كما كان صاحب الرضيع يحضر إلي المرضعة مستلزمات الرضيع ويلزمها بالحفاظ عليها وتسليمها عندما يطلب منها ذلك وكانت العقود تلزم المرضعة بدفع ثمن الناقص من تلك المستلزمات إلا إذا أثبتت المرضعة ضياعه فعلاً [٣٥]

ومن دراسة الشروط الجزائية التي تضمنتها عقود المرضعات نلاحظ مدى ما تعرضت له المرضعات من خضوع وتكبيل خلال مدة الحضانة فبالإضافة إلى الشروط الخاصة التي فرضت عليها تضمنت عقود المرضعات عدداُ من الشروط الجزائية القاسية بل أن شرط حضورها هي والرضيع عدداً من المرات خلال الشهر كان يجعلها خاضعة لأشراف صاحب الرضيع دورياً, حتى وان كان الهدف الرئيسي من ذلك هو الاطمئنان على الرضيع، وإذا كان خضوع المرضعة الأمة أمراً طبيعياً بالنسبة لها لا نجد فيه غضاضة من الناحيتين النفسية والقانونية فانه كان بلا شك وضعاً قاسياً على المرضعة الحرة، وقد يكون مرد ذلك إلى أوضاع كل من المرضعة وصاحب الطفل فخوف ولى الطفل كان يدفعه إلى التشدد، كما كانت الضغوط الاقتصادية تفرض على المرضعة قبول تلك الشروط

الثقيلة(٣٦) تضمنت عقود المرضعات إلزاما بالحفاظ على حياة الرضيع مدة الحضانة وفى حالة الوفاة تعيد المرضعة المال المتفق عليه لبقية مدة العقد أو يعهد إليها بطفل جديد لتقوم برعايته بدلاً من المتوفى (٣٧) كما ألزمت المرضعات أن تدفع شرطاً جزائياً عبارة عن غرامة مالية تراوحت بالبرديات ما بين ٢٠٠ درخمة إلى ٦٠٠ دراخمة وان يكون للطرف الأخر الحق في التنفيذ على نفسها وممتلكاتها إذا صدر حكماً قضائياً عند إخلالها باى من شروط العقد فعادة ما تذكر يذكر الطرف الأخر إن له حق التنفيذ على أنفسهم وممتلكاتهم (٣٨)

وقد يتفق على حق التنفيذ على الممتلكات دون الحصول على حكم قضائي أو دون اتخاذ إجراءات قضائية(٣٩) حيث تعهدت إحدى المرضعات بدفع مبلغ مماثل للغرامة لخزينة الدولة عند أخلالها بشروط العقد(٤٠)، وربما يرجع ذلك إلى كون عقدها سنوي، حيث خصص لها مبلغ ٦٠ درخمة سنوياً، بالإضافة إلى اثنين مكيال زيت شهرياً .

من بين سطور البرديات، نلاحظ أن العاملات بمهنة المرضعة من الأحرار، كن من فئات الشعب المغلوبة على أمرها، فإكمالا للنزاع سابق الذكر بين المرضعة واحد الأفراد المتعاقدين معها ويدعى بيسوريس, وقيام الأخير بالاستيلاء على ابن المرضعة عنوة من منزلها، ورغم صدور حكم لصالح المرضعة باسترداد وليدها(٤١)، ودفعها كامل حقوق الطرف الأخر، إلا أن بيسوريس لم يترك المرضعة وزوجها لحالهما, يدلنا على ذلك شكوى جديدة، ببردية اخرى قدمها زوج المرضعة والوصي عليها، ويدعى تريفون بعد انتهاء النزاع وصدور الحكم إلى والى مصر جنيوس فرجيللوس كابيتو(٤٢)، بعد بضعة شهور من صدور الحكم الأول، يتهم فيها بيسوريس بإعاقة تجارته ومضايقته، وعدم امتثاله للحكم السابق الصادر من

الاستراتيجوس .

LL.15-19
τοῦ δὲ Σύρου
μὴ βουλομένου ἐνμεῖναι τοῖς κεκριμένοις
ἀλλὰ καὶ καταργοῦντός με χειρότεχνον ὄντα
ἐπὶ σὲ ṭọẹụγω τὸν σωτῆρα τῶν δικαίων τυχεῖν [٤٣]

(ومع ذلك يرفض بيسوريس الامتثال للحكم ويهاجمني في أعمالي التجارية، لذلك جئت إليك أيها الحامي لي كي احصل على حقوقي)

اختلفت أجور المرضعات المذكورة بعقودهن حسب مدة العقد، والفترة الزمنية التي وقع فيها العقد، فهناك عقود سنوية وهناك عقود شهرية، كما تنوعت الأشياء العينية التي نالتها المرضعات بتلك العقود .

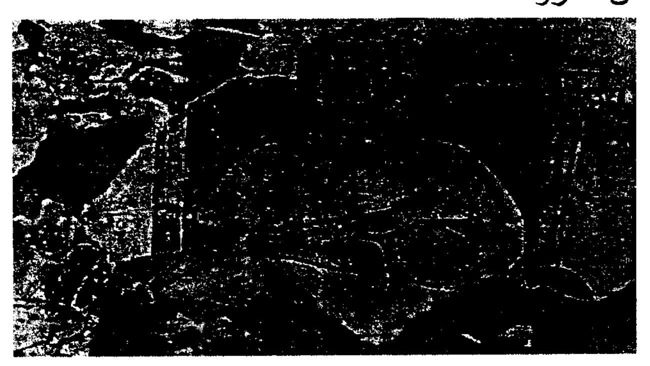
وبالإضافة لقيمة العقد كانت الأسر تهدى المرضعات بعض الهدايا العينية، تقديراً لجهودهن مع الطفل، ولحثهن على الاهتمام به، فيحمل عقد مرضعة تدعى تأوسيس، القاطنة في قرية بوباسطس بقسم هيراكليديس بأرسينوى (الفيوم حاليا) يرجع إلى عام ١٤٠ م التزاماً منها بإرضاع ورعاية المولودة تورانوس بنت بطليموس وإقرارا بتسلمها اجر شهر طوبة للعام نفسه ويساوى ٢٠ دراخمة، ويذكر العقد أن الأسرة قد وهبت تأوسيس قرطاً من الذهب في ذكرى ميلاد تورانوس ابنتهم [٤٤]

تثبت البرديات أن معظم المرضعات كن لا يعرفن الكتابة حيث وردت عبارة إن احدهم قد كتب لهن لأنهن لا يعرفن الكتابة[٤٥] بأغلب البرديات التي ورد بها ذكرهن

LL.82-83
`Αχιλλεύς Ερμίου διὰτι μὴ ε[ἰ'-]
δέναι αὺτους γράμματ[α.] [٤٦]

(اخيللوس هرمياس كتب هذا لهم لأنهم لا يستطيعون الكتابة)

لقد ارتبطت أهمية المرضعات بشكل كبير بانتشار ظاهرة اللقطاء من الرضع منذ عصر الفراعنة وامتداداً للعصر الروماني فمعنى التقاط طفل من أكوام السباخ والنفايات معناه امتلاك عبد بتكلفة اجر المرضعة التي ستتولى رعايته ونتوقع إلا يقدم على تلك التجربة إلا ميسوري الحال الذين تسمح لهم أوضاعهم المالية بخوض تلك التجربة لامتلاك عبد سواء لاستخدامه أو لبيعه أما الفقراء فليس من المعقول أن يقدموا على مثل هذا العمل اللهم إلا إن كانت زوجاتهم هم من سيتولون مهمة إرضاع اللقيط وتربيته في حال كونهم أمهات مرضعات بتلك الفترة والدليل على ذلك من عقود المرضعات أنفسهم فالتعهد بعدم إرضاع طفل أخر كان بنداً أساسيا بتلك العقود وما يلفت النظر أن من الطبيعي إن يكون التعهد بعدم إبرام عقد أخر طوال مدة العقد لكن ذلك لم يذكر مما يضع احتمال امتهان المرضعات لتربية العبيد كذلك يعطى انطباع أن إرضاع طفل لقيط وتربيته سواء من قبل أم تمتهن مهنة الرضاعة أو لا تمتهنا كان معروفاً .



ايزيس المرضعة – جداريه من كرانيس ترجع للعصر الروماني

الهوامش

١- هناك دليل قاطع من القران الكريم على وجود مهنة المرضعة بمصر الفرعونية قال الله تعالى، بسم الله الرحمن الرحيم (وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون) صدق الله العظيم، سورة القصص، الآية ١٢. ومن الآية يتبين أن المهنة لا تقتصر على الرضاعة فحسب بل تتعداها إلى التربية والنصح والإرشاد

٢- حيث لم تستعمل المرضعات إلا الطبقة العليا أما الأكثرية العظمى من الأمهات فكن يرضعن أولادهن لمدة قد تصل أحياناً إلى ثلاث سنوات، وقد يرجع طول مدة الرضاعة إلى الحالة الاقتصادية لأن لبن الأم أرخص غذاء للطفل وأسهل وسيلة لتغذيته، وفوق ذلك فان الإرضاع يعوق الحمل عادة والرغبة في تحديد النسل كانت موجودة بالفعل لدى بعض الأمهات الراقيات، حسن كمال، الطب المصري القديم، ص ٣١٠

٣- راجع، سليم حسن، الأدب المصري القديم،الجزء الأول، القصة و الحكم والأمثال والتأملات والرسائل الأدبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب،٢٠٠٠، ص ٢٢٦ ، عبد الحليم نور الدين، أثار وحضارة مصر القديمة، الجزء الأول، دار الخليج العربي للنشر، ص ٢٨٧

٤- محمد فهمي عبد الباقي،عقود العمل في مصر في عصر الرومان، رسالة دكتوراه، كلية الآداب جامعة عين شمس، ١٩٨٥، ص ١٤٧

٥- راجع القائمة الكاملة لعقود عمل الحاضنات في، محمد فهمي عبد الباقي،عقود العمل في مصر ص٢٢٨ ومنها

BGU.IV.1111(15BC),BGU.IV.1153(14),BGU.IV.1058(13BC),BGU.IV.1106=Mitt.Chrest.108(13 BC), BGU.IV.1107(13BC), BGU.IV.1108 (5BC), BGU.IV. 1109(5BC), BGU .IV .1110 (5BC) ,SB.IV,7619 (26)=P.Rein.II.103, P.Rein.II.104(26),P.Mich.II.128(46-67), P.Mich. III. 45, 46 (46-67), P.Mich.v.240.p.I.13,p.II.63,64(46-47), PSI.X.1131 (41), P.Oxy.I. 37 (49), 38 (49/50), BGU.I.297(50), PSI.III.203(87), SB.7607 (111), P.Bour.14(126/127), PSI.IX.1065 (157), P.Oxy.I.91 (187), P.Tebt.399 (2nd cent),P.Oxy.XIV.1717(251), BGU.IV.1107

(13BC), BGU.IV.1106 (13BC), BGU.IV.1109 (5BC), P.Oxy. I.91 (187)

6- S. M. E. van Lith., Lease of Sheep and Goats / Nursing Contract with Accompanying Receipt., ZBE., Bd. 14 (1974), p.149

٧- رغم كونها فارسية الأصل إلا أن المرضعة قد خضعت لقوانين الوصاية المتبعة فلم تمثل نفسها بنفسها بالعقد بل خضعت للقوانين والأعراف المتبعة فكانت المرأة عاجزة عن القيام بأي تصرف قانوني بمفردها دون أشراك وصيها معها، ويلاحظ هذا فى جميع عقود المرضعات والوصي هنا قد يكون وصياً شرعياً أو مختاراً أو وصياً قضائياً، فكانت الوصاية الشرعية على النساء بمقتضى قانون الألواح الاثنى عشر للأقرب فالأقرب من الأعصاب ثم لأعضاء العشيرة عند عدم وجود أحد من الأعصاب فتخضع البنت عند وفاة أبيها لوصاية أخوتها أو أعمامها وتخضع الزوجة تحت السيادة عند وفاة زوجها لوصاية أولادها الذكور أو أخوه زوجها أو أعمامه وتكون الوصاية الشرعية أيضا للمعتق وفروعه على من أعتقه ولرب الأسرة على بنته المحررة سواء كان أباها الحقيقي أوجدها أو شخصا أجنبيا راجع:. عمر ممدوح مصطفى، القانون الروماني، دار المعارف بمصر، الطبعة الثالثة ١٩٥٩ ص ٢٥١، وعن وضع المرأة والعبيد والقصر القانوني في العصر الروماني راجع : فاطمة الزهراء هاشم، الروابط الأسرية فى مصر الرومانية، فى ضوء الوثائق البردية من القرن الأول حتى القرن الثالث الميلادي،رسالة ماجستير كلية الأدب،جامعة القاهرة ١٩٩١، غير منشورة، ص ص ٩٦ : ٩٧،

Arjava, A., The guardianship of Women in roman Egypt ,akten de 21 internationalen papyrologen congresses Berlin,1995,AFP,3,1997, p.25:30

8- BGU.IV.1107(13BC)

9- BGU.IV.1058(13BC).,BGU.IV.1106(13BC),BGU.IV.1107 (13BC), SB. V.7619(26)., SB,V.7607(111), S. M. E. van Lith.,op.cit.,p149,

١٠- محمد فهمي عبد الباقي،عقود العمل فى مصر، ص ١٥٣

١١- كان العبيد عاجزين عن القيام بأي تصرف قانوني بمفردهم دون أشراك مالكهم، وعن وضع العبيد والقصر القانوني في العصر الروماني راجع :.فاطمة الزهراء

هاشم، الروابط الأسرية في مصر الرومانية، في ضوء الوثائق البردية من القـرن الأول حتى القرن الثالث الميلادي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، قسم الدراسات اليونانية والرومانية جامعة القاهرة ص ص ٩٦ : ٩٧، Arjava, A., The guardianship of Women , p 25:30

12- P.Oxy.I.37,LL.24-30

13- BGU.IV.1109(5BC)

١٤- حسن احمد حسن, المواطنون الرومان المقيمون في مصر منذ الفـتح الرومـاني، ص٢٥٨

15- P.Oxy.I.91,P.Tebt.399

١٦- χρηματίζουσαν ἐξ οὗ المعنى المقصود بالكلمة ان كاتـب العقـد لا يعـــرف مــــن يكـــون الاب فـــى كـــل الأحـــوال راجـــع Grenfell and Hunt.,The Oxyrhynchus Papyri,vol I, p.154

17- P.Oxy.I.91 (187)

١٨- سيد احمد على الناصري، الناس والحياة في مصر في عصر الرومان، دار النهضة العربية، ص ٣٢١

19- J. G. Winter, An Illiterate Letter of the Second Century Aegyptus, Anno 13, No. 3/4,dedicato al prof. Ulrico Wilcken in occasion del suo LXX Anno(Aprile-settembre 1993) pp. 363-366-= SB.VI.7572 (early 2nd cent

٢٠- (عن الشروط الحاكمة راجع، محمد فهمي عبد الباقي، عقود العمل فى مصر فـى عصر الرومان، ص ص ١٦٣-،١٧١،

K.Bradley., Sexual Regulation in Wet-nursing Contract from Roman Egypt KLIO,62,1980,pp321-325

Z.Tawfik, Wet-Nursing stipulations in greek papyri and Arabic sources,Akten XXXI= APE,1997, pp946-947

21- P.Oxy.XXXVII(49), P.Oxy.XXXVIII(49)

22- BGU.IV.1109(5BC)-

23- BGU.IV.1107(13BC)

24- BGU.IV.1107(13BC)

25- BGU.IV.1106(13BC)

26- BGU.IV.1058 (13BC)=Mitt.Chrest.170, S. M. E. van Lith., Lease of Sheep and Goats / Nursing Contract with Accompanying Receipt., ZBE., Bd. 14 (1974), pp. 145-162,SB.7619(26),PSI.III.203(87)

27- SB.7607(111)

28- S. M. E. van Lith., Lease of Sheep and Goats / Nursing Contract with Accompanying Receipt.,p.148

٢٩- محمد فهمي عبد الباقي، عقود العمل في مصر في عصر الرومان، ص ١٦٣

٣٠- ومرد هذا الشرط إلى ما هو شائع ومعروف من انه يترتب على الحمل عـادة أن يفقد لبن المرضعة كثيراً من قيمته الغذائية بل انه قد يجف، وقد عبر عن الخـوف من جفاف لبن المرضعة فى بعض العقود لكن كيف نفسر ذلك فى الوقـت الـذي كانت تتعاقد فيه حاضنات لهن أزواج يتعاقدون بأسمائهن؟ أكان الأزواج يمتنعـون عنهن فعلاً ام أنهن كن يعرفن طرقاً لمنع الحمل ؟ هذا ما تصعب الإجابـة عنـه، راجع، محمد فهمي عبد الباقي، عقود العمل فى مصر فى عـصر الرومـان، ص ١٦٤

31- S. M. E. van Lith., Lease of Sheep and Goats / Nursing Contract .,p-148,

٣٢- محمد فهمي عبد الباقي، عقود العمل، ص ١٦٤

٣٣- تمت الاستعانة بأحد الأطباء المتخصصين لمحاولة الوصول للمقصود بالعبارة وقد شرح عدد من الأسباب الطبية الأخرى ونضيف إلى ذلك ان من الأمـراض التـي تودي إلى حدوث ما يعوق عملية الرضاعة ومنها ما يعرف طبياً بخـراج الثـدي Breast Abscess أو عدوى الثدي <u>Breast Infection</u> وهـم مـن الأمـراض الناشئة عن عدم الاهتمام بالنظافة راجع Muriel J.L.Frazer,Brest Abscess, *The British Medical Journal*, Vol. 1, No. 5135 (Jun. 6, 1959), p. 1476

٣٤- سوسن الجندي، صححي معلوماتك عن الرضـاعة، جريـدة الأهـرام، العـدد **43275**، رقم ١٢٩ لسنة ٢٠٠٥، صفحة المرأة والطفل

٣٥- (محمـد فهمـي عبـد البـاقي، عقـود العمـل ، ص ص١٦٥ - ١٦٦، BGU.IV.1107,LL.14-16

٣٦- عن الشروط الجزائية بالعقود الخاصة بالمرضعات راجع،محمد فهمي عبد الباقي، عقود العمل، ص ص ١٦٧ - ١٦٩

37- S. M. E. van Lith., Lease of Sheep and Goats / Nursing Contract, column,II,LL.60-61

38- van Lith., Lease of Sheep and Goats / Nursing Contract, column,II,LL62-63,p.148

٣٩- محمد فهمي عبد الباقي، عقود العمل في مصر، ص ١٦٨ BGU.IV.1110,

40- SB.IV.7619(26)

41- see, P.Oxy.I.XXXVI,XXXVII (45)

٤٢- جنيوس فرجيليوس كابيتو والى روماني على مصر فى الفترة من (قبل ٢٥/١/٤٨ الي ٢٤/٤/٥٢) راجع Reinmuth . The Prefect of Egypt from Augustus to Diocletian , kilio , 34, 1935 , p.131-139

43- P.Oxy. 1 38 (49/50)

44- C.P.Gr.30 (140)

٤٥- من الصعب أن نحدد المقصود بلفظ جاهل وذلك لتعدد اللغات المستخدمة في مصر الرومانية فقد كتب البعض بالديموطيقية وألحقت به الصفة γραμματα فقد أدى كون التعليم في مصر الرومانية تعليماً خاصاً يستطيع الفرد أن ينال منه القليل أو الكثير حسب مكانة أسرته الاجتماعية إلى انتشار الجهلاء γραμματοι راجع

Winter.P., Life and Letters in the Papyri, the Jerome lectures. Univ., of Michigan press, 1933 , p.68

46- van Lith., Lease of Sheep and Goats / Nursing Contract, column,II,LL82-83,p.149



عقود بيع الأراضى الزراعية بين الدولة والأفراد فى مصر فى العصر الرومانى

خلال الفترة من (٣٠ ق.م -٢٨٤ م)

الباحثة / ماجدة بهلول عبد الهادى على

ارتبط المصريون بنهر النيل منذ القدم وارتبطت الحضارة المصرية بالزراعة، فابتكروا الآلات الزراعية، وراقبوا عمليات سير النجوم والفلك لمعرفة أوقات الفيضان، وقاموا بتصوير نشاطهم الزراعى على جدران معابدهم من حرث ورى وحصاد وتخزين، واستمر النشاط الزراعى خلال العصرين البطلمى والرومانى يمثل أسس الحياة الاقتصادية، فاهتم البطالمة بتوسيع الأراضى الزراعية وشق القنوات وتطهيرها وإدخال محاصيل جديدة والاهتمام بأنظمة الرى، ولكن مع نهاية عصر البطالمة بدأ كل هذا فى التدهور، ومع مجئ الحكم الرومانى، أعطى أوغسطس اهتمامًا كبيرًا للزراعة نظراً لما تحملة مصر وأرضها الزراعية من قيمة مهمة لروما فى إمدادها بالقمح، فقاموا بتحسين ما تدهور فى عصر البطالمة وشجعوا على نظام الامتلاك الخاص للأراضى الزراعية واستغلال أكبر قدر من الأراضى الزراعية واستصلاحها، وكان لكل هذه التطورات والمعاملات وجوب وجود صياغات قانونية ممثلة فى العقود تحدد إلتزامات وحقوق كل من الطرفين وانقسمت هذه العقود إلى نوعين : (عقود بيع أراضى بين الدولة والأفراد – عقود بيع أراضى بين الأفراد).

ويتناول البحث الحديث عن الجزء الأول من عقود بيع أراضى الدولة، وكان يتم هذا النوع على مرحلتين المرحلة الأولى أن يقدم المشترى طلباً لموظفى الحكومة وكان فى الغالب الإستراتيجوس أو من ينوب عنه [١]، أما المرحلة الثانية هى إما أن يوافق الإستراتيجوس على هذا الطلب ويقوم بعمل الإجراءات اللازمة لإتمام عملية البيع أو أنه لا يرد على طلب المشترى.وبالتالى لا يصبح العقد صحيحاً أو ملزماً.

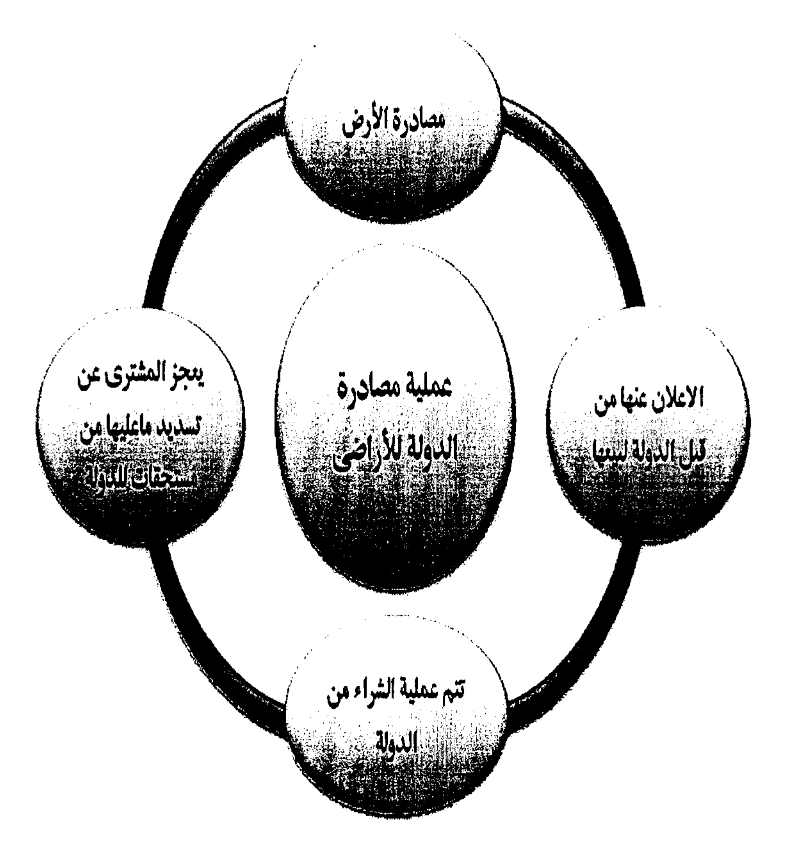
ولدينا وثيقة لطلب شراء أرض جافة وهو موجه لسيبوس روفوس. ومساحة الأرض ١٩ أرورة من الأرض التى كانت قد عادت إلى الدولة وكانت فى ذلك الوقت غير مزروعة، بسعر ١٢ دراخمة للأرورة. وتبدأ الوثيقة باسم الإيديوس لوجوس . [٢]

" لجايوس سيبيوس روفوس، من بوليمون بن تريفون وأرخيليوس بن ....، نحن نرغب فى الشراء فى أوكسيرينخوس الأرض الملكية غير المنتجة حتى عام .... قيصر، من الممتلكات التى تمت مصادرتها فى العام ... لقيصر، وحصريا تكون أرض المعبد لزراعتها فى العام القادم الـــ ٤٤ لقيصر وهما بوليمون فى ثوسبيس وتيبوبس فى المركز الأعلى ١٥ أرورة، الإجمالى ١٥ أرورة، وأرخيليوس فى ... فى مركز ثمويسيفو، ٤ أرورات بإجمالى ٤ أرورات ليكون مجموعهم ١٩ أرورة، مع العلم بأنه إذا تم تخصيصهم لنا، فسوف نلتزم بالدفع فى خزانة الدولة المحلية بالسعر المقدم فى الطلب وهو ١٢ دراخمة فضية، وسينبغى علينا استصلاحهم وزراعتهم مع إعفائهم من الضرائب لمدة ثلاث سنوات اعتباراً من العام القادم الـــ ٤٤ لقيصر ... ".

ومن عرض الوثيقة تتكشف لنا ملامح طلبات الشراء من الدولة والتى تبدأ باسم موظف الإدارة الرومانية، ويلاحظ فى الوثيقة أنه لم يذكر منصبه،

و ربما يكون أيديوس لوجوس. و ليس إستراتيجوس أو كاتب ملكى لأن كل أرض لم يكن لها صاحب كانت توضع تحت تصرفه. وقد ذكر الناشر أنه ربما يكون إسترايجوس أو فى منصب أعلى منه استنادا على الوثيقة P. Lond.2. 276. A.D. 15.، لكنى لا أتفق بشكل كامل مع هذا الرأى لأن هذه الوثيقة لا تحمل نفس الاسم بشكل صحيح، فتذكر سطورها من (١-٢)، Σέπτειοσ Ῥοῦφος Λοκρητίωι بينما وثيقة طلب البيع الاسم المذكور بها فى السطر الأول هو Γαίωι Σεπτίῳ Ῥούφωι . و الأمر الآخر أن الوثيقة P. Oxy. 721 . A.D. 13-14. ذكر بها أن المكان فى أوكسيرينخوس، بينما الوثيقة التى أشار لها الناشر ذكرت أن المكان فى سكنوبايوس نيسيوس فى إقليم أرسينوى، وهذا الأمر لا يجوز لأنه كان لكل إقليم من أقاليم مصر إستراتيجوس ينوب عنه.

ومن عرض الوثيقة نلاحظ أن الأرض التى قامت الدولة ببيعها كانت من الأراضى غير المنتجة ὑπολόγος كما أنها من الأراضى المصادرة، فعلى الرغم من أن سياسة أوغسطس عند فتحه لمصر كانت تشجع الامتلاك الخاص بشكل كبير، [٣] إلا أنه مع تدهور الحياة الاقتصادية فقد كثير من ملاك الأراضى المتوسطة والصغيرة أراضيهم بعد عجزهم عن سداد ما عليهم من ضرائب ومستحقات للدولة، فقامت بمصادرة ملكياتهم وعرضها للبيع وقد ذكر جونسون أنه فى عهد ماركوس أوريليوس كان هناك حاجة كبيرة للدخل بحيث تم تعيين لجنة خاصة لتقييم حالة الأراضى المصادرة والتى مازالت غير مباعة[٤] فإذا كان التقييم يوضح أنها من الأراضى منخفضة الإنتاجية أو الجافة كانت تباع بسعر ثابت، وإذا كانت منتجة كانت تعرض فى مزاد علنى ليتم بيعها بأعلى سعر ، وكان المستفيد من ذلك هم أثرياء الملاك، ومع مرور الوقت نجد أن الملكيات الصغيرة والمتوسطة قلت بشكل كبير. [٥] ونستطيع ان نوضح ذلك فى الرسم التالى :



رسم توضيحى رقم (١)

ومن الرسم التوضيحى يتبين عملية مصادرة الدولة للأراضى بسبب عدم قدرتهم فى سداد ما للدولة من مستحقات ولم يكن هذا عرفاً دائماً حيث كانت هناك بعض الأراضى تستطيع أن تستقر اقتصاديا وتسدد ما عليها من رسوم للدولة، ولكن مع القرن الثانى الميلادى والتضخم الاقتصادى تقلص دور الملكيات الصغيرة والمتوسطة بسبب مصادرة الدولة لها باستمرار وبيعها للأثرياء في مزاد علنى .

فلدينا وثيقة [٦] هي عبارة عن قرض من القمح لكن توضح السطور التى بداخل الوثيقة أن مواطناً رومانياً يدعي جايوس يوليوس أبولليناريوس قام بشراء قطعة أرض من الدولة فى مزاد علنى .

P. Mich. 9. 572. A.D 131. LL 14-16

ὁ Γάιος ἐωνῆσ-
15 θαι ἐ[κ] προκηρύξεως [ἐ]κ τοῦ δημο-
σίου

" الذى قام جايوس بشرائها فى مزاد علنى من الخزانة العامة للدولة."

وتحدثنا وثيقة لامرأة من بطليمايوس تدعى آجينور تطلب من إستراتيجوس إقليم أوكسيرينخوس شراء قطعة من أراضى الدولة المصادرة لإبنتها كلوديا من مزاد علنى ومساحتها ١٦ أرورة بمبلغ ٣٢٠٠ دراخمة وهى من أرض الحيازات العسكرية مستغلة أن ما يحيط بالأرض ممتلكاتها هى وابنتها [٧] .

P.Turner. 24. A.D. 148-54. LL. 9-10

ὧν γείτονες πάντοθεν ἐ-
[μοῦ καὶ τ]ῆς θυγατρός μου Κλαυδίας Ἀρείας

" ويحدها من جميع الأطراف ممتلكاتى أنا وابنتى كلاوديا آريا "

ومن عرض الوثيقة يتضح أن هذه المرأة كان لها الحق فى شراء هذه الأراضى لأنها تمتلك وابنتها أراضى تحيط بالأرض من كل جانب لذا فهى لها حق الشفعة.

ومن الملفت للانتباه فى هذه الوثيقة ارتفاع سعر الأرورة حيث ذكر فى الطلب السعر ٣٢٠٠ دراخمة لمساحة القطعة كلها البالغ مساحتها ست عشرة أرورة أى مايعادل ٢٠٠ دراخمة للأرورة و يرجح ارتفاع السعر هكذا لأن الأرض كانت خصبه ومنتجة بشكل كبير.

وتحدثنا وثيقة بردية بأن جندياً رومانياً اشترى من الدولة الأرض التى كانت صادرتها من والده وأخيه، وكانت تقع فى قرية كيركيوسوخا " وقد تم البيع والشراء فى مزاد علنى. [٨]

وكانت الأراضى التى لا تصلها المياه يقوم المشترى بتقديم تقرير لموظف الدولة سواء إستراتيجوس أو كاتب ملكى أو كاتب القرية ليعفيهم من الضرائب.[٩]

وتوجد بردية توضح أن جندياً مسرحاً من الأسطول يدعى يوليوس فاليريانوس اشترى قطعة أرض غير مزروعة ذكرت فى الوثيقة ὑπολόγου فى السطر السادس فى مديرية أوكسيرينخوس. ونجد السطور (٢-٤) توضح أنه كان من الجنود القدامى فى الأسطول الرومانى.

P. Oxy. 12. 1508. A.D. 2nd century.LL 2-4

2 [δηλῶ] εἶναι Μάρκον [Ἰόλιο]ν Οὐ[αλερια-]
[νὸν τῶ]ν ἀπ[ο]λελυμένων ἀπὸ στόλ[ου διὰ τῶν προ-]
[κειμέ(?)]νων τριηραρχῶν

" أوضح أن ماركوس ليليوس فاليريانوس المحارب من المسرحين من الأسطول عن طريق قباطنة السفن الثلاثية "

ثم نوع الأرض وأنه قام بشرائها من أراضى الدولة :

LL5-8

5 δηλῶ τὸν Μάρκον Ἰούλιον Οὐαλε[ριανὸν ἐω-]
νῆσθαι ἀπὸ ὑπολόγου εἰς κολωνείαν [πε-]
ρὶ κώμην Σενέπτα ἐκ τοῦ Δ[ό]ρκων[ο]ς σὺ[ν]

" أقر أنا ماركوس يوليوس فاليريانوس قام بالشراء من الدولة الأرض غير المنتجة التابعة للمستوطنة القريبة من قرية سينبتا "

ونجد أن هذه البردية بصرف النظر عن أنها لأرض مشتراه من الدولة إلا أنها تلقى الضوء على الأسلوب الذى كان يحصل بمقتضاه قدامى المحاربون على أراضيهم، فبعد فتح أوغسطوس لمصر قام بمنح جنودة فى أول الأمر قطع أراضى اقطاعات عسكرية لتكون ملكاً لهم، لكنه بعد ذلك أعطاهم مكافآت مالية

لتشجيعهم على شراء أراضى من الدولة بأسعار رسمية .[١٠] وكانت هذه الأراضى غير المنتجة ὑπολόγος تتمتع بالإعفاء الضريبى لمدى الحياة بالنسبة لأول جندى مسرح قام باستصلاح الأرض، وهو ماذكره لسكيه وكورنمان .[١١]

ولدينا وثيقة لامرأة قامت بإرسال خطاب رسمى مرفق بطلب إلى أحد الموظفين من قسم بوليمون لشراء أرض ١/٨ ٥ أرورة من الأراضى غير المزروعة ومنحت هذه الأرض إعفاء من الضرائب ٣ سنوات.[١٢]

ولدينا وثيقة يتضح منها أن أحد الأشخاص كان طرفاً مديناً فى عقد قرض لامرأة، ولم يتمكن من أن يرد لها قيمة القرض والفوائد المقررة عليه فكانت النتيجة أن استولت هذه السيدة على أرضه من خلال تقديمها طلباً إلى أحد كبار الموظفين ليكتب إلى إستراتيجوس الإقليم، حتى يتم عرض ممتلكات المدين للبيع فى المزاد، وكما يتضح من السطور (٤-٢٠) أن هذه الممتلكات كانت عبارة عن قطع من الأراضى الزراعية وكانت ضماناً للوفاء بقيمة القرض وماعليه من فوائد .وتقدم هذه السيدة طلبها لشراء هذه الأراضى بقيمة ٢ تالنت و ١٥٠٠ دراخمة .[١٣]

وتطلب أنه إذا لم يجد الإستراتيجوس أن هناك أعلى من عطائها، فإنها تحصل على هذه الأراضى على أساس السعر الذى تعهدت بتقديمه وعلى أن يخصم من قيمة هذا العطاء لصالحها مقدار الدين الأصلى والفوائد المستحقة عليه، أما إذا وجد عطاء أعلى من عطائها المحدد بتالنتين، فإنه يجب فى هذه الحالة أن يرد إليها قيمة المبلغ المستحق لها وهو الدين الأصلى بالاضافة إلى ماعليه من فوائد.[١٤]

وفي عقد يعود للقرن الثانى الميلادى نجد امرأة تتقدم بطلب إلى الإستراتيجوس لتشترى من الخزانة العامة الأراضى التى تم تحديدها للبيع، وكانت تخص ماركوس سلفيوس أويتسوس وذكر فى الوثيقة ان هذه

الأراضى تم مصادرتها لصالح الخزانة.[١٥]

وتقع هذه الأرض فى قرية " بلا " Πέλα بالقرب من أوكسيرينخوس ومساحتها ١٩ أرورة من الأراضى التى تزرع حبوباً والضرائب عنها تقدر على أساس أردب واحد من الحبوب عن كل أرورة وكذلك الجسر الخاص الذى يوجد عليه ٤١ شجرة سنط، ثم تذكر حدود هذه الأرض وقيمة العطاء من خلال السطور من (١٣-١٥) الذى تقدمه لشرائها وهو ثلاث تالنتات وألف دراخمة.

ومن المحتمل أنها كانت ترغب فى شراء قطعة أرض أخرى فتذكر :

LL. 15-18

καὶ τῶν ἑπομένων, ἐκ δὲ τοῦ Κρό-
του [κλήρου] σειτικὰς μοναρτάβου ἀρούρας
τρεῖ[ς], ὧν γείτονες νότου χῶμα, βορρᾶ βασι-
λικ[ή -ca.?-

" وكذلك ثلاث أرورات أخرى من اقطاع كروتوس من الأراضى التى تزرع حبوباً، والضريبة على أساس أردب واحد عن الأرورة "

ثم تذكر حدودها وعند ذلك يحدث تلف بالوثيقة فلا نعرف المبلغ الذى عرضته لشراء القطعة الثانية . والطلب قدمته هذه السيدة إلى الإستراتيجوس الذى يمثل رأس الإدارة المالية فى الإقليم، ويذكر الناشر أن سبب المصادرة ربما تورط مالك هذه الأرض فى ثورة أفيديوس كاسيوس، وإن كان هذا صحيحاً فمن المحتمل أن يكون تاريخ الوثيقة ١٧٨م.[١٦]

تمثل هاتين الوثيقتين نوعاً ثالثاً لبيع أراضى الدولة، فالطرف المشترى هو الذى يعرض على الإستراتيجوس رغبته فى الشراء، ويلاحظ من ارتفاع السعر أنه ربما كانت هاتان السيدتان أطراف دائنه لأصحاب الأرض، وأصحاب الأرض عجزوا عن سداد الدين، والقرض الذى أخذوه منهم مقابل رهن

الأرض، وكانت النتيجة أن صادرت الدولة الأرض وعرضتها فى مزاد علنى، وكان من حق المقرضين أن يتقدموا بطلبات للإستراتيجوس لشراء الأرض موضع البيع.

ونستطيع أن نستنتج من الوثيقتين أن الحكومة الرومانية كانت تتيح البيع للجميع رجالاً أو نساءاً، وكان الهدف الرئيسى من ذلك استثمار أموال شتي طبقات المجتمع فى الزراعة من أجل تنشيط الحالة الاقتصادية للبلاد. وكما ظهر فى مقننة الايديوس لوجوس أنه كانت توجد أحكام توضح كثرة الحالات التى كان يتم فيها بيع الأراضى والتى قد تصل إلى مصادرة كل الأملاك أو نصفها أو ثلثها أو ربعها، وكان يتم تطبيقها بكل حزم وجدية لصالح خزانة الدولة، مما أدى فى النهاية إلى زيادة الملكية الخاصة زيادة كبيرة. [١٧]

وهذا النوع من الشراء من مزاد علنى لم يكن يسير تماماً فكان يتعرض أحياناً لعوائق ومشاكل من الملاك الجدد للأراضى، التى تم بيعها فى المزاد العلنى فلدينا بردية يشير فيها أحد مواطنى مدينة انتينوبوليس – جايوس يوليوس إلى أنه اشترى مساحة أرورة واحدة من الأرض التى صادرتها الدولة، وكانت عبارة عن جزء من بستان زيتون ولكن كاتب المشرف على الأملاك المصادرة المدعو إيزودوروس ينكر عليه تلك الأرض،ويبدو أن هذا الكاتب لم يكن موافقاً على نقل ملكية هذه الأراضى إلى هذا المواطن الرومانى ولم يسقطها من قائمة الممتلكات المصادرة من شخص يدعى كاستور لأن هذ المواطن الرومانى وهو المشترى لم يكن قد سدد ثمن هذه الأرض كاملاً وتفاصيل الوثيقة تبين أنه كان يحدث مشكلات فى عمليات الشراء فى مزاد علنى [١٨] .

ولدينا وثيقة [١٩] أخرى تعود للقرن الثالث الميلادى ومن الملفت فى هذه الوثيقة أن المشترى يقر بأنه سوف يقوم بدفع المبلغ للخزانة العامة بالإقليم، مع

الرسوم الإضافية، وذلك لضمان إستمرار بقاء ملكية الأرض له، ولورثته من بعده مع خلوها من المخاطر أو أى أعباء أو مساءلة.

P.Oxy.14.1633. A.D. 275. LL. 23-28

ὀκτακοσί[ας,] ἅσπ[ε]ρ κυρωθε[ὶς διαγρά-]
ψω ἐπὶ τὴν τ[οῦ] νομοῦ δη[μοσίαν]
τράπεζαν σὺν τοῖς ἑπομ[ένοις]
πρ[ὸς] ̣τ[ὸ] μένει[ν ἐμο]ὶ καὶ τ[οῖς παρ' ἐ-]
μο[ῦ] μεταλημψομένοις β[εβαίας ἀπὸ]
παντὸς καὶ κ[αθ]α̣ρὰς ἀπὸ πά[σης ἐπιβο-]
λ̣ῆς καὶ ζητή[σεω]ς·

" وأنا سوف أقوم بالدفع للتصديق عليها للخزانة العامة للمقاطعة، مع الرسوم الإضافية كى تظل الأرض ملكاً لى ومؤمنة ضد جميع المخاطر، وكى تكون خالية من أى أعباء أو مساءلات قانونية ".

وهذا الطلب مقدم من جانب أوريليوس سورينوس" لشراء قطعة الأرض غير المباعة من الدولة والتى كانت فى الأصل أرضاً خاصة لكنها صودرت، ربما بسبب أنها كانت متروكة بدون زراعة، وفى الطلب يذكر المشترى أنه سيقوم بشراء عدد ٦ أرورات من الأرض الخاصة غير المزروعة، والمنتمية لممتلكات الدولة غير المباعة، والتى كانت فى السابق ملكاً لـــ " ساربيون بن زويلوس " فى المنطقة الواقعة فى قرية " بايمس "و ٥ أرورات أخرى لكن غير واضح بالوثيقة من كان يمتلكها . وذلك بإجمالى ١١ أرورة، وفقاً لأوامر وتعليمات الديوكيتيز يوليوس مونيموس، وسوف يقوم سورينيوس بدفع ٦٦٠ دراخمة ثمنا للأرورات مضافا إليها ١٤٠ دراخمة زيادة وبذلك يكون سعر الشراء الإجمالى بالزيادة ٨٠٠ دراخمة .

وقد استفادت الدولة من وراء هذه السياسة فائدة عظيمة تتمثل فى استصلاح مساحات كبيرة من الأراضى البور [٢٠] واستغلالها، و تحديد هذا

النوع من الأراضى الجافة والغير منتجة لبيعها وزراعتها وتكمن هذه الاستفادة كالتالى :

١- أنها بذلك باعت الأرض المنخفضة الانتاج وبالتالى سيتم استصلاحها واستخدامها.

٢- سوف تأخذ من هذه الأراضى ضرائب وهى ضريبة الأردب (واحد أردب/أرورة).

٣- أنه يمكن أن تزرع هذه الأراضى قمحاً مما سيدر ناتجاً تستفيد منه الدولة وأيضاً روما بحكم اعتمادها على قمح مصر.

لكن السؤال الذى يطرح نفسه ماذا كان يتم بعد تقديم طلب شراء أرض من الدولة ؟ ويجيب على هذا السؤال وثيقة بردية تعود إلى القرن الأول الميلادى تبين كيف يقوم رجال الدولة بمهامهم منذ تلقى طلب الشراء من المشترى. ويمكن تقسيم وجه هذه الوثيقة إلى :

أ- السطور من (١-٢٤) وتتضمن رسالة من ديوناس كاتب قرية تابتريبس لبعض الموظفين التابعين ومن المحتمل γεωμετραί المساحين، كما تضم عدداً من الأوامر والطلبات من أعلى الموظفين.

مع طلب إجراء القياسات، ومعرفة المناطق المجاورة لقطعتين من الأرض التى هى على وشك أن تباع من قبل الحكومة إلى الديوسقوروس المعين المذكور فى (السطر ١٧)

P. Amh. 2. 68. A.D. 81-96.

[Τιβερίῳ Κλαυδίῳ στρα(τηγῷ) Ἑρμοπολίτου τοῦ ὑπὲρ Μέμφιν π]αρὰ Διοσκόρο[υ τοῦ . . . . .]. . . τῶν ἀπὸ Ἑρ[μοῦ πόλ(εως) τοῦ αὐτο]ῦ νομοῦ [Ἑρμοπολ(ίτου)]

" من تيبريوس كلاوديوس إستراتيجوس هيرموبوليس والمفتش ميمفيوس إلى ديوسقوروس [........]... فى مقاطعة هيرموبوليس "

ب- القسم الثانى من الوثيقة هو إجابة المساحين التى تعطى المعلومات المطلوبة التى حوتها السطور من (٢٥-٣٥).

أما ظهر الوثيقة Verso كان عبارة عن ثلاثة أعمدة طمس منها العمود الأول والثالث وبقي العمود الثانى بشكل شبه مكتمل وهو تقرير رسمى يصف جهود الوالى ميتيوس روفوس [٢١] فى عهد دوميتيان للحصول على معلومات دقيقة عن الأرض التى هى موضع البيع من قبل الدولة، ويفترض الناشر أن يكون كتب الوجه والظهر على حد سواء خلال فترة ولايته.

والخطوة الثانية كان فى ٢٦ من شهر باؤنة، عندما أرسل ألكسندر رسالة للاستراتيجوس وطلب ديوسقوروس الخاص بالشراء إلى بوليمون، الكاتب الملكى، ملحقاً توقيعه الرسمى فى نهايته.

وجاءت الخطوة الثالثة عندما كتب بوليمون بدوره فى الرابع عشر من ابيب إلى هيرمياس كاتب المركز فى المنطقة التى تقع فيها الأرض موضع الطلب، وتضم المراسلات طلب تفقد الأرض ومعرفة ما إذا كانت تم وصفها بشكل صحيح على أنها جافه وأنها بالفعل تحتاج إلى إعفاء من الضرائب، وإذا كان وصفها بالفعل هكذا فإلى متى ستظل فى تلك الحالة، وطلب أيضاً التأكد من أن المشترى لن يكون له وكلاء ممن محظور عليهم الشراء من الحكومة .

واختتم بتعيلماته لقياس المناطق المعنية فى الطلب وحالة الأراضى المجاورة لها.

وأكد على أن كاتب المركز سيكون مسئولاً فى حالة عدم توفير المعلومات اللازمة وتوقيعه الرسمى.

ويتبين من السطور (١٧-٢٤) أن الخطاب كان عبارة عن اقتراح من قبل ديوسقوروس موجه إلى تيبريوس كلاوديوس إستراتيجوس مقاطعة هيرموبوليس فى العام السادس للامبراطور نيرون أن يشترى من الحكومة قطعتين من الأرض، واحدة مساحتها ٦ أرورات، والقطعة الثانية أربعة أرورات، والأرض انتجت قمح مرة واحده من قبل، لكنها الآن جافه، وديوسقوروس يرغب بزراعتها مرة أخرى بالقمح.

والشروط التى كانت مقترحة من قبل الحكومة أن ديوسقوروس ينبغى عليه سداد دفعة واحدة لبنك الحكومة ٢٠ دراخمة لكل أرورة، ويتم تحديد السعر من قبل الوالى،و خلال الثلاث سنوات الأولى التى تاريخها سيكون العام السابع القادم لنيرون، ينبغى خلال فترة استصلاح الأراضى أن تعفى من الضرائب المفروضة عليها، ولكن بعد ذلك يجب أن تدفع ضريبة قدرها أردباً واحداً من القمح عن كل أرورة مزروعة، ثم يذكر أن ملكية الأرض تكون مطلقة ومضمونة لديوسقوروس وورثته إلى الأبد.

ويتضح من الوثيقة أنها من المراسلات الرسمية الخاصة بشراء أرض من الدولة التى كانت من الأراضى الجافة وفرض بعض الضرائب على هذا النوع من الأراضى، والوثيقة توضح لنا طبيعة التعامل فى هذا الوقت بين الدولة والأفراد فى مجال بيع أراضى الدولة.

وبالنظر إلى أسعار الأراضى فى عقود البيع عن طريق الدولة نجد أن عملية البيع كانت مقتصرة على الأراضى غير المنتجة Ủπόλογος γῆ أو المصادرة، وربما السبب فى ذلك عدم تفريط الدولة فى أراضيها الغنية، وتأكيداً على سياسية الدولة الرومانية فى استغلال جميع الأراضى المصرية لأن الأرض غير المستصلحة كان لا يجبى عنها ضرائب ولا تدر دخلاً للإدارة الرومانية .ويلاحظ من وثائق العقود التى تم عرضها وجود أراضى تعرض فى

مزادات وهذه الأراضى كانت منتجة ولكنها مصادرة بسبب عجز أصحابها عن سداد ما عليها من التزامات سواء قروض أو ضرائب وكان يتم عرضها فى مزاد للحصول على أعلى سعر . أما النوع الآخر من الأراضى فهى كانت غير منتجة وكانت تباع بأسعار منخفضة وفى الغالب بسعر ثابت، فإذا كانت من الأراضى الجافه، كان يتم تخفيض الضرائب من الأرض حتى يتم استصلاحها. وكان يتم تقديم الطلب للإستراتيجوس ثم ينتقل إلى موظفى الإدارة الرومانية تدريجيا إلى ان يصل إلى كاتب القرية الذى كان يوفر جميع البيانات والمعلومات عن الأرض وحالتها من حيث طبيعتها، مساحتها وحدودها ويذكر ما إذا كانت الأرض مطابقة لمواصفات البيع أم لا، [٢٢] ثم بعد ذلك يكلف كاتب القرية مرؤوسيه المساحين لرفع مساحتها، وتقديم تقريرهم إليه خلال الفحص والمعاينة العملية. [٢٣] ثم بعد ذلك يرفع كاتب القرية تقريره مباشرة إلى الكاتب الملكى على أن يكون وافياً وشاملاً كل المعلومات المطلوبة. [٢٤]

أما عملية تسجيل العقد فتعسكها لنا وثيقة مكتملة لطلب شراء أرض من الدولة [٢٥] تعود للقرن الثالث الميلادى، والتى تبين الاجراءات التى كانت تتم لتسجيل العقد وحصول المشترى على نسخة من عقده وهى تعود للقرن الثالث الميلادى وتبدأ كما ذكر سابقا بأسماء رجال الدولة:

P. Lond. 3. 1157 v. = Sel. Pap. 2. 355.A.D. 246. LL 1-4

Αὐρηλίῳ Μαικίῳ Ν[ε]μεσ[ι]ανῷ ἀ[πα]ιτητῇ διαδεχομένῳ
τὴν στρ(ατηγίαν) τοῦ Ἑρμοπολ(ίτου) νομοῦ
καὶ Αὐρηλίοις Αρα. . ω βουλ(ευτῇ) ἐξ[ηγ]ητεύσαντι ἐνάρχῳ

πρυτάνει Ἑρμουπόλεως τῆς μεγάλ(ης) ἀρχαίας
καὶ λαμπρᾶς καὶ σεμνοτάτης καὶ Ἑ[ρμ]είνῳ βουλευτῇ
ἀγορανομήσαντι τῆς (αὐτῆς) πόλεως δεκαπρώτ(οις)
τοπαρχίας Πατεμίτ(ου) ἄνω

" إلى أوريليوس ماركوس بيميسيانوس محصل الضريبة، ومدير مكتب الإستراتيجوس فى مقاطعة هيرموبوليس، وأوريليوس ....، وعضو مجلس المدينة (البولى)، وعضو هيئة المكتب فى مجلس البولى لمدينة هيرموبوليس العظيمة العتيقة ، الشهيرة البارزة، وأوريليوس هيرمينوس السيناتور، ومشرف السوق السابق فى المدينة السالفة الذكر، ورئيس البلدية [٢٦] فى باتيمينوس العليا "

ثم يليها إسم مقدم طلب الشراء، ويكرر بعبارة إلى والى مصر.

LL 4 -5

π[αρὰ] Αὐρηλίου Ἀπολλοδώρου υἱοῦ Σαβείνου
βενεφικιαρίου
ἐπάρχου Αἰγύπτου.

" من أوريليوس أبولودوروس بن سابينوس بينيفيكاريوس لوالى مصر."

ثم يليه فى السطور من ٥-١٠ أن المشترى تم التصديق على الطلب الذى وصله بخصوص الرغبه فى الشراء من أرض الدولة موضع العرض .

" لقد قدمت نسخة من مذكرة إلى كلاوديوس مارسيليوس مسئول الحسابات الشهير، وماركيوس سالوتاريس البروكرايتور الامبراطورى وتوقيعهما على طلبى بالشراء طبقاً لما أعلنوه عن ال١٢ أرورة من الأراضى الخاصة بالدولة فئة الأراضى الجديدة منخفضة الإيجارات وخالية من الضرائب طبقا لما هو محدد فى أجندة الإجراءات الخاصة للكاتب الملكى بالباسترين والمعلن للبيع بسعر ٢٠ دراخمة للأرورة ."

ثم يذكر الموظف الذى يوجة له طلب الشراء مع لقبه الوظيفى :

LL. 11-13

Κλαυδίῳ Μαρκέλλ[ῳ τῷ διασημοτ]άτῳ καθολικῷ καὶ

Μ̣αρκίῳ Σαλουταρίῳ τῷ
κρ[ατίστῳ ἐπιτρόπῳ] Σεβα[στῶν] παρὰ Αὐρηλίου
Ἀπολλοδώρου υἱου Σαβείνου βενε-
φικι[αρ]ίου ἐπ[άρ]χ[ου] Αἰγύπ[του].

" إلى مشرف الحسابات الشهير كلاوديوس مارسيليوس، وسعادة النائب الامبراطورى ماركوس سلاتيريوس من أوريليوس أبولودوروس بن سابينوس بينيكياريوس والى مصر المعظم، طبقاً لإعلانكم، "

ثم يليه نص الطلب من رغبة المشترى فى شراء الأرض مع ذكر نوعها وحالتها.

LL. 11- 15

βο̣ύλομαι ὠνήσασθαι κατὰ τὰ κελευσθέντα ἐπὶ ἁπλῇ
τιμῇ εἰκοσαδρ[ά]χμ[ω, πε]ρὶ [κω]μογραμματείαν Ἀλαβαστρίνης τοῦ Ἑρμοπολείτου
νομοῦ ἐκ τοῦ Ἀδήμ̣α̣ντος κ̣α̣ὶ Ἀπολλωνίου κλήρων (ἄρουρας) ιβ

" أرغب فى شراء ١٢ أرورة. طبقًا للأوامر الصادرة بسعر إجمالى مقداره ٢٠ دراخمة (عن الأرورة) فى زمام قرية ألباسترينى التابعة لمقاطعة هيرموبوليس من إقطاعى أديماس وأبولُونيوس ".

ثم يقوم بذكر حدود الأرض .

LL 15-19 :

γείτονες νότου ψιλὴ
γῆ ἀπὸ [ἀ]μπέλου πρ[ό]τερ[ο]ν̣ [ἐλ]α̣ιὼν καὶ ἐπί τι μέρος πρὸς τῷ ἀπηλιώτῃ παρά-
δεισος, βορρᾶ πρὸς μὲν [τ]ῷ λιβὶ παράδεισος καὶ ἰ̣δ̣ιωτικὰ ἔδαφη, πρὸς δὲ τῷ
ἀπηλιώτῃ ἰδιωτικα ἔδαφη, ἀπηλιώτου παλαιὸς λ̣ά̣κ̣κος καὶ χέρσος Ἰσιδωρα
Χαιρήμονος, λιβὸς π̣α̣λ̣α̣ι[ὰ ῥύ]μη ἢ οἱ

" وحدودها أرض منزرعة بالكروم، وكانت فى السابق بساتين زيتون،

وعلي الجانب الشرقي بستان، وعلى الجانب الشمال الغربي بستان وأراضٍ خاصة، وعلى الجانب الشرقى أراضٍ خاصة، صهريج قديم وقطعة أرض جافة تخص إيزودورا بنت خيرمون . وفي الغرب طريق قديم."

ثم يلي ذلك تأكيد المشترى بأنه اذا تم الموافقة على طلبه لشراء الأرض سيقوم على الفور بدفع قيمة الارض المتفق عليها فى الطلب لخزانة الدولة

LL 19 -21 :

ἐὰν ὦσι γείτονες πάντη πάντοθεν ἅσ-
περ κυρωθεὶς διαγράψω εἰς τ]ὴν ἐν Ἑρμούπολει δημοσίαν τράπεζαν, ἐὰν
δὲ μὴ κυρωθῶ, οὐ κατασχεθήσομαι τῇδε τῇ αἰτήσει. διευτύχει.

" وإذا تم الموافقة على طلبى، فسوف أدفع الأموال المطلوبة لخزانة الدولة فى هيرموبوليس، لكن إن لم يتم التصديق عليه لن أكون مقيداً بالطلب ولن أكون ملزماً بهذا العقد . وداعاً."

يلي ذلك التاريخ مع توقيع مقدم الطلب

LL 23 -24

(ἔτους) γ Παῦνι ιγ Αὐρήλιος Ἀπολλόδωρος
Σαβείνου

" العام الثالث، ١٣ باونى، قدم من خلالى أنا أوريليوس أبوللودوروس، بن سابينوس."

ثم يليه التصديق من الإستراتيجوس ورئيس البلدية بالموافقة وإعلان الطلب للجمهور فى هيرموبولس وتسليم الارض

LL 24 -31

ἐπιδέδωκα καὶ ὑπεγράφη \μοι/ οὕτως·
οἱ τῆς τοπαρχίας δεκάπρωτοι σὺν τῷ στρ(ατηγῷ)

τὴν παράδοσίν σοι ποιήσωνται. προτεθ(ήτω).
κολλήμ(ατος) λγ τόμ(ου) α. προτεθ(ὲν) ἐν Ἑρμουπόλ(ει)
ὅθεν ἀξιῶ τὴν παράδοσίν μοι γένεσθαι
ὑφ' ὑμων καθὼς ἐκελεύθητε τῆς τι-
μῆς ὑπ' ἐμοῦ διαγραφομένης εἰς τὴ[ν]
ἐπὶ τόπων δημοσίαν τράπεζαν. διευτυχεῖτε.

" وجاء التصديق بالموافقة على طلبى وكانت كالآتى : اتفق قائد العشرة فى المركز والإستراتيجوس على تسليم الأرض لك مع السماح بعرض الأمر على الملأ.

صفحة ٣٣ المجلد الأول، فليسمح بإعلان الطلب فى هيرموبوليس. لهذا السبب وبناءً عليه أنا أطلب منكم أن تسلمونى الأرض كما حكم، وسيتم دفع الثمن المتفق عليه معى إلى خزانة الدولة المحلية. وداعاً."

ثم يلى ذلك ذكر التاريخ مفصلا :

LL 32 -35

(ἔτους) γ Αὐτοκράτορος Καίσαρος Μάρκου Ἰουλίου
Φιλίππου Εὐσεβοῦς Εὐτυχοῦς καὶ Μάρκου
Ἰουλίου Φιλίππου γενναιοτάτου καὶ ἐπιφανεστάτου
Καίσαρος Σεβαστῶν.

ثم يليه توقيع مقدم الطلب

LL 35- 36

Αὐρήλιος Ἀπολλόδωρος
Σαβείνου ἐπιδέδωκα.

" قدمت من خلالى أنا أوريليوس أبولودوروس بن سابينوس."

وهذه الوثيقة على قدر كبير من الأهمية فالجزء الأول منها يعرض بنود طلب بين الدولة والأفراد، والجزء الثانى فى أهميتها يكمن فى أنها

تعرض الإجراءات التى تتم بعد الموافقة تقديم الطلب، كما أنها تحمل دقة تفصيليه فهى توضح بشكل أكثر تفصيلاً المسئولون من موظفى الدولة عن بيع الأراضى، ومن الملفت فى السطور من (٥-١٠) الإجراء الذى كان يتم عند تقديم الطلب، وهى تبين عملية تسجيل العقد وحصول المشترى على نسخة من عقدة، ويرجح أن هذه الوثيقة مأخوذة من مكتب السجلات لأنه ذكر بها مكان حفظها ورقم اللفافة المسجلة فى النهاية .والعبارة التى تنم عن رغبة الشارى فى الشراء ابتداءً من السطر الحادى عشر والتى ذكرتها أغلب العقود بعد اسم المشترى مباشرة، و سجل المشترى عقده فى مكتب التسجيل بعد البيع لأنه يذكر أنه تم التصديق عليها، ثم يليها عرض لصيغة العقد بالكامل، وفى النهاية يعلن إتمام البيع له بعد إتمام التسجيل، مما يؤكد أن البيع لا يصبح سارياً دون إتمام عملية التسجيل .ويتضح من الوثيقة كثرة موظفى الدولة ومناصبهم أن المشترى كان من الرومان،وعلى الرغم من أن جونسون ذكر المشترى إلا أنه لم يتطرق إلى منصبه[٢٧] وقد ذكره نفتالى بشكل أدق على أنه كان من الجنود الرومان.[٢٨] ونلاحظ هنا أن كلمة " أرغب فى الشراء "ὠνέομαι βόλλομαι " [٢٩] هى التى تميز الطلب عن العقد،كما أن ذكر كلمة"καθολικος " وهو مشرف الحسابات،الذى كان يعمل تحت إمرة البروكرايتور فى هذه الوثيقة تشير إلى أنه كان يوجد فى القرن الثالث الميلادى ومن دراسة البرديات يعد هذا أول ظهور له فى هذه البرديه وقد ظهر بشكل واضح فى الفترة البيزنطية والتى ظهر فيها على أنه رئيس الخزانة فى الأسكندرية. [٣٠]

الهـــوامش

1. P. Oxy. 62. 4337. A.D 2nd century., P. Lond. 3. 1157v. A.D. 246.
2. P. Oxy. 4. 721. A.D. 13-14.

٣. مصطفى العبادى، الامبراطورية الرومانية – النظام الإمبراطورى ومصر الرومانية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٩، ص ٢٠٢.

4. A.C. Johnson, Roman Egypt. op.cit. p. 173, 174., P. Oxy. 14. 1633. A.D. 275.

٥. فادية أبو بكر ابراهيم، الديون بضمان الأرض (دراسة فى وثائق العصرين البطلمى والرومانى)، مجلة الدراسات البردية، المجلد الخامس، مركز الدراسات البردية، جامعة عين شمس، القاهرة، ١٩٨٨. ص. ١١٢.

6. P. Mich. 9. 572. A.D. 131.

٧. وتوجد وثيقة شذرية لبيع أرض حيازات عسكرية والوثيقة تعود لبداية القرن الثانى الميلادى (عصر تريانوس).

P. Oxy. 12. 1434. A.D. 107/8.BGU.11. 2053. A.D.first second century .

ووثيقة أخرى لبيع ١٥ أرورة من أراضى الحيازات العسكرية والتى تعود إلى القرن الثانى الميلادى .

BGU. 11. 2052. A.D. Second century

8. BGU.2.462 A.D.155/6. =W.ch.376., P. Amh. 2. 97. A.D. 181/2.LL. 17-20.
9. P. Oslo.2.26 (a), 163-164 A.D. ; P. BGU.13.2233, 190 A.D.; P. Hamb. 2. A.D. 202.

١٠. مصطفى العبادى، الامبراطورية الرومانية – النظام الامبراطورى ومصر الرومانية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٩، ص ٢٠٢.

11. P.Oxy.12. 1508. A.D.2nd century; Jean Lesquier, L'armée romaine d'Égypte d'Auguste à Dioclétien, Paris, 1918. P. 332.
12. P. Tebt.2.443. 2,3 century A.D., W. Chr. 467. A.D 200., P. Hamb. 2. A.D. 202., P .Oxy.20.2278. 225-275 A.D
13. P .Oxy. 62. 2411. A.D. 173 . L. 21-24
14. P. Oxy. 62. 2411. A.D 173.LL . 31-38.
15. P . Oxy. 62. 4337. A.D. 178.LL. 5-8.

١٦. سامى عبد الفتاح محمد، ملكية المرأة المصرية للأموال واستثمارها فى الأنشطة الزراعية خلال العصر الرومانى، مجلة مركز الدراسات البردية والنقوش، العدد السابع عشر، مركز الدراسات البردية والنقوش، جامعة عين شمس، القاهرة، ٢٠٠٠، ص. ١٩٩.

P. Oxy.62.4337.second century 178?

17. BGU. 5. Der Gnomon des Idios Logos, Erster,

أو أنظر مقننة الأيديولوجوس البنود ٩٨، ٩٩، ١٠٠، ١٠١من كتاب زكى على، مقننة الاديولوجوس، القاهرة، ١٩٩٨، ص ٢٦٣.

18. P. Mich. Inv. 2848. A.D. 222-235.
19. P. Oxy. 14. 1633. A.D 275.
20. W. Chr. 467. A.D 200.

٢١. كان الوالى ميتيوس روفوس تم تعيينه فى الفترة من ٨٩-٩٠م وتم ذكرة فى بردية أخرى هى P. Oxy. 1. 72. A.D.90. وهى لتسجيل ممتلكات أرض مشتراه.

22. P. Amh. 2. 68. A.D. 81-96.
23. P. Oxy. 20. 2278. A.D. 225-275.
24. P. Amh. 2. 68. A.D. Late first century.
25. P. Lond. 3. 1157v =Sel. Pap. 2. 355. A.D. 246.= BGU, 2, 419., P. Oxy. 12. 1459. A.D179.

٢٦. ذكر رئيس البلدية P. Oxy. 12. 1459. A.D179, P. Ryl. 153. A.D.2nd

century, OG1678. 5. 2nd Century, OG 1678. 5. A.D. 2nd century, P. Oxy. 25. 2106. A.D.4th Century.

27. Jhonson, Roman Egypt, 1936, p170-171. Num .99.

28. L. Naphtali. Solders Permitted to own Provincial Land, BASP. Volume 19. Issue 3-4, 1982.PP 143-48.

29. P. Oxy. 4. 721. A.D. 13/4 L.3.; Sel.Pap.2. 355. A.D. 246. L. 13.

30. Sel. Pap. 2. 227.A.D. Early fourth century. L.25. = P. Oxy. 17. 2106.

حاملُ المياه فى مصر خلال العصرين البطلمى والرومانى

يسرى عبد الحكيم خليفة دياب
كلية الآداب - جامعة أسيوط

حاجة الإنسان إلى الماء دفعته منذ القدم إلى الاهتمام بمصادره والحفاظ عليه، وتشييد المنشآت المائية من سدود وترع وخزانات. ولهذا إرتبطت بالماء مجموعة من المهن القديمة، ومنها مهنة حامل المياه التي كانت مطلوبة وسائدة في المجتمع المصري منذ فترة الحكم الفرعونى. فلقد اعتاد الفنان المصرى القديم أن يرسم على جدران بعض المقابر صوراً لرجل يحمل فوق كتفيه عصا غليظة، ويتدلى من طرفيها جرتين من المياه[١].

وترتكز الدراسة الحالية على إلقاء الضوء على مهنة حامل المياه فى مصر كما تظهر فى مجموعة من البرديات والشقافات من الفترتين البطلمية والرومانية. فبعد قراءة تلك الأدلة الوثائقية وتحليلها، تبين أنه رغم مشكلة اختصار إشاراتها إلى بعض جوانب موضوع الدراسة، إلا أنها مفيده فى الكشف عن مهنة حامل المياه، وتوضيح موارد الماء، وبيان الوسائل المستخدمة فى حمله ونقله وتخزينه، هذا بالإضافة إلى تحديد أكثر المناطق احتياجاً إلى خدمات حاملى المياه.

معلوماتنا عن نشاط حامل المياه خلال الفترة البطلمية تأتى -حتى الآن- من سبع برديات ترجع إلى القرن الثالث قبل الميلاد[٢]. وأولها وثيقة بردية من قرية فيلادلفيا Φιλαδέλφεια بإقليم أرسينوى Ἀρσινόη، وهى عبارة عن خطاب يرجع إلى عام ٢٥٧ق.م. بعث به المدعو مارون Μάρων (أحد الموظفين بأراضى الهبات التابعة لوزير المالية أبوللونيوس Ἀπολλώνιος فى قرية فيلادلفيا) إلى زينون Ζήνων (وكيل أعمال وزير المالية)، ونراه يقول:

Μάρων Ζήνωνι χαίρειν. καλῶ[ς ...]
φαίνεται, εἰς τὸ ὀψώνιον ἔτι (δραχμὰς) β
(τριώβολον) ὥστε π[....]
μοι εἰς τά τε ἄλετρα καὶ ὕδωρ ἀγοράζειν [...]
4 σοὶ δσ ὡς φαίνεται οὕτω ποίει. [٣]

"مارون إلى زينون تحية. ألتمسك أن تخصص لراتبى .... - إذا ترى الأمر مناسباً - .... اثنين ونصف (دراخمة) إضافية (ثلاثة أوبول) ...... لتوفير تكلفة الطحن وشراء الماء. .... ومع ذلك فعليك أن تفعل ما تجده صواباً."

وفى وثيقة أخرى من قرية فيلادلفيا ترجع إلى القرن الثالث قبل الميلاد، نجد صبياً يدعى كليون Κλέων يكتب مذكرة إلى زينون (وكيل أعمال أبوللونيوس)، ويقول فيها:

ὑπόμνημα Ζήνωνι τῶι
πατρὶ παρὰ Κλέωνος. καλῶς
ποήσεις ἀποστείλας ἡμεῖν
τὸ ὀψώνιον ὃ γίνεται ἐμοί τε
5 καὶ τῆι μητρί, τὸ πᾶν σὺν ἐλαίωι
(δραχμαὶ) ιζ
καὶ οἰνάριον ἡμεῖν γίνεται χόες

ς κο(τύλαι) γ
καὶ εἰς τὰ Ἑρμαῖα καὶ τὰ Μουσεῖ-
10 α· πάντες γὰρ ἤδη εἰσενηνόχασι.
καὶ περὶ τοῦ ὕδατος φρόντισον·
ἀγοράζομεν γὰρ πολλασταῖοι. (٤)

"مذكرة من كليون إلى أبيه زينون(٥). من فضلك أرسل إلينا الراتب المخصص لى ولوالدتى. والإجمالى مع الزيت ١٧ دراخمة. وكذلك النبيذ المخصص لنا، ويشمل ٦ خؤوس(حد أقصى) ٣ كوتيولى، علاوة على التبرع من أجل احتفال هيرميس والموسيات، حيث تقدم كل شخص بتبرعه. وأرجو أن تهتم بالتفكير بخصوص المياه، حيث أننا اشترينا المياه طوال الأيام السابقة."

إن ما يعنينا من هاتين الوثيقتين هو التأكيد على انشغال كل من الموظف مارون والصبى كليون بتكاليف شراء الماء. فرغم أنهما لم يوضحا نوع الماء الذى ينشغلا بتكاليف شرائه، لكن الواضح من سياق حديثهما مع زينون أنهما يقصدان تكاليف شراء مياه الشرب أو الماء الصالح للاستخدام المنزلى عامة.

وهنا نتساءل عن المختص ببيع الماء العذب أو المياه الصالحة للاستخدام المنزلى؟ وفى الإجابة عن هذا السؤال، يمكن أن نعتمد على وثيقة مهشمة من مدينة كروكوديلون Κροκοδίλων Πόλις بإقليم أرسينوى، ترجع إلى ٢٧/٢٦ فبراير من عام ٢٢١ق.م، وهى عبارة عن مظلمة مقدمه أمام الملك من شخص يدعى أوتوخوس Εὔτυχος، ويقول فيها:

[βασιλεῖ Πτολεμαίωι χαίρειν] Εὔτυχος,
ὑδροφόρος. ἀδικοῦμαι
[ὑπὸ .... καὶ .....]ς, τῶν Ἀπολλωνίου υἱῶν.
[....]αργατειωι ἐν τῶι Ἀλιᾶτος οἰκ[...]ατ[....]
[....] παραγενόμενοι ἐξέβαλλον [...]

5 [....] γυναῖκά μου καὶ τὰς χεῖράς μ[οι]
[προσήνεγκαν· [٦]

" أوتوخوس حامل المياه إلى الملك بطلميوس تحية. لقد تعرضتُ للأذى من .... و ... أبناء أبوللونيوس. (فحينما كنت أنهض بعملى) عند (منـــزل) ألياس. ..... وبعد أن توجهوا نحوى، سكبوا (الماء علـــى الأرض). ...... وقد اعتدوا بالأيدى على شخصى وكذلك على زوجتى....."

من هذه الوثيقة نعرف أن حامل المياه كان يلقب فى الفترة البطلمية بـــ: ὑδροφόρος من الفعل ὑδροφορέω، ومعناه حمل الماء. كما نفهم أن حامل المياه كان يحمل الماء العذب إلى المنازل القريبة من مورد الماء بهدف بيعه للأهالى. ولهذا وصلتنا مجموعة من الوثائق البردية من إقليم أرسينوى، ترجع إلى القرن الثالث قبل الميلاد، وهى عبارة عن كشوف حسابات يومية تتعلق بتكاليف شراء الماء العذب من حاملى المياه، وهى:

ὑδροφόρωι (ἡμιωβέλιον) [٧]

(نصف أوبول) لحامل المياه

ὑδροφόρωι (ἡμιωβέλιον) [٨]

(نصف أوبول) لحامل المياه

ὕδωρ ὥστε είς τὸ θέατρον (ἡμιωβέλιον) [٩]

(نصف أوبول) لمياه المسرح

ὑδροφόρωι Φιλήμον[ος ....] [١٠]

... إلى فيليمون حامل المياه

نستنتج من هذه الحسابات أن أجر حامل المياه مقابل حمل المـــاء إلـــى المنازل أو المسارح القريبة من مورد الماء كان يبلغ فى المرة الواحدة نصف أوبول ἡμιωβέλιον (أقل من ١٠/١ دراخمة) خلال القرن الثالـــث قبـــل الميلاد.

أما إذا انتقلنا بالحديث عن الأدلة الوثائقية المتصلة بمهنة حامـــل الميـــاه خلال العصر الرومانى، فيمكن تقسيمها إلى مجموعتين، المجموعة الأولـــى: تتناول أوجه نشاط حامل المياه فى إمداد القـــرى والمـــدن بالمـــاء بهـــدف استخدامه فى أغراض مختلفة[١١]. والمجموعة الثانية: تتحدث عن دور حامل المياه فى نقل الماء إلى المحاجر والمنشآت العسكرية المنتشرة فى صـــحراء مصر الشرقية[١٢].

ونبدأ بعرض المجموعة الأولى من الأدلة الوثائقية، ومنها وثيقة بردية ترجع إلى الفترة الواقعة بين عام ١٦٢م. وعام ١٦٧م. وهى عبـــارة عـــن كشف حساب يتعلق بأعمال زراعية فى قرية تبتـــونيس Τεβτυνις بـــإقليم أرسينوى، فتذكر أن تكلفة استخدام أربعة حمير فى نقل الماء بلغـــت اثنـــين أوبـــول[١٣]. ὑδροφοροῦντες ὄνοι δ παρε[λα]ύ[ν]ων ἐργ(άται) β(ὀβολοὶ).

وهناك وثيقة أخرى ترجع إلى ١٦ أغسطس من عام ١٦٦م. وهى عبارة عن كشف حساب يتعلق بنفقات بناء معصرة نبيذ فى قرية تبتونيس[١٤]؛ حيث تضمنت هذه النفقات أجور عدد من حاملى المياه، وهى:

L. 87: κς ὑδρο[φορῶν ....]

٢٦ من حاملى المياه

L. 149: ὑδροφόροι ς (ὀβολοὶ)

٦ أوبول لحاملى المياه

كما احتوت على تكاليف استخدام عدد من حمير حاملى المياه فى نقـل الماء إلى موقع البناء، وهى:

L. 72: [ὑ]δροφορῶν [ὄ]νος α (ὀβολοὶ) ιδ

١٤ أوبول لحمار حاملى المياه

L. 81: [ὑ]δροφορῶν [ὄνος] α (δραχμαὶ) β

٢ دراخمة لحمار حاملى المياه

L. 122: ὑ[δ]ρο[φοροῦντες ὄνοι] β (δραχμαὶ) δ

٤ دراخمة لحمارين لنقل المياه

إذن يتضح أن حاملى المياه كانوا ينقلون الماء من مسافات بعيدة بغرض استخدامه فى رى الأراضى الزراعية وتشييد المنشآت المعمارية المختلفـة. ونظراً لحاجة مثل هذه الأعمال إلى كميات كبيرة من الماء، عـلاوة علـى ابتعاد بعض مواقعها عن مورد الماء، كان طبيعياً أن يعتمد حـاملوا الميـاه على الحمير فى نقل الماء. ولا شك أن تكلفة استخدام الحمير فى نقل المـاء ارتبطت بكمية الماء المنقول والمسافة التى تُنقل عليها المياه.

ومن الجدير بالذكر أن نشاط حاملى المياه لم يرتكز علـى نقـل المـاء بغرض استخدامه فى أعمال الرى والتشييد فحسب، بل ارتكز أيـضاً علـى حمل المياه الصالحة للشرب أو للاستخدام المنزلى عامة. فهناك وثيقة بردية من قرية ممفيس Μεμφις بإقليم أرسينوى، ترجـع إلـى القـرن الثـانى الميلادى، وتضمنت إشاره إلى حامل مياه يدعى أربيخيس فى تلك القرية[١٥] Ἀρβῆχις δὲ ὑδροφόρος. كما هناك وثيقتان ترجعان إلى القرن الثالث

الميلادى، إحداهما من قرية سوكنوبايوس نيسوس Σοκνοπαίος Νῆσος بإقليم أرسينوى، وهما عبارة عن كشوف حسابات تتعلق بنفقات يومية، وقد تضمنتا إشارة إلى حامل المياه[١٦]. علاوة على ذلك وصلتنا من مدينة هرموبوليس ماجنا Ἑρμοῦ πόλις μεγάλη وثيقة ترجع إلى الفترة ما بين عام ٣١٧م. وعام ٣٢٣م.، وهى عبارة عن كشف حساب، ونفهم منه أن تكاليف شراء مياه باردة خلال إحدى رحلات السفر بلغت حوالى ١٠٠ دراخمة[١٧]. χιόνος ὕδωρ (δραχμαὶ) ρ. مما يعكس لنا دور حاملى المياه فى بيع الماء للمسافرين على الطرق وللأهالى فى القرى والمدن بغرض استخدامه فى الشرب وفى رى الأراضى الزراعية وتشييد المنشآت المعمارية البعيدة عن مورد الماء.

ونتساءل هنا عن مورد الماء الذى اعتمد عليه حاملو المياه فى جلب الماء الصالح للاستخدام المنزلى أو الصالح للشرب على وجه الخصوص؟ وفى الإجابة عن هذا السؤال، تتوفر شقافة من مدينة أوكسيرنخوس Ὀξύρρυγχος ترجع إلى القرن الرابع أو القرن الخامس الميلادى، وتضمنت ما يلى:

"Παῦν(ι) β. Παμοῦν ὑδροφόρος ἐγέμησεν εἰς τὸν ὀρθὸν ποταμὸν νηρου." [١٨]

"فى ٢ طوبة. عمل بامون حامل المياه عند (مياه) النهر الرطب والصافى"

من المحتمل أن هذه الوثيقة عبارة عن شهادة رسمية تؤكد أن حامل المياه بامون كان يزاول مهنته بحمل الماء الرطب والصافى من نهر النيل بغرض استخدامه للشرب على وجه الخصوص فيما يبدو. وهذا معناه أنه خلال الفترة الواقعة بين القرنين الرابع والخامس الميلاديين شهدت مصر

إدارة اختصت بإصدار شهادات رسمية تتعلق بمزاولة مهنة حامل المياه والشروط اللازم توافرها لممارسة تلك المهنة. فربما هذه الإدارة كانت معنية بإلزام حاملى المياه بجلب مياه الشرب من أفضل المواقع المطلة على نهر النيل بهدف الابتعاد عن أى مصدر من مصادر التلوث للحفاظ على الصحة العامة.

والآن ننتقل بالحديث إلى المجموعة الثانية من الأدلة الوثائقية المتصلة بنشاط حامل المياه فى المحاجر والمنشآت العسكرية المنتشرة فى صحراء مصر الشرقية. فمن الجدير بالتوضيح أن معظم هذه الأدلة عبارة عن شقافات وصلتنا من جبل كلوديانوس Mons Claudianus الذى يقع فى صحراء مصر الشرقية، ويبعد حوالى ١٤٠ كم عن وادى النيل من جهة الشرق. وهذه المنطقة ضمت عدة محاجر استغلها الرومان فى استخراج حجر الكوارتز وأنقى أنواع حجر الجرانيت طوال الفترة الواقعة بين القرنين الأول والثالث الميلاديين. فلقد استوطن تلك المحاجر عسكريون من قادة وجنود، علاوة على مدنيين من عمال مهرة وغير مهرة ونساء وأطفال[١٩]. ونظراً لأهمية المياه، كان طبيعياً أن يتواجد بين هؤلاء المستوطنين عمال اختصوا بممارسة مهنة حمل المياه. وهذا ما تشهد به مجموعة من الشقافات من محاجر كلوديانوس[٢٠]، ومنها شقافة ترجع إلى الفترة الواقعة بين عام ١٣٦م. وعام ١٣٧م. وتضمنت معلومات عن نشاط حاملى المياه فى تلك المحاجر:

I ζ .... ἀσκοφορία ..... ἄνδ(ρες) .... λδ
φρυγάνοις .... ἄν(δρες) ... ς
φαρμαξάριοι φυσηταὶ ἄνδ(ρες) ... η
στομοτηρίῳ ἄνδ(ρες) ... γ
5 σκοπέλῳ ἄν(δρες) ... γ
ἀκου<ά>ριοι λατο(μίᾳ) ἄνδ(ρες) ... γ
λατομίᾳ ἐργ(άται) ἄν(δρες) .... θ

κελλο[τ]ηρητα(ὶ) ἄν(δρες) ..... γ
ἀρτοκ[οπί]ῳ ἄν(δρες) ..... β
10 πλατεάριος ..... α
γίνονται ἄν(δρες) ..... οβ
II η .... ἀσκοφορία .... ἄνδ(ρες) .... λζ
λατομίᾳ .... ἄνδ(ρες) .... ιε
φρυγάνοις .... ἄν(δρες) .... ε
15 φαρμαξάριοι φυσητ(αὶ) .... ἄν(δρες) .... η
[στ]ομωτηρί(ῳ) .... ἄν(δρες) .... γ
σκοπέλῳ .... ἄν(δρες) .... β
ἀκουάρι[ο(ι)] λατ(ομίᾳ) ἄν(δρες) ⟦β⟧ γ
ἀρτοκοπίῳ .... ἄν(δρες) ..... β
20 κελλοτηρητ(αὶ) ... ἄν(δρες) .... γ
πλατεάριος .... α
γίνονται .... ἄν(δρες) .... οδ
III [θ .... ἀ]σκοφορία .... ἄνδ(ρες) ⟦.⟧ λβ
[λατο]μίᾳ .... ἄν(δρες) .... κ
25 [φρυγάν]οις .... ἄν(δρες) ....
[φαρμαξά]ριοι φυσ(ηταὶ) ἄνδ(ρες) ..... ς
[.... ἄ]ν(δρες) β
Fr. ἀκ[ουάριοι ....]
στομ[οτηρίῳ .....]
30 ἀρτοκοπ[ίῳ .....]
πλατεάρ......... α
γίνονται ἄν(δρες). (٢١)

"(١) اليوم السابع. نقل قرب المياه ٣٤ رجل. الحطب ٦ رجال. أعمال الحداده والفولاذ ٨ رجال. فى الستوموتيريون ٣ رجال. فى برج المراقبة ٣ رجال. حاملوا المياه إلى المحجر ٣ رجال. العاملون فى المحجر ٩ رجال. حراس أماكن المعيشة ٣ رجال. فى المخبز رجلان. بلاتياريوس رجل واحد.

الأجمالى ٧٢ رجلا. (٢) اليوم الثامن. نقل قرب المياه ٣٧ رجل. فى المحجر ١٥ رجل. حطب الوقود ٥ رجال. أعمال الحداده والفولاذ ٨ رجال. فى الستوموتيريون ٣ رجال. فى برج المراقبة رجلان. حاملوا المياه إلى المحجر ٣ رجال. فى المخبز رجلان. حراس أماكن المعيشة ٣ رجال. بلاتياريوس رجل واحد الإجمالى ٧٤ رجلا.(٣) اليوم التاسع. نقل قرب المياه ٣٢ رجل. فى المحجر ٢٠ رجل. حطب الوقود ١٠ رجال. أعمال الحداده والفولاذ ٦ رجال. حاملوا المياه ١٠ رجال. فى الستوموتيريون ١٠ رجال. فى المخبز ١٠ رجال. بلاتياريوس رجل واحد. الأجمالى ٢٠ رجلا."

تمدنا هذه الوثيقة بمعلومات عن توزيع الأعمال على العاملين فى محاجر كلوديانوس. ويهمنا منها المهام المتصلة بحاملى المياه التى تتصدر كافة الأعمال اليومية كما يتضح من النص؛ حيث نفهم أن اليوم السابع تقرر تكليف ٣٤ رجلاً لنقل قرب المياه و٣ رجال لحمل المياه إلى المحجر. وفى اليوم الثامن ٣٧ رجلاً لنقل قرب المياه و٣ رجال لحمل المياه إلى المحجر. وفى اليوم التاسع ٣٢ رجلاً لنقل قرب المياه و١٠ رجال لحمل المياه إلى المحجر فيما يبدو. وهذا معناه أن حاملى المياه كانوا يعملون يومياً فى محاجر كلوديانوس. ويتضح أنهم كانوا ينقسمون إلى مجموعتين: المجموعة الأولى تعرف بـــ ἀκουάριοι λατομίᾳ، وكانت تحمل الماء إلى المحجر لاستخدامه فى عمليات استخراج المعادن وقطع الأحجار. والمجموعة الثانية تسمى بـــ ἀσκοφορία، وكانت تجلب المياه من الخزانات لسقاية العمال أثناء عملهم. مما يعكس كثرة عدد حاملى المياه فى محاجر كلوديانوس. ولا شك أن تلك الكثرة مبعثها:

أ- عدم وجود مياه فى منطقة العمل.

ج- كثرة العاملين الذين يحتاجون إلى المياه.

د- ضرورة استخدام المياه فى أعمال قطع الأحجار واستخراج المعادن.

وهذا يؤكد حاجة محاجر كلوديانوس خاصة والصحراء الشرقية عامة إلى خدمات حاملى المياه. ولهذا تضمنت الأدلة الوثائقية المتاحة معلومات عن:

١- الوسائل التى اعتمد عليها حاملوا المياه فى حمل الماء وطرق صيانتها والحفاظ عليها.

٢- الأماكن التى كان يذهب إليها حاملوا المياه لجلب الماء العذب.

٣- خزانات الماء العذب فى محاجر كلوديانوس.

ففيما يتعلق بالوسائل المستخدمة فى حمل الماء، ففى شقافة من محاجر كلوديانوس ترجع إلى عام ١٠٧م. نجد إمرأة تدعى جراتا Γράτα تقول لشخص يدعى سوكيسسوس[٢٢] Σουκέσσος:

Γράτα Σουκκέσσωι τῶι ἀδελφῶι πλεῖστα χαίρειν.
μετέδωκα Ἀρτειμᾷ ὑπὲρ τῶν ρμ ἀσκῶν
καὶ ἀπεκρίθη μηδὲ εἰληφέναι αὐτοὺς μη-
δ’ ἑωρακέναι. ἔπεμψα Γέταν πρὸς τὸν
5 σησκούπλικα καὶ αὐτὸς εἶπε μὴ εἰληφέναι.
ἐφώνησε δὲ Ἀλέξανδρον τόν ποτε
κουράτορα καὶ εἶπε ἐκεῖνος εἰληφέναι
καὶ πάλι Καστορᾶτι αὐτοὺς παραδεδωκέναι. [٢٣]

"جراتا إلى شقيقها سوكيسسوس، عظيم التحية. لقد أخطرت أرتيماس بخصوص الـ ١٤٠ قربة، فأجابنى بأنه لم يتسلمهم ولم يراهم. لقد أرسلت جيتا إلى السيسكوبليكا، فذكر أنه لم يتسلمهم أيضاً. ولكنه دعا الأسكندر، الكوراتور السابق، فذكر أنه تسلمهم ثم سلمهم لكاستوراس."

ندرك من هذه الشقافة إنشغال جراتا بتحديد الشخص الذى تسلم شحنة قادمة إلى محاجر كلوديانوس من وادى النيل فيما يبدو. وتتألف هذه الشحنة

من ١٤٠ قربة. وتؤكد فى نهاية الخطـــاب أن الـــشحنة تـــسلمها الأســـكندر الكوراتور السابق لقلعة محاجر كلوديانوس. وهنا يعنينا توضـــيح نقطتـــين: النقطة الأولى: مهام الكوراتور κουράτωρ فى محاجر كلوديانوس ودلالة اختصاصه بتسلم شحنة القرب. والنقطة الثانيـــة: معنـــى اصـــطلاح قربـــة ἀσκος.

بالنسبة لمهام الكوراتور فى محاجر كلوديانوس، فتوضح مجموعة مـــن الشقافات من محاجر كلوديانوس من القرن الثـــانى المـــيلادى أن محـــاجر كلوديانوس ضمت قلعة عسكرية πραισιδίου يتولى قيادتها قائد عـــسكرى يلقب بـــكوراتور[٢٤]. وكان من مهامـــه الإشـــراف علـــى الميـــاه وتـــوفير إمداداتها[٢٥]. أما اصطلاح ἀσκος، فمعناه قربة جلدية. ويبـــدو أن منطقـــة كلوديانوس كانت تحصل على هذه القرب الجلدية من المدن الواقعـــة عنـــد وادى النيل التى تبعد مسيرة ثلاثة أيام، مثـــل مدينـــة أبوللونـــوس ماجنـــا Ἀπόλλωνος Πόλις Μεγάλη (إدفو حالياً)، ومدينة كوبتوس Κοπτος (قفط حالياً)، ومدينة تنتوريس Τεντυρις (دندره حالياً). فلقد عُرفت هـــذه المدن بتلبية احتياجات سواء العاملين فى الصحراء الـــشرقية أو المـــسافرين إليها[٢٦]، ولابد أنها كانت تربى الماعز بكثرة لأن القربة الجلدية لا تصنع إلا من جلد الماعز فقط.

نخلص من هاتين النقطتين أن القرب الجلدية تعتبر الوســـيلة الملائمـــة لحمل الماء فى محاجر كلوديانوس أو صحراء مصر الـــشرقية عامـــة[٢٧]. وطالما أن الكوراتور كان مسئولاً عن إمدادات المياه، فلابد أنه كان مسئولاً أيضاً عن تسلم القرب الجلدية القادمة من وادى النيل لتوزيعها على حـــاملى المياه فى محاجر كلوديانوس لاستخدامها كوسيلة أساسية فى حمـــل المـــاء. وهذا يدل على أن حاملى المياه كانوا يعملون تحت إشراف كوراتور القلعـــة

العسكرية سواء الموجوده فى محاجر كلوديانوس أو المنتشرة علـــى طـــول الطرق التى تربط بين المحاجر ووادى نهر النيل.

ونظراً لأهمية القرب الجلدية فى حمل الماء، كان من اللازم اتخاذ عـــدة تدبيرات لصيانتها والحفاظ عليها؛ ففى شقافة ترجع إلى عـــام ١٠٧م. نجـــد دوميتيوس كوراتور قلعة محاجر كلوديانوس يقول لسوكيسسوس:

Δομίτις κουράτωρ Σουκ<κ>έσσωι χ(ίρειν).
ἔδωκές μοι ἔλαιν ἐξ οὗ ἐχθὲς μετὰ τῆς
ἐργαζομένης δεκανίας κατέβην καὶ
ὃ ἔπεμψά σοι \ ⟦τὸ⟧ / ἀνγῖον, ἵνα καταμάθῃς
5 ὃ ἐδαπάνησα ὅλην τὴν ἡμέραν. αὐτὸς δὲ
καταβὰς σήμερον ἵνα μίαν ὑδροφορίαν
ἀπολύσῃ, δὶς ἤδη τοιαῦτα ἐδαπάνησεν.
εἰ δὲ ἐμοὶ οὐ πιστεύεις, ὅτι τοῦτο μόνον
δαπανᾷ, πέμψον τινὰ τῶν σῶν καθί-
10 σαι μίαν ἡμέραν ἵνα πειράσῃς. [٢٨]

"الكوراتور دوميتيوس إلى سوكيسسوس تحية. لقد منحتنى الزيت حينما اتجهت أمس مع المختص بالعشور. والآن أبعث إليك بالـــدلو حتـــى تـــرى (الكمية) التى استخدمتها طوال اليوم. فعندما جاء فى اليـــوم الحـــالى للقيـــام بمهمة واحدة فقط (من مهام) حمل المياه، فلقد استخدم (الزيت) مرتين علـــى الأكثر. إن لم تصدقنى بأنه هو وحده استخدم تلك الكمية (من الزيت)، فعليك أن تبعث بأحد رجالك ليقيم هناك يوماً واحداً حتى تعلم (الأمر جيداً).

وهناك شقافة أخرى ترجع إلى عام ١٠٧م. عبارة عن خطاب بعث بـــه ليونتاس إلى سوكيسسوس، فنراه يقول:

Λεοντᾶς Σουκκέσσῳ χαίρειν.
καλῶς ποιήσεις ἀλλάξας
τοὺς δ ἀσκοὺς καὶ

πέμψας μοι σαργάνα\ς/
5 δύο ἵνα μὴ πάσχωσιν
οἱ ἀσκοί.(٢٩)

" ليونتاس إلى سوكيسسوس تحية. من فضلك استبدل الأربع قــرب، وأرسل سلتين حتى لا تتعرض القرب للضرر."

ندرك من هاتين الشقافتين أن صــيانة القــرب الجلديــة فــى محــاجر كلوديانوس كانت تحتاج إلى أمرين أساسيين، أولهما ضرورة توفير الزيــت ἔλαὶς. فالواضح أن هناك ارتباطاً وثيقاً بين الزيت والقرب الجلدية. فمــن المحتمل أن الزيت كان يُستخدم فى دهانها للحفاظ على ليونتها ومنع تعرضها للتشقق بسبب أشعة الشمس أو بسبب الاحتفاظ بها لفتــرات غيــر محــددة. والأمر الثانى: أهمية وضع القرب الجلدية داخل سلال من الخوص حتــى لا تتعرض لأشعة الشمس.

ولا شك أن طريقة استخدام حاملى المياه للقرب الجلدية تتوقــف علــى المسافة بين مورد الماء والجهة المراد إمدادها بالمياه. فمثلاً عنــدما يكــون مورد الماء قريباً من الجهة المراد إمدادها بالماء، يعتمد حاملوا المياه علــى القرب الجلدية فقط فى حمل الماء ونقله. أما إذا كان مــورد المــاء بعيــداً، يضطر آنذاك حاملوا المياه إلى استخدام الحيوان فى نقــل القــرب الجلديــة الممتلئة بالماء إلى مسافات بعيدة. وهذا ما يتضح من شــقافة مــن محــاجر كلوديانوس ترجع إلى القرن الثانى قبل الميلاد، وهى عبارة عــن خطــاب رسمى مُرسل إلى كوراتور قلعة رايما، ويقول فيه الراسل ما يلى:

[.... τῶ]ι κυρίῳ Ἀπολλινάρις
[κουράτωρ Ῥαε]ιμα χαίρειν.
[γιγνώσκειν] σε θέλω ὅτι ....
....

5 .... ὕδατος ἔπεμψα κα-
[μήλους κ]υριακοὺς εἰς Ἄκανθα
[ἵνα ἀ]νενέγκωσι ἡμῖν
[ὕδωρ καὶ] μὴ κολαζώμεθα.
[ἔπεμψά σ]οι καμήλους κυρια-
10 [κοὺς] καὶ παγανικούς. [٣٠]

"التحية إلى سيدى أبولليناريس كوراتور (قلعة) رايما. أود أن تعلم ......، ......، ..... لقد أرسلت جمال الدولة إلى أكانثا من أجل الحصول على المياه حتى لا نتعرض للآذى. ولقد أرسلت أيضاً كل من جمال الدولة والمدنيين."

يتبين من هذا الخطاب استخدام الجمال فى نقل الماء لمسافات بعيدة فى الصحراء الشرقية[٣١]. والواضح أنها تنقسم إلى نوعين. النوع الأول: جمال الدولة καμήλος κυριακος. وكانت تطلبها الإدارة الرومانية من الأهالى فى وادى النيل حتى تساهم فى أنشطة المحاجر لفترة محددة فيما يبدو. والنوع الثانى: جمال مدنية καμήλος παγανικος. ويبدو أنها تخص أفراد مدنيين كانوا يستثمرونها فى أعمال المحاجر[٣٢].

كما يُحدد لنا هذا الخطاب مكان أحد موارد الماء العذب فى الصحراء الشرقية؛ حيث يتضح أن منطقة أكانثا Ἄκανθα الواقعة على الطريق المؤدى إلى موقع محاجر كلوديانوس كانت تضم بئرا للمياه العذبة[٣٣]. وهنا جدير بالذكر أن منطقة أكانثا لم تكن الوحيدة التى ضمت بئراً للماء العذب. فهناك بئر آخر للماء العذب فى منطقة تسمى رايما Ῥαειμα. وكانت تقع أيضاً على الطريق المؤدى إلى محاجر كلوديانوس[٣٤]. ولا شك أن حاملى المياه اعتادوا الذهاب إلى هذه الآبار للحصول على الماء العذب ونقله إلى محاجر كلوديانوس.

وهنا نتساءل: ما التدبيرات المتبعة فى محاجر كلوديانوس بعد جلب الماء العذب من آبار منطقتى أكانثا ورايما؟ وفى الاجابة عن هذا السؤال، يمكن الاستشهاد بما يلى:

Ἐπεὶφ β
ἀσκοφορία καὶ κά-
θαρσις τοῦ στύλου
καὶ ὄπισθεν τοῦ πραι-
5 σιδίου. [٣٥]

"الثانى (من شهر) أبيب. حاملوا قرب المياه، تنظيف دعامات (الخزانات) والفناء الخلفى للقلعة."

Ἐπεὶφ α
ἀσκοφορία εἰς τὸ<ν>
3 λάκκον. [٣٦]

"الأول (من شهر) أبيب. حاملوا قرب المياه إلى خزان (الماء)."

يتضح أن منطقة محاجر كلوديانوس ضمت خزانات للمياه λάκκοι. وكان يتولى تنظيفها حاملوا المياه من حين لآخر حتى لا تتعرض للتلوث. ولقد اُستخدمت فى تخزين الماء العذب الذى يأتى من الآبار.

وهكذا يتبين أن حاملى المياه فى محاجر كلوديانوس كانوا يقومون بمهام متنوعة بداية من جلب الماء العذب من الآبار وحمله فى قرب جلدية فوق ظهور الجمال إلى محاجر كلوديانوس لتفريغها فى خزانات المياه بعد تنظيفها، ووصولا إلى العمل داخل موقع المحاجر بحمل القربة الممتلئة بالماء العذب لسقاية العمال أو لاستخدامه فى استخراج المعادن وقطع الأحجار.

وإذا كانت هناك مجموعة من الشقافات تتحدث عن توزيع حصص مياه الشرب على العاملين فى محاجر كلوديانوس، وأوضحت أن حصة الفرد

الواحد كانت تتراوح ما بين ٢-٣ لتر فى اليوم الواحد[٣٧]، وإذا كان فان دير فين van der Veen ذكر فى دراسته لمحاجر كلوديانوس أن عدد مستوطنيها يبلغ حوالى ٩٢٠ فرداً [٣٨]، فهذا معناه أن حاملى المياه اختصوا بنقل كميات من المياه لابد أن تتناسب مع عدد هؤلاء المستوطنين، كما لابد أن تتفق مع ما تتطلبه أعمال استخراج المعادن وقطع الأحجار، علاوة على ما تحتاجه الحيوانات المستخدمه فى نقل منتجات المحاجر إلى وادى النيل.

وإجمالاً لما سبق كله يتجلى لنا أهمية الدور الذى لعبته مهنة حامل المياه كما ظهرت فى برديات وشقافات الدراسة. فلقد اعتمد الأهالى فى المدن والقرى المنتشرة في أنحاء مصر على حاملى المياه فى شراء الماء سواء الصالح للاستخدام المنزلى أو المياه المستخدمه فى أعمال الرى والبناء. كما رأينا دورهم البارز فى توفير الماء لمستوطنى محاجر كلوديانوس بصحراء مصر الشرقية. فمن الواضح أن مهنة حامل المياه لعبت دوراً مهماً فى إيجاد افكار إدارية واقتصادية جديدة خلال حكم البطالمة والرومان فى مصر.

هوامش الدراسة

(1) Shaheen, A.E., "Water Carrier" or the Like in the Ancient Egyptian Sources and Its Resemblance to Dilmun Glyptic Art", in the Archaeology and Art of Ancient Egypt, Essays in Honor of David B. O'Connor, Annales du Service Des Antiquites de l' Egypte, Cachier N 36, vol. II, edited by Hawass, Z.A., Richards, J., Conseil supreme des antiquites de l' Egypte, Caire, 2007, pp. 369-380.

(2) P.Cair. Zen. IV 59702, Account of Daily Expenses, Philadelphia (Arsinoites), 275-226 B.C.; P. Lond. VII 2140, Account, Philadelphia, 275-225 B.C.; SB. V 7642, Letter from Maron to Zenon, Philadelphia, 257 B.C.; P. Princ. II 18, Grain Accounts, provenance unknown, 225-201 B.C.; P. Enteux. 78, Violence against Water-Carrier, Magdola, Krokodilopolis (Arsinoites), 26-27 Febr. 221 B.C.; PSI. V 528, Letter from Kleon to his Father Zenon, Philadelphia, 3rd century B.C.; P.Petr. III 137, Private Accounts, Gurob (Arsinoites), 3rd century B.C.

(3) SB. V 7642, LL. 1-4.

(4) PSI. V 528, LL. 1-12.

(٥) من المحتمل أن زينون تبنى الصبى كليون وتكفل بالإنفاق عليه هو ووالدته الأرملـــة. انظر:

Clarysse,W., Vandorpe, W., ***Zénon, un homme d' affaires grec à l' ombre des pyramides***, Ancorae 14, Leuven 1995, pp. 61-62; Rowlandson, J., (ed.), Women and Society in Greek and Roman Egypt: A Sourcebook, Cambridge: Cambridge University Press, 1998, p. 96; Reden, S.V., Money in Ptolemaic Egypt: From the Macedonian Conquest to the End of the Third Century B.C., Cambridge University Press, Cambridge, 2007, p. 236 no. 32.

(6) P. Enteux. 78, LL. 1-6.

(7) P. Petr. III 137, L. 7.

(8) P. Cair. Zen. IV 59702, L. 24.

(9) P. Lond. VII 2140, LL. 2-3.

(10) P. Princ. II 18, L. 7.

(11) SB VI 9494, List of Expenses for Agricultural Works, Tebtunis (Arsinoites), 162-167 A.D.; P.Mil. Vogl. VII 304, Account for Workers and Building Wine Press, Tebtunis, 16 Aug. 166 A.D.; UPZ 1 120, Judicial Report, Memphis, 2nd century A.D.; SB VI

9095, Daily Record, provenance unknown, 3rd century A.D.; SPP XXII 75, Rations, Soknopaiu Nesos (Arsinoites), 3rd century A.D.; P.Ryl. IV 630–637, Travel Accounts, Hermoupolis Magna, 317-323 A.D.; SB I 1976, Water-Carrier, Oxyrhynchos, 27 May 401-500 A.D.

(12) O. Krok. I 69, Letter from Papinnius Rufus to Marcus Titusenus, Krokodilo, 98-117 A.D; O.Krok. I 78, Letter to Curator, 98-117A.D; O.Claud. IV 784, Account of Askoi to Quarries, Mons Claudianus, 98-117 A.D; O.Claud. IV 785, Order for Delivery of Water-Skins, 98-117 A.D.; O.Claud. IV 824, Letter from Leontas to Epaphroditus, 98-117 A.D; O.Claud. IV 867, Letter, 98-117 A.D; O.Claud. I 126, Letter from Grata to Successus, 107 A.D.; O.Claud. 1 127, Letter from [Art]imas to Successus and Sabinus, 107 A.D; O.Claud. I 128-129 Letter from Leontas to Successus, 107 A.D; O.Claud. I 134, Letter from Domitius to Successus, 107 A.D; O.Claud. IV 819, Official Letter of Requisition, 110 A.D; O. Claud. IV 723-726, List of Personnel 136-137 A.D; O.Claud. IV 840, Account of Various Deliveries, 136-137 A.D; O.Claud. IV 757, List of Completed Works, 138-161 A.D; O.Claud. IV 758, 761, List of Completed Works, 138-161 A.D.; O.Claud. IV 728-729, Distribution of Men for other Jobs, 140-145 A.D; SB. XVIII 13336, Letter, I-II A.D; O.Claud. II 362, Apolinaris, curator of Raima, Raima, Mons Claudianus, II A.D.

(13) SB VI 9494, LL. 21-22.

(14) P.Mil. Vogl. VII 304.

(15) UPZ. I 120, L. 20.

(16) SB. VI 9095, L. 12: ὑδροφόρω[ν]; SPP XXII 75, L 9: [ὑδ]ρ[ο]φό(ρῳ) μ( ) δ.

(17) P. Ryl. IV 630-637, L. 331.

(18) SB. I 1976.

(19) Veen, V. D.M., "A Life of Luxury in the Desert? The Food and Fodder Supply to Mons Claudianus.", Journal of Roman Archaeology, XI, 1998, pp. 101–16; Hirt, A.M., Imperial Mines and Quarries in the Roman World, Organizational aspects 27 B.C.-235 A.D., United State, Oxford University Press, 2010. esp. chap. 3-4; Sidebotham, S.E., Berenike and the Ancient Maritime Spice Route, University of California Press, 2011, pp. 73; 81; 89; 91, 99-100; 117-122.

(20) O.Claud. IV 723, L. 16: ἀκ[ου]ἀριοι ...? "; O.Claud. IV 724, L. 2: ιη εἰς ὑδρο[φορίαν .....]; O.Claud. IV 726, L. 1:[ἀσκοφορία ἄν(δρες)] λβ; O.Claud. IV 761, L. 8: ἀσκοφορία; O.Claud. IV 840, L. 8: "ἀσκοὶ ὑδρηγοὶ .... α; O.Claud. IV 728, L. 10: ἀσκοφορίᾳ .... κ̃;O.Claud. IV 729, L. 8: ιζ οἱ αὐτοὶ εἰς τὴν ὑδροφορίαν.

(21) O.Claud. IV 725, LL. 1-32.

(٢٢) يتضح من مجموعة من الشقافات ترجع إلى القرن الثانى الميلادى (O.Claud. I 124-163.) أن سوكيسسوس كان مسئولاً عن توفير معظم مستلزمات العمل فى محاجر مونس كلوديانوس مثل القش والسلال والحبال والعباءات والأزاميل والمقابض والفؤوس، فضلاً عن القرب الجلدية.

(23) O.Claud. I 126, LL. 1-13.

(24) O.Claud. I 78; I 48-49; 82; I 126; I 134; I 148-149; II 222; II 224-226; II 228; II 232-234; II 357-382; II 384-385; II 387, 2nd century AD.

(٢٥) ضمت محاجر كلوديانوس وشبكة الطرق التى تربطها بوادى نهر النيل عدة قلاع عسكرية. وكان لكل قلعة كوراتور مسئولاً عن قيادتها. ومن أبرز مهامه توفير إمدادات المياه. فهناك شقافة مهشمة من قلعة كرودويلو Κορκοδιλῶ (إحدى القلاع المنتشرة على طريق ميوس هرموس/كوبتوس) ترجع إلى الفترة الواقعة بين عام ٩٨م. وعام ١١٧م. وهى عبارة عن خطاب رسمى بعث به بابيننيوس روفوس Παπίννιος Ῥοῦφος إلى ماركوس تيتوسينوس Μάρκος Τιτυσήνος كوراتور κουράτὼρ قلعة كروكوديلو. ويطلب فيه أن يفعل الكوراتور أفضل ما فى وسعه بخصوص مسألة إمدادات المياه. (O. KroK. I 69, LL. 4-12: [κα]λῶς ποιήσ[εις .....] .... και [.... ὑδ]ροφορία.)

(26) Zitterkopf, R.E., Sidebotham, E., "Stations and Towers on the Quseir-Nile Road", *The Journal of Egyptian Archaeology*, 75, 1989, pp. 165-170; Daniel, R.W., "Neither do they put new wine in old skins", Zeitschrift für Papyrologie und Epigraphik, 101, 1994, p. 62.

(٢٧) تعكس مجموعة من الشقافات كثرة طلب القرب الجلدية وأهمية توفيرها فى محاجر كلوديانوس. انظر:

O.Claud. IV 784, L. 1: ...ε]νδεκα ἀσκῶ[ν]; O.Claud. IV 785, LL. 1-3: Μάρωνι σὺν χαλκίῳ ἀσκοὺς; O.Krok. I 78, L. 6: ὕδατους ἀσκοὺς; O.Claud. IV 824, L. 4: ἀσκὸν παλαι<ὸ>ν"; O.Claud. IV 867, L. 3: πέμψα]ι ἀσκὸ(ν) γλυκέους; O.Claud. 1 127, LL. 10-11: ὑπὲρ τῶν ἀσκῶν; O.Claud. IV 819, LL. 4-6: πέμψις είς [τὴ]ν λατομίαν τοῦ Ἀ[πόλ]λωνος είς τὸ[....]ην ἀσκὸν.

(28) O.Claud. I 134, LL. 1-8.

(29) O.Claud. I 128, LL. 1-6.

(30) O.Claud. II 362, LL. 1-10.

(٣١) كان من اللازم انتقاء الجمال بحيث يكون لديها القدرة والكفاءة على حمل قرب المياه؛ ففى خطاب يرجع إلى القرن الثانى الميلادى، نجد الراسل يطلب من المرسل إليه أن يمده بجمال جيده من أجل نقل المياه. (SB. XVIII 13336, LL. 7-10: σπου[δ]αίως δὶ τοὺς καμηλίτας μοι πέμσον τῆς ὑδροφορίας.)

(32) Adams, C., Land Transport in Roman Egypt, A Study of Economics and Administration in A Roman Province, Oxford University Press, 2007, p. 135ff.

(33) Verreth, H., A Survey of Toponyms in Egypt in the Graeco-Roman Period, Koln/Leuven, 2008, p, 31.

(34) Ibid, p, 496.

(35) O.Claud. IV 758, LL. 1-5.

(36) O.Claud. IV 757, LL. 1-3.

(37) O.Claud. IV 704; 770-771; 774-778; 780-783; List of Distribution of Water to Quarries, 98-117 A.D.

(38) Veen, op.cit., p. 101.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر:

١- البردى:

P.Cair.Zen.
= Zenon Papyri, Catalogue général des antiquités égyptiennes du Musée du Caire, Vol. IV, ed. C.C. Edgar, Cairo, 1931.

P.Enteux.
=ENTEYΞEIΣ: Requêtes et plaintes adressées au Roi d'Égypte au IIIe siècle avant J-C., ed. O. Guéraud, Cairo, 1931-32.

P.Lond.
= Greek Papyri in the British Museum, Vol. VII, the Zenon Archive, ed. T.C. Skeat, London, 1974.

P.Mil. Vogl.
Vol. VII, La contabilità di un'azienda agricola nel II sec. d.C., ed. D. Foraboschi. Milan 1981.

P.Petr.
= The Flinders Petrie Papyri, Dublin, Vol. III, ed. J.P. Mahaffy and J.G. Smyly, 1905.

P.Princ.
= Papyri in the Princeton University Collections, Vol. II, ed. E.H. Kase, Jr. Princeton 1936.

P.Ryl.
= Catalogue of the Greek and Latin Papyri in the John Rylands Library, Manchester, Manchester, Vol. III, Theological and Literary Texts, ed. C.H. Roberts. 1938.

PSI
= Papiri greci e latini. (Pubblicazioni della Società Italiana per la ricerca dei papiri greci e latini in Egitto), Vol. V, ed. G. Vitelli and M. Norsa, Florence.

SB
= Sammelbuch griechischer Urkunden aus Aegypten, (Begun by F. Preisigke in 1915, continued by F. Bilabel, E. Kiessling, and H.-A. Rupprecht), Vol I, Strassburg and Berlin 1913-1915, Vol. V, Heidelberg and Wiesbaden 1934-1955; Vol. VI, Wiesbaden 1958-1963; Vol. XVIII, Wiesbaden 1993.

SPP (or Stud.Pal.)
= Studien zur Palaeographie und Papyruskunde, Vol. XXII, ed. C. Wessely. Nos. 1-184. 1922. [MF 2.119; rp. AMH]

UPZ
= Urkunden der Ptolemäerzeit (ältere Funde), ed. U. Wilcken, Vol. I, Papyri aus Unterägypten, Berlin-Leipzig 1927.

٢- الشقافات:

O.Claud.
= Mons Claudianus. Ostraca graeca et Latina, Vol. I-II ed. J. Bingen, et Alii, Cairo 1992-1997; Vol. IV, ed. A. Bülow-Jacobsen, Cairo 2009.

O.Krok.
= Ostraca de Krokodilô , ed. H. Cuvigny, I, La correspondence militaire et sa circulation. Cairo 2005.

ثانياً: المراجع والدوريات الأجنبية:

Adams, C., *Land Transport in Roman Egypt, A Study of Economics and Administration in A Roman Province*, Oxford University Press, 2007.

Clarysse,W., Vandorpe, W., **Zénon, un homme d' affaires grec à l' ombre des pyramides**, Ancorae 14, Leuven 1995.

Daniel, R.W., *"Neither do they put new wine in old skins"*, Zeitschrift für Papyrologie und Epigraphik, 101, 1994, p. 62.

Hirt, A.M., *Imperial Mines and Quarries in the Roman World, Organizational aspects 27 B.C.- 235 A.D.*, United State, Oxford University Press, 2010.

Reden, S.V., *Money in Ptolemaic Egypt: From the Macedonian Conquest to the End of the Third Century B.C.*, Cambridge University Press, Cambridge, 2007.

Rowlandson, J., (ed.), *Women and Society in Greek and Roman Egypt: A Sourcebook*, Cambridge: Cambridge University Press, 1998.

Shaheen, A.E., *"Water Carrier" or the like in the ancient Egyptian sources and its resemblance to Dilmun Glyptic art"*, in the archaeology and art of ancient Egypt, Essays in honor of David B. O'Connor, Annales du service des antiquites de l' Egypte, Cachier

N 36, vol. II, edited by Hawass, Z.A., Richards, J., Conseil supreme des antiquites de l' Egypte, le Caire, 2007, pp. 369-380.

Sidebotham, S.E., *Berenike and the Ancient Maritime Spice Route,* University of California Press, 2011.

Veen, V. D.M., "*A Life of Luxury in the Desert? The Food and Fodder Supply to Mons Claudianus.*", Journal of Roman Archaeology, XI, 1998, pp. 101–16.

Verreth, H., *A Survey of Toponyms in Egypt in the Graeco-Roman Period,* Koln/Leuven, 2008.

Zitterkopf, R.E., Sidebotham, E., "*Stations and Towers on the Quseir-Nile Road*", The ***Journal of Egyptian Archaeology***, 75, 1989, pp. 165-170;

الأسـواق فـي بيت المقدس
في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي

د. أنور عوده الخالدي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
قسم التاريخ – جامعة ال البيت

١. التمهيد: تبرز أهمية دراسة موضوع الأسواق ومرافقها في القدس الشريف لكونها من أهم الصروح الحضارية والمعمارية الإسلامية، وكذلك لتميزها عن باقي المعالم والأبنية التاريخية، ويعتبر السوق من المعالم الحضارية المادية والأدبية على مر العصور والسوق من مؤسسات النفع العام ويقوم بوظائف اقتصادية واجتماعية إضافة إلى العديد من الوظائف المتنوعة ذات الصلة بعلاقات الاتصال الحضاري بين السكان المحليين والوافدين من التجار والزوار والحجاج الأجانب الذين يؤمون السوق، حيث تتم المعاملات والعلاقات وتتلاقى الثقافات في مكان واحد، تنشأ عن عملية التلاقي تبادل المصالح والمنافع المشتركة وتبادل الأفكار والثقافة، ويعود أيضاً بالنفع المادي على المدينة التي تستمد ازدهارها وتطورها من نشاط وغنى أسواقها وتنوع ثرواتها.

هذه الدراسة بأسلوب العرض التاريخي والاقتصادي والعمراني، والتي تستند على مصادر الوثائق وسجلات المحاكم الشرعية بالقدس وعلى الأصول من المدونات التاريخية تعتبر جهداً يضاف إلى الجهود التي تبذل لتوثيق حضارة وتراث القدس للحفاظ على هويتها العربية والإسلامية من خطر التهويد والاحتلال.

٢. **أهمية الدراسة:** تكمن أهمية دراسة موضوع الأسواق كونها من أهم الصروح المعمارية والاقتصادية الإسلامية، وكذلك لتميزها عن باقي المؤسسات المعمارية التاريخية؛ فالأسواق تعتبر من مؤسسات النفع العام وتقوم بوظائف اقتصادية واجتماعية إضافة إلى العديد من الوظائف المتنوعة ذات الصلة بالتراث الحضاري والثقافي الإسلامي.

والأسواق في القدس الشريف يعزز من مكانتها الدينية والاقتصادية، ويؤكد على أهميتها من المنظور العمران البشري، كون الأسواق مكان لتجمع عدد كبير من الناس المحليين والوافدين، والفاعلين اقتصادياً واجتماعياً، ومن المؤكد أن المدينة الحاضرة تستمد أهميتها من أسواقها ومؤسساتها الثقافية والاجتماعية والاقتصادية.

الدراسة تتناول موضوع الأسواق من حيث؛ نوعية البضائع ومصادرها ومؤسسات السوق مثل الخانات، وإدارتها مثل المحتسب والقاضي ودورهم في تنظيم علاقات السوق وتحديد الأسعار وضبط معاملات البيع والشراء والأحكام وفض المنازعات المتعلقة بأمور التجارة والشهود على الرهن ومتابعة الوفاء بالدين والحقوق.

٣. **منهجية الدراسة:** لقد استخدم المنهج التاريخي في الدراسة حيث تم الاعتماد على قراءة وتحليل معلومات سجلات المحاكم الشرعية وإسنادها بالمعلومات المتممة المستمدة من المصادر الكتابة؛ هذه المصادر من نوع الأصول أي المصنفات التاريخية القديمة والمؤلفات الحديثة المنشورة.

تتضمن الدراسة وصف للأسواق من الناحية الاقتصادية والعمرانية وتحديد موضعها وانتشارها المكاني، استناداً على معلومات سجلات المحاكم الشرعية بالقدس وإرفاقها بمعلومات إضافية ذات الصلة ومستمدة من المصادر التاريخية.

يتقدم الدراسة عرض للحياة الاقتصادية في القدس، وللمؤسسات

والوظائف المرتبطة بالأسواق لتوضيح مكانة ودور الأسواق في السياق الحضاري والاقتصادي للقدس الشريف.

٤. مصادر الدراسة:

أ. سجلات المحاكم الشرعية في القدس[1]، تكتسب السجلات أهمية استثنائية في دراسة التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والعمراني، وكذلك دراسة مختلف أوجه الحياة اليومية بالمدينة منذ مطلع العهد العثماني وحتى مطلع القرن العشرين، فالسجلات تحتفظ بثبات بالقضايا موثقة باليوم والشهر والسنة، وبيان نوعها سواء كانت تركات أو أوقاف أو فض منازعات وكذلك تذكر أسماء الأعلام والأماكن والأسواق والخانات والحمامات والدور وأماكن انتشارها وتعدد بوابات القدس وحاراتها وسكانها.

أما من الناحية الاقتصادية فقد أوردت السجلات معلومات حول أسماء الأسواق والخانات، ومعلومات عن المشتغلين في السوق، فذكرت أسمائهم وطوائفهم ومعلومات حول المواد والبضائع المتداولة في الأسواق من حيث أنواعها والمحاصيل التي ترد إلى الأسواق، ومعلومات عن الأسعار والأثمان والأوزان والعملة المعتمدة بالتداول والمؤسسات التابعة للسوق كالمحتسب والقاضي وأسماء شهود صكوك البيع والشراء والرهن سواء كانت المواد ممتلكات أو بضائع أو محاصيل.

ب. دفتر طابو لواء القدس الشريف[2]، لعام ٩٣٢هـ/ ١٥٢٥م ولغاية عام ٩٣٨هـ/ ١٥٣٢م، لقد ذكر في دفتر الطابو معلومات حول الأسواق والخانات في القدس من حيث موضعها وأماكن انتشارها، وتتضمن بعض المعلومات عن موادها والمخازن والدكاكين الملحقة بها ونوع ملكيتها.

٥. الحقبة التاريخية: القدس الشريف في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، ترسخت مكانتها الدينية والتاريخية باعتبارها مركزاً دينياً وعمرانياً وثقافياً، كونها أولى القبلتين وفيها ثالث الحرمين الشريفين، وجاء

دور العثمانيين مكملاً لدور السلاطين المماليك بالاهتمام ببيت المقدس، فتابعت المدينة ازدهارها الديني والعمراني والاقتصادي، وسياسياً تغير وضعها من ولاية مستقلة في عهد المماليك يحكمها نائب السلطان إلى مدينة تتبع ولاية دمشق وأحياناً كانت تتبع ولاية صيدا وعاصمتها بيروت ابتداءً من عام ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م أصبح يحكمها باشا يأتمر بحاكم ولاية دمشق أو صيدا، ثم تطور وضعها الإداري والسياسي إلى سنجق[٣] (لواء) مستقل بدلاً من متصرفية تابعة، وذلك بعد الإصلاحات الإدارية العثمانية في عام ١٢٥٦هـ/ ١٨٤٠م.

٦. **التنظيم العمراني والإداري:** يمكن وضع تصور تنظيمي للمدينة في مطلع القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي استناداً على وصف القاضي المقدسي مجير الدين العليمي الذي وصفها في كتابه "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" عام ٩٠٠هـ/ ١٤٩٤م، حيث وصف موقعها الجغرافي وذكر خططها وجاراتها وطرقها الرئيسية ونوعية أسواقها وخاناتها وقلعتها وأبوابها وذكر آبارها وعيون الماء فيها، ووصف نسيجها العمراني فذكر جوامعها ومدارسها وزواياها وتكايداها وبيمارستناتها وحماماتها[٤].

فالمدينة كانت منظمة عمرانياً، وذات تراتبية إدارية ممثلة بالوالي أو نائب السلطان وناظر الحرمين (الأقصى بالقدس والإبراهيمي بالخليل)، وقاضي القضاة وقضاة المذاهب الأربعة ووكيل بيت المال وتنظيم المدينة وأبنيتها تخضع لسلطة القاضي وإشراف المحتسب فنظامها الإداري يخضع لنظام الحسبة[٥].

الحياة الاقتصادية في القدس (في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي)

اقتصاد بيت المقدس يعتمد على مصادر الوقف الإسلامي الذي يعتمد على الإنتاج الزراعي وريع العقارات المملوكة لمؤسسات الوقف، من أسواق وخانات ودكاكين ومزارع، ومن الحركة التجارية في أسواقها وعائدات الريع

والخراج والضرائب ورسوم القبان، وحركة البناء والتوسع العمراني، والمنتجات الزراعية والحرفية الصناعية، ومصدر عائد الحج الإسلامي والمسيحي.

مع مطلع العهد العثماني أصبحت القدس مركزاً تجارياً ووجهة للزوار والحجاج الأجانب نظراً لأهميتها الدينية والتاريخية، فتنوعت مصادر الثروة الاقتصادية في ناحية القدس الشريف، ومن أهم تلك المصادر [٦]:-

١. **الأراضي بأنواعها:** والتي كانت تقسم إلى أربعة أقسام رئيسية.

- الأراضي الخاصة بالسلطان، وهي الأراضي التي كانت ملكاً للمماليك ثم انتقلت ملكيتها إلى السلطان العثماني.
- الأراضي الإقطاعية، أراضي موزعة بين قرى خاص بأمير اللواء [٧]، وقرى الزعامت [٨]، وقرى التيمار [٩].
- أراضي الملك، أي الأراضي الخاصة التي تقوم على الدور والحواكير.
- أراضي الوقف [١٠]، وتقسم إلى أراضي وقف خيري وقف عام وتدفع ضريبة العشر ووقف ذري مخصصة لأهل وذرية الواقف وتدفع أيضا ضريبة العشر.

٢. **الثروة الزراعية:** تنوعت الثروة الزراعية من محاصيل الحبوب والأشجار المثمرة والخضراوات والأشجار الحرجية، وكانت تقسم المحاصيل الزراعية إلى الأقسام التالية:

- الحبوب، أهمها: القمح والشعير.
- الأشجار المثمرة، مثل: الزيتون وهو على نوعين الزيتون الروماني، والتين والتفاح والرمان والأجاص والمشمش والخوخ واللوز والجوز والدراق والسفرجل.
- الخضراوات بأنواعها.

٣. **الثروة الحيوانية:** الاهتمام بتربية الأغنام والماعز والنحل والأبقار والجواميس والإبل، والخيل والبغال والحمير والطيور.

الصناعات والطوائف الحرفية:

١. **الصناعات الغذائية**[١١]، مثل: صناعة الطحن وعصر الزيتون والسمسم لاستخراج زيت السيرج والطحينة والعنب والفاكهة لصناعة الدبس والخل، وذكر بأن في القدس خمسة عشر معصرة زيتون[١٢]، وكان عدد المدابس فيها تسعة، هذا وتركزت صناعة طحن الحبوب في القدس حيث بلغ عدد المطاحن خمسة عشر مطحنة تقع ضمن حارات النصارى واليهود وفي باب العامود وباب حطة ومنطقة خان العمارة[١٣].

٢. **الصناعات النسيجية:** اقتصرت على حياكة القطن والكتان وكانت دكاكين الحياكة موزعة على أنحاء المدينة وارتبطت بالصناعات النسيجية صناعة صبغ القماش حيث وجدت مصبغة قرب خان الفحم وخان الشعارة وهذه المصبغة كانت ضمن أوقاف مسجد قبة الصخرة المشرفة[١٤]، هذا وشارك اليهود في صناعة الصباغة حيث ورد اسم الصباغ اليهودي موسى بن داوود كواحد من الصباغين في القدس[١٥]، إلى جانب ثلاثة صباغين مسلمين.

٣. **الصناعات النحاسية والحديدية:** نظراً للحاجة إلى أواني كبيرة خصوصاً تلك المستخدمة في صناعة الصابون وعصر الزيت ظهرت طائفة النحاسين للقيام بصناعة الأواني النحاسية، وكذلك العمل على تبييضها وظهر أيضاً من يقوم بهذه الحرفة، أي حرفة مبيض النحاس[١٦]، وكذلك الصناعات الحديدية، مثل: صناعة سكة المحاريث وأدوات العزق، وحديد البناء، ولعب اليهود دوراً بارزاً في هذه الحرفة، وتركزت تلك الصناعة في سوق الريشة وكان يقوم بها خمسة حدادين[١٧].

٤. **الصناعات الجلدية:** وتشتمل على صناعة الأحذية والسيورة وسروج

الخيل وصناعة دباغة الجلود، عمل فيها السروجية والبوابيجية التي تقـع دكاكينهم في سوق القماش[١٨]، هذا وقام الأساكفة بصناعة الأحذية، وجد في القدس عام ٩٦٣ هـ / ١٥٦٤ م مدبغتان تدبغ الجلود باستخدام ورق السماق المطحون[١٩].

٥. **صناعة الصابون:** ازدهرت في ناحية القدس، بسبب الإنتاج الغزير لزيت الزيتون، حيث تركزت هذه الصناعة في القدس، وبلغ عدد مصابنها تسعة توجد في سوق الفخر وحارة اليهود وباب العامود[٢٠].

الطوائف الحرفية: لقد شكل الحرفيون والتجار وأصحاب الصناعات من فئات المجتمع طوائف، تختص كل طائفة بتنظيم عمل أفرادها وترعى مـصالحهم وتنظم الحرفة، وكان لكل طائفة شيخ يعرف (شيخ الطائفة) يليه مـن حيـث المكانة والتراتبية (الوكيل) ثم (المعلم) ثم (الصانع) ثم الأجير، وكل هـؤلاء كانوا يتواجدون في السوق ومحله الحرفة، ولإضفاء الصبغة القانونية علـى شيخ الحرف كان يسجل اختياره من قبل مريديه لدى القاضـي[٢١]، وكـان تحديد الأسعار يتم باتفاق أعضاء الطائفة وشيخهم بحضور المحتسب[٢٢] وكل من يخالف السعر كان يعرض نفسه للعقوبة.

ومن الطوائف الحرفية التي عرفت بالقدس: الطوائف المتعلقة بحرفة المعاصر مثل: طائفة المعصرانية، السيرجانية وبائعو الطحينـة والدباسـون الذين تعهدوا بتوفير الزيت والسيرج والطحينـة فـي أسـواق القـدس[٢٣]، والطوائف المتعلقة بالحبوب وهي طوائف: الكيالين والمكربليـه والمغربليـه والطحانين والخبازين والمبرغليه والكعكانية والبقسماطية، وكانـت طائفـة الطحانين تطحن الغلال باستخدام الخيول في إدارة الطواحين الذي ارتبطـت بهم طائفة الخبازين التي كانت توفر ما تحتاجه القدس من جميع أنواع الخبز من خلال الأفران التي تنتشر في المدينة، في باب العامود وبـاب الـساهرة وباب حطة والمغاربة والنصارى وبني سعد وفي السوق الكبير والقطـانين

والطباخين وفرن القلعة هذا وبلغ عدد الخبازين خمسة وعشرين خبازاً عام ٩٦٣ هـ / ١٥٥٥م[٢٤]، ومن أنواع الخبز التي كانت تخبزه الأفران: خبز الكماج والطابوني، والتنوري والماوي الطيب والسميد الطيب والكشكار والسمون[٢٥].

الطوائف الخاصة باللحوم، وتشتمل على طائفتين اللحامين والسلاخين، طائفة اللحامين مسؤولة عن تأمين احتياجات المدينة من لحوم الأغنام والماعز والبقر والجمال، فتقوم بالذبح في المسلخ الواقع في حارة اليهود، لقد فرضت رقابة لمنع ذبح أناثي الأغنام طيلة أيام الأسبوع باستثناء يوم الخميس وذلك حفاظاً على الثروة الحيوانية ومن يخالف يدفع غرامة مالية[٢٦].

طوائف صناعة الأجبان والحلوانية والزلابانية والكنفاتية والسنوبسكية جميعها من الطوائف المتعلقة بصناعة الحلويات، فالحلوانية كانوا يصنعون الحلاوة الجوزية والدهنية التي تباع عند باب السلسلة[٢٧].

وطوائف الصناعات النسيجية والجلدية، والفرائين والآدمية، فالخياطين تخصصوا في صناعة الملابس بأنواعها، أما طائفة الصاغة وكان أكثرهم من اليهود والنصارى والآرمن وبعض المسلمين، وبلغ عددهم عام ٩٣٨ هـ / ١٥٣٠ م، ثمانية أعضاء يرأسهم شيخهم المعلم سليمان بن حنا النصراني[٢٨]. طائفة النجارين، كانت تؤمن الحاجة من الأدوات الخشبية أما طوائف الخدمات العامة، مثل: المشاعلية والمزينين والكناسين والزبالين، فواجب المشاعلية إضاءة القناديل في المساجد ليلاً[٢٩]، وطائفة المعمارية التي تقوم بعمليات البناء والترميم والتبليط، وكذلك طائفة الطبية والعاملون في مهنة الطب والجراحين والكحالين والبياطرة، فالأطباء كانوا يعالجون المرضى في البيمارستان الصلاحي[٣٠] ومن الطوائف عرفت طائفة التبادل التجاري وتتكون من الدلالين والسماسرة والصيارفة لتبديل العملة، وكذلك

طائفة القوافل التجارية وتشتمل على طائفتي المكاريه والعكامه، المكاريه لنقل المسافرين والبضائع على دوابهم من الجمال والبغال مقابل أجر، وكان معظمهم من النصارى الموارنة[٣١] أما العكامة فكانوا يرافقون المكاربه ويلازمون قوافلهم التجارية، ومهنتهم شد الحبال على الأحمال الموضوعة على ظهور الدواب[٣٢].

ومن الطوائف الحرفية، طائفة الفرحيات والقابلات وهذه من طوائف النساء، تقوم الأولى بإحياء الأفراح والغناء والضرب على الدفوف والمزاهر وأغلبهن قادمات من دمشق وحلب، أما الثانية فقد بلغ عددها في القدس عام ٩٦٣ هـ / ١٥٥٥ م، خمس ولادات مقدسيات[٣٣].

طائفة الصبانة، تهتم بصناعة وبيع الصابون وكانت توزع الصابون مجاناً على الفقراء بعد كل طبخة صابون، وارتبط العاملون فيها من تعبئة ومشبكين، ويوجد بالمدينة طوائف حرفية أخرى مثل: العطارين والشماعة والاقسماوية بائعوا المثلجات المحلاة بالزبيب، والقضمانية ومهمتها بيع القضامة، الذي بلغ عدد أفرادها في عام ٩٥٢ هـ / ١٥٤٥ م أربعة أشخاص[٣٤].

التجارة: لقد تولى الإشراف على عمليات التبادل التجاري في أسواق القدس شيخ سوق التجار أو بازار باشي وكان كتخدا (وكيل) التجار ينوب عن الشيخ في مهامه عند غيابه وتتلخص واجبات شيخ التجار في ضبط عمليات التبادل التجاري داخل أسواق المدينة وحصر شراء البضائع في الأماكن المخصصة لذلك وتوزيعها على التجار بإشراف شيخ التجار والمحتسب، من أهم صادرات القدس زيت الزيتون والصابون والقمح والفاكهة المجففة، أما أهم ما تستورده، الأرز الذي يستورد من مصر مقابل القمح، والأقمشة المصرية وخاصة الكتانية وتستورد العبي والأقمشة الصوفية المطرزة والقهوة من دمشق، والعبي الحجازية والعبي العراقية.

الوظائف المرتبطة بالأسواق:

١. المحتسب: وظيفة الحسبة في الإسلام مصدرها (أمر بمعروف إذا ظهر تركه ونهي عن منكر إذا ظهر فعله) ومن أوائل من كتب عن الحسبة والمحتسب العلامة علي بن محمد المارودي (توفي ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م) في كتابه الأحكام السلطانية والولايات الدينية ثم توالت المؤلفات عن الحسبة بعد ذلك، ويعتبر عبد الرحمن بن نصر الشيرزي (توفي ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م) الذي خصص كتاب عن الحسبة بعنوان: "نهاية الرتبة في طلب الحسبة" وذكر بأن للحسبة أصبح مسؤول عنها، وظهرت وظيفة المحتسب الذي أنيطت به مسؤولية الإشراف على الأسواق ومراقبة المكاييل والموازين ومنع الغش في البيع أو زيادة الأسعار أو تطفيف المكيال والميزان، وتسعير البضائع ومراقبة التقيد بتجارتها والحرص على إبقاء الأسواق والطرق نظيفة سالكة وضمان عدم تعدي أصحاب الحوانيت عليها، وللمحتسب في العهد العثماني دور في التنظيم الحرفي والمحافظة على نوعية السلع وبيعها في أسواقها المخصصة لذلك، ويقوم بالقبض على المخالفين وإحضارهم إلى المحكمة الشرعية لتسجيل مخالفاتهم في سجلات المحكمة وإيقاع الغرامة والعقاب على المخالفين[٣٥].

كان يعين المحتسب في القدس في القرن العاشر الهجري، السادس عشر الميلادي، عن طريق الالتزام بحيث تسند الوظيفة لمن يدفع أكثر من أصحاب الحرف الأثرياء، وأصبح ذلك تقليد لتولي منصب المحتسب، علماً بأن تلك الوظيفة كانت في العصور السابقة يتولاها العلماء ورجال الدين بترشيح من قاضي المدينة أو الوالي، وكان الصوباشي (رئيس الشرطة) وهو رئيس فرقة من الفرسان (السباهية)، يقوم بتضمين الحسبة[٣٦] لمن يدفع أعلى سعر الذي يعود إلى خزينة الدولة، أول محتسب في القدس ورد اسمه في

سجلات المحاكم الشرعية، المحتسب تاج الدين بن احمد السكري في ١٨ شعبان عام ٩٣٥ هـ، ١٥٢٩/٤/٢٦ م، هذا وقد يشترك أكثر من شخص في الحسبة، وقد يقوم المحتسب بتأجير بعض الوظائف لآخرين وبذلك كان يجني ربحاً من ذلك، ومن تلك الوظائف التي تدخل في عمل المحتسب، المناداة على البضائع (باج الصياح) في سوق التجار وسوق القطانين وسوق العطارين وسوق الحطابين وكان له رسم على كل دكان في هذه الأسواق وأيضاً الدلالة على البضائع، وباج اللحامين أو دمغة القصابين.

ومن وظائف[٣٧] الأسواق: البازارباشي، وهو المساعد للمحتسب، وظيفته الإشراف على بيع البضائع بموافقة المحتسب والسوقه ويصدر أمر تعيينه من القاضي، وذكرت السجلات مصطلح شيخ التجار، واللقب الذي يطلق على التجار الأقل مرتبة مصطلح (الخوجة). وظيفة الدفتردار وتعني حافظ الدفتر واصطلاحاً تعني الموظف رئيس الموارد المالية وعليه تقع مهمة تقديم تقرير سنوي عن الموازنة للقاضي[٣٨].

ارتبطت ناحية القدس مالياً بالدفتردار ولاية حلب منذ عام ٩٧٥ هـ / ١٥٦٧ م، وحتى نهاية عام ١٠١٠ هـ / ١٦٠١ م، ثم تبعت لدفتردار ولاية دمشق لرفع كفائة المكاتب[٣٩] وكانت الموارد المالية تأتي من عائدات الضرائب على الأراضي والمحاصيل الزراعية والحيوانية والأسواق التجارية والصناعات، كما كانت تفرض على أهل الذمة وحجاجهم، إضافة إلى الرسوم التي تتقاضاها المحاكم وضرائب الأسواق مثل: باج الصاع وتأخذ على الحبوب عند كيلها أو توزينها وأغلبها كانت جارية في أوقاف مسجد الصخرة المشرفة وباج البازار وهي ضرائب تجبى في سوق الدواب وضرائب القبان، وكان في القدس قبان للزيت في سوق خان الزيت وآخر للقطن يوجد في خان القطانين، وثالث في دار الوكالة ودار الخضر، وهناك عائدات من الصناعات وعائدات المعاصر وصناعة الصابون الذي كان يصدر إلى مصر عن طريق

ميناء غزة، وعن الطواحين التي تطحن الحبوب حيث كان يأخذ مال معلـوم عن كل حجر طاحون(٤٠).

النقود المتداولة في الأسواق:

١. **النقود الفضية العثمانية**: وكانت تعرف بالدراهم ومفردها درهم من أصل يوناني ومصدرها دراخمه ومعناها: وزن أو مثقال من الفـضة، وهـي المعتمدة من قبل الدولة، تستخدم بكافة المعاملات، عرف منها الـدراهم الفضية الحلبية التي كانت متداولة في لواء القدس منذ نهاية عهد المماليك وأوائل العهد العثماني عرفت بالحلبية لأنها كانت تضرب في حلب إضافة إلى القاهرة والاسكندرية ودمشق(٤١).

٢. **النقود الذهبية**: الدينار الأشرفي السلطاني: يعود تاريخ ضربه إلى عهـد السلطان المملوكي الاشرف برسباي (٨٢٥ هـ / ١٤٤١م) حيث بلغـت قيمته عام ١٥٣٨م إلى ٢٠٠ درهم حلبي.

الدينار السلطاني السليماني: نسبة إلى السلطان سليمان القانوني (٩٧٤ هـ / ١٥٦٦ م) وكان يضرب في القسطنطينية ودمشق، وتبلغ قيمتـه (٤) قطع فضة عثمانية أو (٨٠) قطعة فضة حلبية(٤٢).

الأسـواق: ورد موضـوع الـسوق فـي الموسـوعة الإسـلامية Encyclopdie del'islam في باب Suq، فذكرت أن مصدر كلمة سـوق suk – sug آرامي الأصل والكلمة تستخدم للإشارة إلى الموضع الذي يقام فيه السوق، والسوق موضع البضاعة والأمتعة، وتسمى بالسوق لأن التجارة تقام فيها وتساق نحوها البضائع للقيام بعمليات البيع والشراء(٤٣).

يعتبر السوق في العالم الإسلامي المركز التجاري الصناعي والحرفـي والمصرفي وهي تعادل المركز التجاري المتعدد الوظائف في العالم الغربي، والأسواق توجد في المدن وبعضها يوجد في أطراف العمران فلا تخلو مدينة

من سوق أو أكثر ووجودها في المدن دليل مادي على أهميتها ودورها الاقتصادي لأن المدن تستمد صفة مدينة من نشاط أسواقها، لأن كل حاضرة بالضرورة يجب أن تحتوي على سوقها الخاص بها وهذه بديهية منذ العصور القديمة، فالأسواق تكون في أغلب الأحيان في وسط الحاضرة، ويتأسس السوق وفق تصميم ومخطط معماري ملائم بحيث يحقق ويلبي الحاجات الاقتصادية المطلوبة منه، وأن التزام السوق بتحقيق غاياته وخدمة عامة الناس جعله بمنأى من التأثيرات الطارئة التي من الممكن أن تغير من خصوصيته.

والأسواق نوعان: منها الرئيسية، ومنها الفرعية، والتي تنتشر في الأحياء لتسهيل المعاملات اليومية، وتسمى سويقة أو ربعه ومن أنواعها ايضاً الأسواق الدائمة في المدن والحواضر والأسواق المؤقتة الموسمية والأسبوعية التي عادة تعقد في أطراف العمران.

إن أهمية القدس الشريف التاريخية والدينية وقدسية أماكنها جعلها مركزاً حضرياً وعمرانياً مأهولاً بالسكان، يؤمها الحجاج القادمون من بلدان العالمين الإسلامي والمسيحي الأمر الذي ساهم في نشوء وتطور أسواقها وتنوع خيراتها، فالأسواق المقدسية وبغض النظر عن توزعها المكاني والزماني تستمد مواردها من خيرات الناحية وعموم المناطق.

وقد وصفها المقدسي(٤٤) (توفي عام ٩٩٠م) أدق وصف في كتابه "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم": اجتمع في كوره بيت المقدس، ستة وثلاثون شيئاً لا تجتمع في غيرها، فالسبعة الأولى لا توجد إلا بها والسبعة الثانية عرفت في غيرها والاثنان والعشرون لا تجتمع إلا بها وقد يجتمع أكثرها في غيرها.

السبعة الأولى: منها قضم القريش "حب الصنوبر" والسفرجل والزبيب العينوني "نسبة إلى قرية بيت عينون من أعمال الخليل" والدوري "نسبة إلى

قرية دورا الخليل" وأجاص الكافوري والتين السبعي والدمشقي. أما السبعة الثانية: القلقاس والجميز والخرنوب والعناب والقلوب وقصب السكر والتفاح الشامي.

أما الاثنان والعشرون الباقية: منها التمور والزيتون والاكرج (الكباء) والنيله والراسن (العرعر) والنارنج (أبو صفير) واللقاح "نبات اصفر يشبه الباذنجان طيب الرائحة ينفع في علاج الجروح يكثر في برية أريحا، والنبق (ثمر السدر) والجوز واللوز والهليون (يستعمل في الطبابه والتغذية) والموز والسماق والتين والتمري والطري والقبيط (ناطف يستخرج من الخرنوب والخس) وذكر المقدسي بأنه كان يصدر الزيت والقطن والزبيب والخرنوب والمنسوجات القطنية والحريرية والصابون والفوط، وفي بيت المقدس ينتج ويصدر الجبن والقطن وتصنع فيها المرايا والقدرور والقناديل والأبر[٤٥].

الأسواق والخانات في القدس:

السوق والخان متلازمان من الناحية العمرانية والاقتصادية فمن حيث الموقع يكونان معاً، وكل سوق يحتوي على خان أو أكثر، ويؤديان وظائف متشابهة اقتصادية وتجارية وحرفية.

أسواق القدس عبارة عن شارع طويل تقع الدكاكين على جانبيه مسقوف بقناطر يتخللها فتحات للتهوية وإدخال الضوء وللسوق مدخلان كل واحد منها بباب يغلق ليلاً، وكل سوق تخصص بنوع معين من السلع التجارية[46]، ومن أشهر أسواق القدس:-

سوق باب حطه: تحتوي على أكبر وأعظم محلات مدينة القدس تقع شمال المسجد الأقصى، يليها من الشمال حراة المشارقة، وانتهاؤها إلى سور المدينة الشمالي.

وذكرت السجلات قائمة بالسلع التي كانت تباع في السوق: مثل السيرج

من المعصرة بالجرة، اللبن الطيب (يباع كل رطل بدرهم)، والأرز الذي يباع بالرطل، السمن الجاموسي، السمن الغنمي، الزيت، الطحينة، الدبس المليح والدبس الوطني، العسل الساحلي والعسل البلدي، الجبن الطري، الزبيب الطيب، الفستق والبندق، اللوز بقشره، الكعك الناعم واليابس، الجبن الجاموسي، الحليب من الرمله، الكنافة اللبنانية والكنافة المخروطه، السميد من الطاحون والسميد من العلب، الخبز والخبز الماوي والكماج، الصابون الطيب والصابون الأخضر[47].

سوق القطانين[48]: تعود التسمية إلى تجارة القطن الرائجة في السوق، تفيد اللوحة المكتوبة في أعلى مدخل السوق بأنه رمم عام ١٣٣٥م على يد السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون، وصوفه العمري ابن فضل عام ١٤٤٧م في كتابه "مسالك الأبصار في ممالك الأنصار"، ويعتبر من أقدم الذين ذكروا السوق، ذكر: من أبواب السوق نصل إلى القيسارية الذي شيدت مؤخراً وهي عبارة عن مخازن منها ما هو موقوف على الحرم، ومنها لصالح المدارس.

وكذلك وصف السوق مجير الدين الحنبلي في كتابه "الأنس الجليل" عام ١٤٩٦م، "بأنه غاية بالارتفاع والاتقان، وذكر معلومات عن الأسواق الثلاثة المجاورة لسوق القطانين بأن أحدهما يقع بالقرب من المحراب (باب الخليل) وهي من بناء الروم، والأول من هذه الأسواق يقع إلى الغرب من سوق القطانين وهو وقف الملك صلاح الدين، ٥٣٢ هـ - ٥٨٩ هـ/ ١١٣٨م- ١١٩٣م، على المدرسة الصلاحية، والسوق الذي يليه السوق الوسط الواقع للشمال وخصص لبيع الأقمشة وهما وقف على مصالح المسجد الأقصى.

يبلغ طول سوق القطانين الممتد من الشرق إلى الغرب والذي تعلوه السقوف المقنطرة مائة متر، وعرضه عشرة أمتار ويقع على جانبيه حوانيت

مخصصة لبيع الأقمشة القطنية والحريرية التي تجلبها القوافل من الهند عن طريق البصرة وبغداد والموصل[49].

والسوق الذي يليه أي السوق الأوسط الواقع للشمال خصص أيضاً لبيع الأقمشة وهو وقف على مصالح المسجد الأقصى[50].

سوق الزيت: يبدأ من باب العامود وينتهي بالقرب من كنيسة القيامة يليه سوق العطارين، وسوق الزيت من أنشط المراكز التجارية في القدس، يباع فيه الزيت القادم من أماكن إنتاجه من معامر قرى النامية ومزارعها، كان يحمل على الدواب في أوعية تسمى (ظروف الزيت)، وفي السوق يوزن بوعاء يعرف (بطاسة الزيت) ويوجد في السوق قبان تحميل ظرائب الزيت.

سوق الطباخين: يتكون من شارع طويل تقع على جانبيه الدكاكين المسقوفة بقناطر يتخللها فتحات وله مدخلان يغلقان بالأبواب، والسوق يقع في المنطقة الممتدة من قنطرة الجبيلي إلى درج الحرافيش[51]، وذكرت السجلات عن بناء ثلاث حوانيت بالسوق، توجد في السوق طائفة الخبازين، لقد بلغ عدد الخبازين في القدس عام ٩٦٣هـ - ١٥٥٥م خمسة عشر خبازاً.

سوق الصاغة: يقع على أحد الخطوط المتفرعة عن أعظم شارع في المدينة آنذاك والمعروف بخط داوود وكان السوق يمتد من باب المسجد الأقصى إلى دار القران السلامية الواقعة على الخط عند باب الدويداريه[52]، توجد في السوق طائفة الصاغة التي اختصت بصناعة الذهب والفضة.

سوق المربعه[53]: تقع في خط شارع المربعه الذي يجاور حاره مرزبان من جهة الغرب، وتوجد في السوق طائفة الخياطين والفرائين والادمية أي الجلد الطري المدبوغ والمستخدم في سروج الخيل.

سوق المحارم[54]، ويعرف بسوق القماش، والسوق كائن عند خط المربعه ومجاور لحاره مرزبان من جهة الغرب.

سوق الدخان[55]: ويعرف بالدخانية، والسوق قريب من حارة اليهود.

سوق الفخر[56]: كان يعرف بسوق الزيت يقع داخل المدينة غرب عقبة الست ويبدأ من باب العمود وينتهي وسط المدينة قرب كنيسة القيامة عند بداية سوق العطارين[57]، بناه القاضي فخر الدين قائد عام جيش المماليك وهو صاحب المدرسة الفخرية توفي عام ١٣٢هـ[58]، يحتوي السوق على مصبنتان، مصبنة ابن شروين ومصبنة الميرانية.

سوق التجار[59]: يعتبر من الأسواق الرئيسة في القدس، تباع فيه الأقمشة والأجواخ، يقع غرب خان السلطان ويعرف بدار الوكالة.

سوق الخضر[60]: سوق مخصص لبيع الخضار والفاكهة، يلي سوق القماش ومجاور لحارة مرزبان من جهة الغرب، والسوق من أوقاف قبة الصخرة المشرفة[61]، يوجد في السوق قبان دار الخضر ويهدف تحميل رسوم القبان فرض القانون بأن لا يحق لأي تاجر بيع وشراء بضاعته خارج وكالة الخضر، يحتوي السوق على أربعين حانوت.

سوق العطارين[62]: يبدأ من باب العمود وينتهي بالقرب من كنيسة القيامة كان بالسوق مصابن يصنع فيها الصابون ويقع عند نهاية سوق الدباغة[63].

سوق القمر: يتوسطه خان القمر، السوق والخان من أوقاف قبة الصخرة المشرفة[64].

سوق الحصر: السوق يحتوي على خان الشعاره المختص ببيع شعر الماعز وصوف الأغنام[65].

من أسواق القدس التي ذكرتها سجلات المحاكم الشرعية:

سوق الصرف: ويرجح وجود دكاكين الصرافة فيه[٦٦]، وسوق القشاش توجد فيه صناعة الجلود المدبوغة مثل: السرايجية والبوابيجية والنعال والأحذية[٦٧].

وسوق الطحانين[٦٨]، وسوق السلطان متخصص ببيع الحبـوب والغـلال[٦٩] وسوق الدواب الذي تباع وتشترى فيه الخيول والحمير[٧٠].

الأسواق الفرعية: إضافة إلى الأسواق الرئيسية التي ذكرت سابقاً تنتشر في الأحياء الأسواق الفرعية والتي تسمى **سويقه أو ربعه**[٧١]، وذلـك لتـسهيل المعاملات اليومية، وذكرت سجلات المحاكم الشرعية عدداً منها:

سويقه باب العامود[٧٢]، **سويقه باب حطه**[٧٣]، **سويقه حارة النـصارى**[٧٤]، **سويقه حارة اليهود**[٧٥]، **وسويقه حارة المغاربة**[٧٦].

– **الخانات**: كلمة خان أصلها آرامي، استخدمت في اللغة الفارسـية بمعنـى مبنى الاستراحة التي تأسست داخل المدن أو على طرق المواصلات، وتعني بالتركية دار العمل والتجارة[٧٧]، يطلق عليها ايضاً تسمية وكالة وقيـساريه ومؤخراً فندق، ويتميز الخان من الناحية المعمارية بأن له هيئة خاصـة بـه تتلائم ووظائفه من إيواء التجار وحيث يتكون البناء من طابقين؛ طابق علوي وآخر أرضي، العلوي مخصص لمبيت التجار والنزلاء، والأرضي مخصص لخزن البضائع وعرضها للبيع وإيواء الدواب في حـضيرة ملحقـة بالبنـاء تتوسطه باحة تفتح بباب واسع على السوق يلي البـاب درج مـن اليمـين واليسار تؤدي للطابق العلوي، وهذا المخطط المعماري بديهية في تـصميم الخانات.

يوجد نوعان من الخانات من حيث موقعها: النوع الأول الخانات التي أنشئت داخل القصبات والمدن، والنوع الثاني خانات الطرق نفذت لاستيعاب وحماية قوافل التجار والحجاج. لكن الخانات وعلى خلاف أنواعها تقوم بنفس الوظائف من إيواء واستقبال المسافرين التجار والحجاج، لكن الخانات التـي تقع داخل القصبات والمدن تقوم بوظائف اقتصادية متعددة تجارية وحرفيـة، وتستمد نشاطها من نشاط التجارة في أسواقها المتصلة بالخانات – عرف من خانات الطرق في ناحية بيت المقدس: خان المنيه، الخان الأحمـر، وخـان يونس[٧٨].

من أشهر الخانات في بيت المقدس:

- **خان القطانين:** ويعرف أيضاً باسم خان المؤيد لن من أوقاف الملك المؤيد شهاب الدين ٨٦٥هـ، وأطلق عليه دار الوكالة[٧٩]، يقع في سوق القطانين، يتكون من طابقين تتوسطه باحة داخلية تحيط بها في المستويين الغرف والحجرات المختلفة الأحجام سقوفها معقودة، والخان يحتوي على غرف للحرفيين ومخازن تجارية[٨٠].
- **خان السلطان:** يقع على الجانب الشرقي من طريق باب السلسلة والخان مبنى مربع الشكل يستخدم كمخازن وغرف إيواء التجار والمسافرين الحجاج، ذكره مجير الدين الحنبلي في كتابه "الأنس الجليل"، بأنه مبنى واسع، والخان من أوقاف الحرم القدسي، والخان قريب من سوق الخوجات (ويعرف أيضاً بسوق التجار الذي يقع غرب الخان وقريب من سوق الباشورة فهو بذلك يقع في الوسط التجاري والخان مخصص لبيع القماش والبضائع غالية الثمن[٨١].
- **خان الغادريه:** نسبة إلى أسرة الغادرية المملوكية يتصل الخان بالمدرسة الغادرية التي بنتها (مصر خاتون) زوجة الأمير ناصر الدين محمد الغادر عام ٨٣٦هـ/ ١٤٣٢م، الخان أوفق على المدرسة وعلى الروم الأتراك القاطنين بالقدس، يقع الخان في الرواق الشمالي للحرم القدسي من ناحية باب حطة وباب الأسباط، وبذلك يقع الخان في أقصى الشرق من سوق القطانين، يشتمل على حجرات ومخازن علوية وأرضية وعلى باحة تحتوي على خزان ماء، وفتح ستة حوانيت في واجهة الخان[٨٢].
- **خان تنكز (خان أو توزبير):** وتعنى بالتركية (الواحد والثلاثين) يقع في وسط سوق القطانين في الجهة الجنوبية للسوق، بناه الأمير تنكز أبو السعيد الناصري نائب الشام عندما بنى سوق القطانين في عام ٧٣٧هـ،

١٣٢٨م، والخان وقف على المدرسة والخانقاه[٨٣] التنكزية[٨٤].

يتكون البناء من طابقين تتوسطه باحه، ويحتوي على غرف وحجرات مختلفة الأحجام وعلى مطحنة قمح ومشاغل حرفية[٨٥].

- **خان الفحم وخان الشعاره:** يشير مجير الدين الحنبلي في كتابه "الأنس الجليل" إلى أقسام طريق باب السلسلة وأسماء الأسواق التي كانت تؤلف معاً الطريق، ويذكر: من باب المسجد إلى دار القرآن السلامية يعرف بسوق الصاغة ومن باب السلاميه إلى باب حارة الشرف يعرف بسوق القشاش ومن سوق القشاش إلى خان الفحم يعرف بسوق المبيضين، وخان الفحم موقوف على المسجد الأقصى، يتكون من طابقين تحتوي على مخازن علوية وأرضية تفتح على باحة تتوسط الخان.

أما خان الشعاره، يقع على بعد حوالي أربعين متر من مدخل سوق الحصر الشمالي وتمتد واجهة الخان حوالي ثلاثين متراً تتخللها أبواب المخازن ذات الأقواس، يتكون الخان من طابقين ويتوسطه باحه، تتوزع المخازن حولها في الطابق العلوي والأرضيي. عرف بالشعاره لأنه كان مخصص لتجارة شعر الماعز وصوف الأغنام[٨٦].

الخاتمة:

ألقت الدراسة الأضواء على أسواق بيت المقدس هذا الموضوع الذي بقي غائباً إلى حد ما عن مساهمات الدارسين للتاريخ الاقتصادي والعمراني إلا بما ندر، لقد استمدت الدراسة معلوماتها من سجلات المحاكم الشرعية في بيت المقدس، فالسجلات معين لا ينضب من المعلومات، وتأكدت أهميتها في دراسة مجالات متعددة من التاريخ الحضاري، واعتمدت الدراسة أيضاً على مؤلفات الأدب الجغرافي والدراسات التاريخية المنشورة الخاصة بالقدس.

لقد أظهرت الدراسة أهمية بيت المقدس التاريخية والاقتصادية

والعمرانية، حيث تعززت مكانتها من نشاط أسواقها وملحقاتها من الخانات التي تعتبر من أهم الصروح والممتلكات الثقافية المادية.

وعرضت الدراسة للحياة الاقتصادية في بيت المقدس في القرن العاشر الهجري، السادس عشر الميلادي وعددت مصادر الثروة التاريخية عن عائد مؤسسات الوقف والتي من أهمها جدوى ودخلاً للوقف مؤسسة السوق والخان الحاضرة بأعداد هامة وبفاعلية ونشاط اقتصادي في أحياء بيت المقدس، وكذلك من عائدات الأراضي الزراعية والصناعات الحرفية القائمة على منتجات ناحية بيت المقدس، كصناعة الصابون والمنسوجات والجلود والمواد الغذائية والمعاصر.

وتناولت الدراسة الطوائف الحرفية وتنظيمها الإداري والإنتاجي وتواجدها في الأسواق والوظائف المرتبطة بالأسواق كوظيفة المحتسب المشرف على الأسواق والبازارباشي المشرف على البضائع ومعاملات البيع والشراء.

وعرضت الدراسة لأسواق القدس وأنواعها (الأسواق الرئيسية والفرعية) وأشهرها وتخصصها في بيع بضائع ومواد معينة كالزيت والقطن والحبوب والخضراوات، وكذلك عرضت للخان وأنواعها من الناحية المعمارية والاقتصادية والوظيفية، تلك الخانات الملحقة بالأسواق وتبين بأن كل سوق رئيس ملحق به خان أو أكثر مثل: سوق القطانين وخان القطانين والخان كالسوق تخصص في التعامل بضائع ومواد معينة، مثل: خان القطانين، وخان الفحم وخان الخضر.

هذا وتعتبر الدراسة مساهمة في كتابه مدونة تراث بيت المقدس التاريخي والحضاري العربي والإسلامي.

الهوامش :

(١) سجلات محكمة القدس الشرعية: محفوظة في خزائن حديدية في دائرة الأوقاف بباب الساهرة في القدس، يوجد عنها نسخة ميكروفيلم في كل من مركز الوثائق والمخطوطات وقاعة المصغرات في مكتبة الجامعة الأردنية في عمان، والسجلات في حالة جيدة، فهرست الوثائق التي تعود للقرن العاشر الهجري، السادس عشر ميلادي في مجلدين عام ٢٠٠٨ و ٢٠٠٩ تحت عنوان: فهرسة تحليلية لقيود الوثائق والحجج الشرعية الصادرة من محكمة القدس الشرعية، بإشراف الدكتور محمد عدنان البخيت وإعداد عبلة سعيد المهدي (موجودة في مركز الوثائق والمخطوطات – مكتبة الجامعة الأردنية).

(٢) محمد عدنان البخيت، نوفان رجا السواريه: دفتر طابو لواء القدس: ٩٣٢هـ/١٥٢٥م – ٩٣٨هـ/ ١٥٣٢م دراسة تحليلية للنص العثماني وترجمته إلى العربية مع شروحات إيضاحية – الجامعة الأردنية – عمان ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

(٣) السنجق: تعني العلم والراية، أمير اللواء يسمى السنجق بك وهو رأس الهرم الإداري في اللواء، ويتم تعيينه من بين العناصر العثمانية الرومية لمدة عام قابلة للتجديد (يعقوب، ط ٤، ص ٢٠٦).

(٤) مجير الدين العليمي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، جزءان، مكتبة المحتسب، عمان – الأردن، ١٩٧٣، ج٢، ص: ١١ ، ٦٥.

(٥) المصدر نفسه، ج٢، ص: ٣١٤-٣١٥.

(٦) محمد احمد سليم اليعقوب: ناحية القدس الشريف، في القرن العاشر هجري، السادس عشر ميلادي، منشورات البنك الأهلي الأردني، عمان ١٩٩٩، ج١، ص ١٠٣، يشار له لاحقاً: اليعقوب، محمد، ناحية القدس الشريف.

(٧) أمير اللواء: يلقب بسنجق بك، أمير اللواء وهو رأس الهرم الإداري في اللواء، كان يعين بفرمان من الاستانة، ويتلقى الأوامر من والي دمشق، وكان يمنح إقطاعاً خاصاً. (اليعقوب، محمد، ناحية القدس الشريف، ج١، ص ٢٠٦).

(٨) الزعامت: من الجنود السباهية أي الخيالة الذين منحو اقتطاعات في الريف، والزعماء الذين يمنحون إقطاعا حسب زعامته ومهمته جمع الدخل من القرى والمزارع. (اليعقوب، محمد، ناحية القدس الشريف، ج١، ص ٢٢٣)

(٩) التيمار: من الجنود الخيالة الذي يحفظ الأمن في القرى مقابل حصوله على إقطاع بموجب براءة يحصل عليها من الوالي.

(انظر: عبد الكريم غرايبة، العرب والأتراك، مطبعة جامعة دمشق، دمشق، ١٩٦١، ص ٢٧٩).

(١٠) الوقف: حبس أرض أو عقار (مال غير منقول) (من غير المنقول) وصرف ريعه على وجه خير، فالأراضي والأسواق تعتبر من أهم المصادر الاقتصادية التي يدر دخلاً يصرف لصالح مؤسسة دينية - اجتماعية لذوي منفعة عامة (كالمساجد والمدارس والمستشفيات والمناسبات من الأسواق والخانات الموقوفة في القدس: خان الزيت وحوانيت سوق الدباغة التي أوقفها صلاح الدين الأيوبي (٥٨٩هـ - ١١٩٣م) لصالح الخانقاه والمدرسة الصلاحية، ومن أوقاف القرن الخامس الهجري والقرن الحادي عشر الميلادي (وقف خان في سوق القطانين بالقدس لصالح المدرسة القادرية وأسواق العطارين وخان باب حفه في القدس لصالح مدرسة السلطان الملك الناصرين أيوب (٥٨٨هـ) انظر: وهبه الزحيلي، الوصايا والوقف الإسلامي (ط١) دار الفكر، دمشق، ١٩٨٦.

(١١) اليعقوب، محمد، ناحية القدس الشريف، ج١، ص ١١٠.

(١٢) سجل (١٠)، حجة (٢)، ١٢ ربيع الأول ٩٤٥هـ / ١٥٣٨م، ص ٤٧.

(١٣) سجل (٥٣)، حجة (٢)، ١٢ ربيع الأول ٩٧٨هـ / ١٥٧٠مـ ص ٤٣٨.

(١٤) اليعقوب، محمد، ناحية القدس الشريف، ج١، ص ١١١.

(١٥) سجل (١)، حجة (١)، ١٢ ربيع الثاني ٩٣٧ هـ / ١٥٣٠ م.

(١٦) سجل (٥٤)، حجة (٣)، ٢٧ شوال ٩٧٨ هـ / ١٥٧٠ م، ص ٢٩.

(١٧) سجل (٣١)، حجة (١)، ٢ رمضان ٩٦٣ هـ، ١٥٥٥ م، ص ٤٥٠.

(١٨) سحل (٥٤)، حجة (١)، ١١ ذو القعدة ٩٧٨ هـ / ١٥٧٠ م، ص ١٢٥.

(١٩) سجل (٤٥)، حجة (٢)، ١٠ محرم ٩٧٢ هـ / ١٥٦٤ م، ص ٣٤٩.

(٢٠) سجل (٢)، حجة (٢)، ٢٦ رجب ٩٣٩ هـ / ١٥٣٢ م، ص ٤١٠.

(٢١) اليعقوب، محمد، ناحية القدس الشريف، ج١، ص ١١٦.

(٢٢) حول وظيفة المحتسب في القدس، انظر: د. خضر سلامة المحتسب في القدس في القرن السادس عشر الميلادي، المؤتمر الدولي التاسع لتاريخ بلاد الشام، ١-٥ نيسان ٢٠١٢، االجامعة الأردنية – عمان.

(٢٣) سجل (٢١)، حجة (٣)، (٤)، ٣٠ ربيع الأول ٩٦٣ هـ / ١٥٥٥ م، ص ١٨٧.

(٢٤) اليعقوب، محمد، ناحية القدس الشريف، ج١، ص ١٢١.

(٢٥) سجل (٣١)، حجة (٤)، ٣ جمادى الأول ٩٦٣ هـ / ١٥٥٥ م، ص ١٩١.

(٢٦) نفس المصدر، ص ١٢٢.

(٢٧) نفس المصدر، ص ١٢٣.

(٢٨) سجل (١)، حجة (٦)، ١٨ رجب ٩٣٩ هـ / ١٥٣٢ م، ص ١٠٦.

(٢٩) نفس المصدر، ص ١٢٥.

(٣٠) نفس المصدر، ص ١٢٦.

(٣١) سجل ١١، حجة (٦)، ١٨ رجب ٩٣٩ هـ / ١٥٣٢م، ص ١٠٦.

(٣٢) نفس المصدر، ص ١٢٩.

(٣٣) اليعقوب، محمد، ناحية القدس الشريف، ج١، ص ١٢٩.

(٣٤) سجل (١٧)، حجة (٤)، ١٢ شوال ٩٥٢ هـ / ١٥٤٥ م، ص ٢٧٠.

(٣٥) (١) انظر: د. خضر سلامة، ذكر سابقاً، ص ٣.

(٣٦) انظر: د. خضر سلامة، ذكر سابقاً، ص ٣.

انظر ايضاً: الصوباشي، وظيفة عثمانية تعني رئيس فرقة الفرسان وعرفوا بالسباهية، وهو بمثابة قائد شرطة المدينة في العصر الحالي. (محمد احمد دهمان، معجم المصطلحات التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر المعاصر – بيروت ١٩٩٠، ص ١٠٣).

(٣٧) بازار بمعنى السوق، باشي أي الذي يتولى الإشراف على العمليات التجارية في أسواق القدس، والخوجه لفظ فارسي معناها المعلم أو التاجر أو السيد. (د. خضر سلامه، المحتسب في القدس – ذكر سابقا، ص ١٥).

(٣٨) الدفتر دار: تعنى حافظ الدفتر، واصطلاحاً تعنى الموظف رئيس الموارد المالية

الذي يقدم تقريراً سنوياً عن الموازنة للجهات المسؤولة. (انظر: اليعقوب، محمد، ج١، ص ١٣٣).

(٣٩) اليعقوب، محمد، ناحية القدس الشريف، ج١، ص ٣٣.

(٤٠) نفس المصدر، ص ١٣٤، ١٤١.

(٤١) محمد عدنان البخيت، إعداد عبلة سعيد المهدي، سجل محكمة القدس الرعية، رقم (١) فهرسة وتحليل قيود الوثائق والحجج الشرعية الصادرة عن محكمة القدس الشريف الشرعية – ٢٣ شوال ٩٣٧ هـ/ ١٥٣٠/٦/٩، مركز الوثائق والمخطوطات – الجامعة الأردنية – عمان، ٢٠٠٨، ص ١٤.

(٤٢) فس المصدر، ص ١٤.

(٤٣) د. عبد العزيز محمود، الخانات والأسواق في فلسطين، عرض تاريخي اقتصادي عمراني , مجلة البيان المجلد الثاني العدد الاول (١٩٩٩) جامعة ال البيت

انظر ايضاً:

WIRTH. Eugen: Zum problem Bazar (sug – carzi) dan Der Islam N:51 (1974) PP. 260-303, N: 52 (1975) PP. 6-46.

(٤٤) المقدسي أبو عبد الله محمد بن احمد بن أبي بكر البناء: احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط٢، مطبعة بريل ليدن، ١٩٠٦، ص ١٩٨.

(٤٥) د. عبد العزيز محمود: الخانات والأسواق في فلسطين ذكر سابقا , ص ١٩٦

انظر ايضا : سجل محكمة القدس الشرعية – ذكر سابقا – القسم الأول (٢٠٠٨)، ص ٢٠٤.

حول المخطط المعماري للسوق، مثال سوق القطانين، انظر:

Golvin, L. Quelgue notes sur sugal – Qattanin etses annexes, Jerusalem, BEO, tomxx (1967), pp.101-117.

(٤٦) سجل محكمة القدس الشرعية، القسم الأول، ص ١٢٢: رقم الحجه ٧٢٥/ ١٧٨، بتاريخ ١٠ جمادى الأولى ٩٣١ هـ – ١٥٣٠/١٢/٣٠م. انظر: مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ذكر سابقاً، ج٢، ص ٥٤ –٥٥.

(٤٧) سجل محكمة القدس الشرعية، القسم الثاني، ص ١٢٢، حجه ٧٣٠ هـ/١٧٩، بتاريخ ١٠ جمادى الأولى ٩٣٧ هـ – ١٥٣٠/١٢/٣٠ م.

(٤٨) نفس المصدر، ص ٣٩، حجة رقم ٢٥/٥ بتاريخ مستهل ذو القعدة ٩٣٦ هـ ، ١٥٣٠/٧/٣ م، انظر ايضاً: نفس المصدر، ص ٢٢٣، سجل ٣١، ج ٤، ١٣/محرم/٩٦٣هـ، ١٥٥٥م.

(49) GOLVIN,L: Quelque notes sursuq a (Qattaninetses Annexes, jersulem BEO.tom, xx(1967). PP. 101-117. .

(٥٠) د. عبد العزيز محمود، الخانات والأسواق في القدس، ذكر سابقاً، ص ٥١.

(٥١) مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليلي، ذكر سابقاً، ج ٢، ص ١٠٢.

(٥٢) نفس المصدر، ص ٢٠٤، حجه ٤٠١ /١٠٦، بتاريخ ٢٢ جمادى الآخر ٩٣٩ هـ - ١٥٣٣/٢/٣ م.

(٥٣) نفس المصدر ، ص ٣٧٠، حجه ٤٣٠ /١١٢، بتاريخ ١٢ رجب ٩٣٩ هـ - ١٥٣٣/٢/٧ م.

(٥٤) نفس المصدر ، ص ٣٨٣، حجه ١١٧/٤٥٠، بتاريخ ١٣ رجب، ٩٣٩ هـ - ١٥٣٣/٢٨ م.

(٥٥) انظر ايضا: مجيد الدين الحنبلي، الأنس الجليلي، ذكر سابقا، ج ٢ ص ٤٥.

(٥٦) نفس المصدر ، ص ١٦٧، حجه ٧٤٣ /١٨٨، بتاريخ ١٨ جمادى الأولى ٩٣٧ هـ - ١٥٣١/١/٩ م.

انظر ايضاً: اليعقوب، ذكر سابقاً، ج ٢، ص ٤٩٤.

(٥٧) نفس المصدر ، ص ١٢٧.

انظر ايضاً: مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليلي. ذكر سابقاً، ج ٢، ص ٤٥٤.

(٥٨) كامل العسلي، من آثارنا في بيت المقدس.

(٥٩) نفس المصدر ، ص ٢٥٢، حجه ٨٢١ /٢٠٥، بتاريخ ٨ جمادى الآخر ٩٣٧ هـ - ١٥٣١/١/٢٧ م، انظر ايضاً: اليعقوب، محمد، ذكر سابقاً، ج١، ص ١١٤.

(٦٠) نفس المصدر ، ص ٣٢٦، حجه ٢٢١/٨٩١، بتاريخ ١٣شعبان ٩٣٧ هـ - ١٥٣١/٤/١ م.

انظر ايضاً: دفتر طابو لواء القدس، ذكر سابقاً، ص ١٣١.

(٦١) نفس المصدر، ص ٤٧٢، حجه ١٠٢٨/٢٥٥، بتاريخ ١٥/ رمضان/ ٩٣٧ هـ، ١٥٣١/٥/٣٠م.

انظر ايضاً: مجير الدين الحنبلي، ذكر سابقاً، ج ٢، ص ١٠٧.

(٦٢) دفتر طابو لواء القدس، ذكر سابقاً، ص ١١٤، ايضاً: سجل المحكمة الشرعية، رقم ٥١، ج ٢، ص ٣٧٥، مستهل محرم / ٩٣٨هـ/ ١٥٣١م.

(٦٣) كامل العسلي، من آثارنا في بيت المقدس، ذكر سابقاً، ص ١٨١.

(٦٤) دفتر طابو لواء القدس، ذكر سابقاً، ص ١٣٣.

(٦٥) نفس المصدر، ص ٣٠٠، انظر ايضاً: كامل العسلي، من آثارنا في بيت المقدس، ذكر سابقاً، ص ٧٨.

(٦٦) نفس المصدر، ص ٧٩.

(٦٧) سجل ٨٣، ج ١٨، ص ١٥٨، ١٤/رجب/١٠١٠هـ - ١٦٠١م.

(٦٨) سجل ٥٤، ج ١، ص ١٥، ١١/ربيع الأول/ ٩٧٨هـ، ١٥٧٠م..

(٦٩) سجل ١، ج ٣، ص ٩٢، ٢٠/ جمادى الثاني/ ٩٣٦هـ، ١٥٢٩م.

(٧٠) سجل ١٧، ج ٥، ص ٣٠٤، ٧/ رمضان/ ٩٥٢هـ، ١٥٤٥م.

(٧١) سجل ١٠، ج ٢، ص ٤٢٩، ١٦/رمضان/ ٩٤٥هـ، ١٥٣٨م.

(٧٢) حول الأسواق: انظر:

Rumond. A. et WIET, G: Les marches da cair Annotee de Text de Magrizi (F.F.A.O) du cair, 1979.

(٧٣) سجل ١٧، ج٣، ص ٤١٥، ١/ذو القعدة/ ٩٥٢هـ - ١٥٤م.

(٧٤) سجل ٥٣، ج ٦، ص ٥٩٦، ٢٧/رجب/٩٧٨هـ - ١٥٧٠م.

(٧٥) سجل ٢، ج٤، ص ٢٧٦، ١١/ربيع الأول/٩٣٩هـ - ١٥٣٢م.

(٧٦) سجل ٦٤، ج١، ص ٥١٩، ٢٧/ شوال/ ٩٩٣هـ - ١٥٨٥م.

(٧٧) سجل ١٠، ج ٣، ص ٣٩١، ٢٧/رمضان/ ٩٤٥هـ - ١٥٣٨م.

(٧٨) رفعت موسى محمد: الوكالات والبيوت الإسلامية في مصر العثمانية، ط١، الدار

المصرية اللبنانية، القاهرة ١٩٩٣م،

انظر ايضاً: Encyclopedie de l'Islame, Artecl – khan، ويطلق على الخان باللغة الفرنسية Caravanserails,،

لقد درست الخانات من قبل المؤرخ المعماري :

Sauvaget, Jean: les caravanserials syrienne du moyen Age. Dans: Art Islamic (1937). Pp: 46-55.

(٧٩) د. عبد العزيز محمود، ذكر سابقاً، ص ١٨٥، ١٨٦، ١٩٢.

(٨٠) مصطلح الوكالة عرف في مصر، ودار الوكالة مخصصة للأعمال التجارية وإيواء التجار والمسافرين، والوكالة من وكيل الذي يتولى خدمة التجار وتأمين وخزن بضائعهم أو بيعها، مقابل أجر الخدمة، والوكالة مركز جباية الضرائب ورسم القبان المفروض على البضائع حسب النوع والوزن (انظر: كامل جميل العسلي، من آثارنا في بيت المقدس، ذكر سابقاً، ص ٤).

(٨١) كامل العسلي، من آثارنا في بت المقدس، ذكر سابقاً، ص ٧٥، لقد وصف الخان والسوق من قبل: VAN, BERCHEM, M: Materianx Pouruncorpus inscripioum arebicarum. Jerusalme (Ville) le Cair, 1922, p266

(٨٢) كامل العسلي ذكر سابقا، ص ٥٤-٥٠.

(٨٣) نفس المصدر، ص ٦١.

(٨٤) الخانقاه: كلمة فارسية الأصل وتعنى الأماكن التي يشغلها الدراويشي والمتصوفة. (انظر: اليعقوب، محمد، ناحية القدس الشريف، ذكر سابقاً، ج٢، ص ٣٤٧).

(٨٥) كامل العسلي ، ذكر سابقاً، ص ١١٩.

(٨٦) VAN BERCHEM, M: ذكر سابقاً P: 266

(٨٧) كامل جميل العسلي، من آثارنا في بيت المقدس، ذكر سابقاً، ص ٧٩.

قائمة المصادر

١ - البخيت محمد عدنان : فهرسة تحليلية لقيود الوثائق و الحجج الشرعية الصادرة عن محكمة القدس الشرعية ، اعداد عبله سعيد المهدي – مكتبة الجامعة الاردنية ، ٢٠٠٨ .

٢ - البخيت ، محمد عدنان . السوارية ، نوفان رجا : دفتر طابو لواء القدس ، ٩٣٢ هج – ١٥٢٥ م ، ٩٣٨ هج – ١٥٣٨ م دراسة تحليلة للنص العثماني و ترجمة للعربية ، الجامعة الاردنية ، عمان ٢٠٠٧ .

٣- دهمان ، محمد ، احمد : معجب المصطلحات التاريخية في العصر المملوكي دار الفكر المعاصر ، بيروت ، ١٩٩٠م .

٤- رفعت ، موسى ، محمد : الوكالات و البيوت الإسلامية في العصر العثماني ، الدار المصرية اللبنانية – القاهرة ، ١٩٩٣م

٥- الزحيلي، وهبه ، الوصايا و الوقف الإسلامي ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٨٦ م .

٦- سجلات محكمة القدس الشرعية ، النسخة الأصلية محفوظة في دائرة الأوقاف في باب الساهرة بالقدس ، يوجد عنها نسخة في مركز الوثائق و المخطوطات بالجامعة الأردنية – مفهرسة و منشورة . في مجلدين عام ٢٠٠٨ ، ٢٠٠٩

٧- سلامة ، خضر ، المحتسب في القدس في القرن السادس عشر ميلادي ، المؤتمر الدولي التاسع لتاريخ بلاد الشام ، ١-٢ نيسان ٢٠٠٦ ، الجامعة الأردنية – عمان

٨- عبد العزيز محمود : الخانات و الأسواق في فلسطين ، عرض تاريخي اقتصادي عمراني ، مجلة البيان ، المجلد الثاني العدد الأول ، (١٤١٩ هج – ١٩٩٩ م) جامعة آل البيت – الأردن

٩- العسلي ، كامل ، جميل : من أثارنا في بيت المقدس ، جمعيـــة عمـــال المطابع التعاونية ، عمان ، ١٩٨٢ م .

١٠- مجير الدين الحنبلي ، العليمي : الأنس الجليل بتاريخ القدس و الخليل ، مكتبة المحتسب عمان ١٩٧٣ م

١١- غرايبه ،عبد الكريم : العرب و الأتراك ، مطبعه جامعـــة دمـــشق – دمشق ١٩٦١ .

١٢- اليعقوب ، محمد احمد : ناحية القدس الشريف فـــي القـــرن العاشـــر الهجري ، السادس عشر الميلادي ، منشورات البنك الأهلي الأردنـــي – عمان ١٩٩٩ م .

المصادر الاجنبية :

- Rumond , A . Wiet , G : les marches de caire a notee de Text de Marqrizi (F.F.A.O) du caire 1979

- Golvin , L . Qulque notes suq al Qattanin et ses annexes , jerusalem , tom xx (1967)pp

- Sauvage , Jean : les caravanserials syrienne du moyen Age . dans : Art Islamic (1937)

pp: 46-55

_ Wirth , Eugen : zum problem Bazar (suq- carzi) don . der islam N : 51 (1974)pp.260 – 303

N:52 (1975)pp 6 -46 .

_ Van Berechem , M : Materianx pouruncorpus inscipioum arebicarum . jersalem (Ville) le Cair 1922

صدى حرب البوير في المشرق العربي
في الفترة ١٨٩٩ – ١٩٠٢م

د. سلطان فالح متعب الأصقه
قسم التاريخ – كلية الآداب – جامعة الكويت

المقدمة

ترادفت الخُطوب على بريطانيا في أماكن شتَّى من العالم في مُنصَرَمِ القرن التاسع عشر، مما جعل الإنجليز يُصْرَفون عن كثيرٍ من مخططاتهم ومراميهم في مستعمرات المتفرقة في العالم. كانت أهم تلك الصوارف حربهم مع البوير في جنوب القارة الأفريقية التي اندلعــت مرتين؛ أولها ما بين عامي ١٨٨٠ – ١٨٨١م، وثانيها ما بين أكتوبر ١٨٩٩ إلى ٣١ مايو ١٩٠٢م، وقد كانت الحرب الثانية أشدُّ وطأةً على بريطانيا؛ فقد أثرت في مكانتها في مضمار التنافس الدولي، كما اهتزت سياساتها في كثير من خططها في مجال سياسة توازنات القوى المُشتهرة آنذاك بين الدول العظمى في العالم. وقد كان لتلك الحرب صدىً تردَّد في المشرق العربي على نطاقين واسعين؛ أول تلك النطاقات كان على مستوى الصُّحُف العربية السيَّارة؛ إذ تَولَّت كثير من الصحف والمجلات العربية، المعاصرة للفترة المذكورة، كِبَر الشماتة بما حلَّ بالإنجليز في حرب البوير، وتناقلها أخبار انتصارات البوير على الإنجليز، وإظهارها شديد الفرح بنتائج التقدم الذي حققه البوير، في مقابل التَّشفِّي بتراجع بريطانيا في تلك الحرب. أما النطاق الثاني لصدى تلك الحرب في المشرق العربي كان واضحاً بيِّناً في مواقف الدول المنافسة

للوجود البريطاني وهيمنته في كثيرٍ من بقاع المشرق العربي؛ إذ جاءت الحرب فرصةً لتحرُّك الألمان وتحقيق مشاريعهم في المشرق العربي، كما كانت هناك تحركات أخَر على المستوى الروسي والفرنسي، وكان السلطان العثماني إبَّان الحرب المذكورة يتلقَّف تلك التنافسات الدولية بلهفةٍ ليحقق منها مصالح تحافظ على ولايته التابعة له في المشرق العربي، والتي كانت بريطانيا قد قضمَت عدداً منها. إن هذا البحث يسلِّط الدراسة في تلك الأصداء المشار إليها لحرب البوير، ويرى أن تتبع مثل تلك الأصداء مهمٌ للولوج إلى محاولة فهمٍ جديدة لتأريخ تلك الفترة من خلال مصادر جديدة حاول سبرها، وهي المتمثلة بالصحافة العربية والأجنبية. وعليه كان البحث مُلْزماً بتحديد خطٍّ سيره في دراسة الموضوع؛ بأن وضع مبحثاً أولياً يأتي بنُبذة عن حرب البوير، تُعَرِّف بجانبي الصراع في تلك الحرب، وتُبَيِّن المكان الجغرافي الواقع فيه تقاتل الطرفان، وتسبر مدى أهميته الإستراتيجية والاقتصادية بالنسبة للإنجليز. وجاء ثاني المباحث للدراسة ليدرس أصداء تلك الحرب في المشرق العربي، وجعل تلك الأصداء تحت مطلبين اثنين؛ أولها صدى الحرب في الصحافة السيَّارة في المشرق العربي، واقتصر البحث على الصحف المعاصرة لفترة البحث ولا يعدوها لغيرها. أما المطلب الثاني فتَسلَّطَ على بحث أصداء تلك الحرب على المستوى السياسي ودورها في التنافس الدولي على المشرق العربي.

١ - نُبذةٌ عن البوير، وحربهم مع الإنجليز في جنوب القارة الأفريقية في الفترة (١٨٩٩ – ١٩٠٢م)

أصل البوير يرجع إلى المستعمرين الهولنديين الذين احتلوا رأس الرجاء الصالح في القرن السابع عشر؛ ذلك أن هولندة لما توَلَّت بعض بلاد الهند في أواخر القرن السادس عشر وَوَسَّعَت نطاق تجارتها مع المحيط

الهندي إلى اليابان وجزائر الشرق الأقصى، لم ترَ بُدّاً من احتلالِ بعض سواحل أفريقية لِتَرْسُوَ عندَها، ذهاباً وجِيئَةً، سفنها التجارية، فتأخذ منها مؤونتها للسفر [١]. فأجمعت شورى جمعية الهند الشرقية الهولندية على أن رأس الرجاء الصالح المسمى بمستعمرة الكاب [٢]، كأفضل نقطة يمكن للهولنديين احتلالها لبلوغ مرامهم، فبادروا إلى إرسال بضع مِـئين من الجنود ليستولوا على الرأس المذكور سنة ١٦٥٢م. واستوطن أكثرهم تلك البلاد وتفرغوا لاستعمارها مع من انضم إليهم من الفرنسيين الكلونيين [٣]. ومعنى البوير Boers في لغة الهولنديين هم الفلاحون؛ سُمُّوا بذلك لمزاولتهم الحراثة، وهي مهنتهم الأولى التي زاولوها منذ دخولهم تلك البلاد، فأحرزوا لهم في هذه الصنعة ثروة طائلة مكَّنَتهُم من السيادة على قِسمٍ من أفريقية الجنوبية التي استوطنوها [٤]. دامت الحال على ذلك، إلى أن رمت إنجلترا بِطرفها إلى مستعمرة الكاب؛ لحسن موقعها، فتربَّصت مدة وهي تتوقع الفرصة لقضاء وَطَرِها، فلما لَمَحَت غِرَّة العدو حَمَلَت عليهم حملة القوي على الضعيف فسحقتهم سحقاً، واستولت على مستعمرة الكاب سنة ١٧٩٥م [٥]، وقتلت من الهولنديين ما تيسَّر لها، وفرَّ الباقون إلى إخوانهم في أواسط البلاد فصاروا يداً واحدة للقيام في وجه الإنجليز [٦]. تمكنت بريطانيا من أخذ مستعمرة الكاب التي كانت بِيَدِ البوير، وضمتها للتاج البريطاني بشكلٍ فاعل بعد مؤتمر فيينا ١٨١٤م [٧]، حينما أقرت الدول الأوروبية المجتمعة ذلك الأمر ووافقت عليه [٨]. فانْتَشَبَت، منذ ذاك الحين، حربٌ عوانٌ بين الإنجليز والبوير [٩]، خصوصاً مع ظهور مشاعر عدم الاكتفاء لدى الإنجليز بما امتدت إليه أيديهم من الهيمنة والسيطرة على الشعوب والبلدان، إذ ارتفعت فيهم حرارة النزعة الاستعمارية، وتأجَّجَ لهيبها. ومع ذلك، ما انفكَّ الإنجليز خلال العقد السابع والثامن والتاسع من القرن التاسع عشر يَمُدُّونَ باطِّرادٍ من

تلك المستعمرة مخالِبَهُم شرقاً وغرباً وشمالاً، إلى أن طَوَّقَت أذرِعَتَهُم القوية جمهوريتي الترنسفال (١٠) والأورانج (المسماة بـــ: أورانج الحرة (١١)) اللتين أقامهما البوير، ولم يبق لهاتين الجمهوريتيــن ســوى منفذ على خليج ديــلاغــو (١٢) الــمطــل عـــلى المحيط الهندي (١٣). اعتبر البريطانيون المهاجرين البُوَيْر تابعين لهم مهما أبعدوا النَجْعَةَ في التَّوغُّلِ إلى الداخل. رأى الإنجليز أن من حقهم التدخل في شؤونهم السياسية؛ باعتبار انضوائهم تحت مظلة مستعمرة الكاب (١٤). ولكن الإنجليز اتجهوا، نتيجة لظروف اضطرتهم، إلى المفاوضة وعقد الاتفاق المُعْتَرِف باستقلال البوير في الأورانج الحرة والترانسفال خلال سُنَيَّات ١٨٥٠- ١٨٥٢م، جاء ذلك بعد اشتداد ساعد البوير، الذين أجاؤوا الإنجليز، وأكثروا من إزعاجهم وإقلاق وجودهم، وأصبحوا غُصَّة في حَلْوقِهِم(١٥). إلا أن إنجلترا، فيما بعد، هاج هائجها؛ لما أَسْعَدَ الحظ بلدان البوير في أورانج وترانسفال باكتشاف مناجم الذهب والماس في ١٨٧١م، فتغيَّرَ موقف الإنجليز (١٦)، وهو ما يعتبر بداية عهدٍ جديدٍ؛ ففي سنة ١٨٨٧م أخذ الإنجليز يتقاطرون زرافاتٍ إلى تعدينِ مناجم الذهب المكتشفة في الترانسفال، وزاد عددهم هناك (١٧).

ثم أتى سيسل جون رودس Cecil Rodes (١٨) لِيُكَوِّنَ شركة جنوب أفريقيا البريطانية ١٣٠٧ هـــ / ١٨٨٩م، وتمكن من مدِّ النفوذ البريطاني للمنطقة المعروفة باسم روديسيا، نسبةً له،، وكان يسعى للتوسع شمالاً لاستغلال أكبر مساحة ممكنة، بَيْدَ أنه اصطدم بزعيم البُوَيْر في الترانسفال بول كروجر Poul Kroger (١٩) الذي بارز الإنجليز العداوة، وطَمِحَ إلى الخلاص من سيطرتهم، حتى تعالنت الشُقَّة بين شعب البوير وشعب الإنجليز، وتأجَّجَت الكراهية والعنصرية بينهما، خصوصاً بعد فشل الإنجليز في غارتهم على البوير في الترانسفال عام ١٨٩٥م، المسماة بغارة جيمسن (٢٠).

ولقد قُدِّرَ لبريطانيا التفوُّقَ على البوير، وعزلهم عن أي مساعدة خارجية، فعزمت على استخدام القوة في تحطيم البوير، فأرسل كروجر في أكتوبر ١٨٩٩م إنذاراً لبريطانيا بسحب قواتها من الحدود، ولما رفضت أُعلِنَتْ الحرب بين الطرفين، وانضمت جمهورية الأورانج الحرة إلى الترانسفال طبقاً للمعاهدة الموقعة بينهما (٢١). واستمرت الحرب من ١٨٩٩ م إلى ١٩٠٢م، كانت فيها الذروة في عدم التفاهم والشك والمنافسة عبر أجيال إنجليزية / بويرية (٢٢). كانت الغلبة في بداية الحرب للبوير (٢٣)، إلا أن تعيين كتشنر (٢٤)، في ١٨٩٩م قائداً للقوات المحاربة في جنوب أفريقيا، صيَّرَ كِفَّة التفوق لصالحِ الإنجليز، ما أدَّى إلى سريان الارتباك والاضطراب في فصائل البوير. بَدَا واضحاً تفوق الإنجليز في مقابلِ الدمار الذي حلَّ بديار البوير، وضعف مقاومتهم، وتسلط الجفاف والجوع عليهم، والأثر البشع الذي تركته الحرب على المدنيين، وموت الكثيرين بفِعلِ سوء التغذية والأمراض المعدية. إثرَ ذلك، اضطر زعماء البوير للتسليم، وعقد صلح فيه مصلحة البريطانيين، سمِّيَ «صلح فيرينجنغ Vereeniging» في مايو ١٩٠٢م (٢٥)، والتي فقدت بموجبها البوير استقلالها (٢٦).

٣ _ صدى حرب البوير في المشرق العربي في الفترة (١٨٩٩-١٩٠٣م).

أولاً: على مستوى الصُّحُف السيَّارة في المشرق العربي:

أوجَدَت حرب البوير صدىً له رجعٌ في بلاد المشرق العربي، على مستويات عِدَّة، كانت الصحافة العربية السيَّارة من أهم تلك المستويات المَعْنيَّة بحرب البوير؛ فأفردت لها صفحات مجلَّاتها، وكان الحماس يَتَسَيَّدُ ورقاتها، خصوصاً مع وصول أخبار انتصارات البوير المُحْرَزَة على الإنجليز (٢٧)، وفي المقابل كان كل اندحار يحل بقضيتهم يقابل بحزن شديد (٢٨). كانت أولى تلك الصُّحف المهتمَّة بشأن حرب البوير هي مجلة «**المقتطف** (٢٩)» التي

أفردت لها عددٌ من ورقاتها في فبراير ١٨٩٦م [٣٠]، وهو وقت مبكر جداً قبل الحرب المقصودة؛ إذ قامت «**المقتطف**» بِدَقِّ نواقيس النَّذارة من الشرارة المُنْبِئة بوقوع حربٍ قادمةٍ فيها. فتقول «**المقتطف**» : «كَثُرَ ذكرُ الترنسفال في هذه الأيام، واهتمت بها الجرائد السياسية، والشركات التلغرافية اهتماماً عظيماً؛ لأنها كادت تكون جُذوَة نارٍ تَضَرَّم بها الحرب بين إنكلترا وألمانيا[٣١]». وكانت «**المقتطف**» تقف على ضِفَّةِ الإنجليز، في الغالب؛ دلَّنا على ذلك كثير من وقفاتها على تغطية بدايات تلك الحرب، فكانت تَتَلَمَّسُ الأعذار للإنجليز في مناوئة البوير، وتجد في موقف الإنجليز جانبٌ إنساني؛ لسعيهم في تحرير رقيق جنوب القارة الأفريقية، وهو أمرٌ تراه المقتطف مرفوضٌ من قِبَلِ البوير المتاجرين بالرقيق والمستفيدين من بقائه هناك [٣٢]. فتلك لَفَتاتٌ أَلْمَحَت لها «**المقتطف**» في وقتٍ مبكرٍ من الحرب المعنية. كما جاء في مارس من ذات السنة، تتبعٌ من «**المقتطف**» لأخبار البوير وإرهاصات حربهم مع الإنجليز في خبر عنونته بـــ «الترانسفال"، وخبرٌ آخر وَسَمَتهُ بـــ «حادثة ترانسفال" [٣٣]، مما يدلُّ على أن مقدمات تلك الحرب كان لها صدىً بَيِّناً في تلك المجلة.

أما مجلة «**الجامعة** [٣٤]" فإنها اهتمت بحرب البوير منذ انتشابها عام ١٨٩٩م، وتتبعت أخبار الحرب فيها، وَحَذَت حَذْوَ «**المقتطف**" بإفرادِ مكانٍ لها في ورقات أعدادها [٣٥]. وقد كان خط تلك المجلة : الفرح بانتصارات البوير، والشَّماتة بهزائم الإنجليز؛ ومن ذلك ما كتبته تحت عنوان «تاريخ مسألة الترانسفال من بدايتها إلى الآن؛ الوجه السياسي"، ذَكَرَت فيه : خداع الإنجليز وخيانتهم العهود المعقودة بينهم والبوير [٣٦]. كما أبانت المقالة الوجه السيِّئ لتاجر الماس الإنجليزي جون سيسيل رودس [٣٧]. وتتبعت، أيضاً، انتصارات البوير بشيءٍ من البَسَطِ، مقابل التَّهَكُّمِ من تراجع الإنجليز

العسكري أمام ملاحقات الجنود البوير [٣٨].

وكتبت المجلة مقالاً آخراً في تاريخٍ لاحقٍ، لا يختلف عن سابقه في مؤازرة البوير ومناهضة الإنجليز، وَسَمَتْهُ بـــ «الترانسفال ظالمةٌ أم مظلومة، الإنكليز والبوير بين السماء والأرض؛ دفاع اللورد شاتام عن الإنكليز"، فوَضَعَت توطئةً مُبَيِّنَةً موقف الإنجليز من الثورة الأمريكية ضدهم في تاريخٍ سابق، وقارنته بموقفهم اليوم (١٨٩٩م) من البوير وثورتهم في جنوب القارة الأفريقية [٣٩]. كما اهتمت المقالة بالتهكُّم على اللورد شاتام وترداده الفضائل البريطانية في جنوب القارة الأفريقية، تلك الفضائل التي لا تأتي إلا من خلال سفك دماء البوير، فنقلت كلاماً له في الحرية قَوْلَهُ : «نعم؛ حَسَنٌ أن يكون الإنسان حراً، عظيمٌ أن يكون الإنسان مستقلاً، ولكن المصالح الصغيرة يجب أن تكون فداءاً للمصالح الكبرى. نعم؛ من مصلحة الإنسانية والمَدَنيُّة أن يَقبَل البوير بنِيَرِ الإنجليز؛ فإنه نَيْرٌ لو عَدَلوا لوجدوه خفيفاً. إن الفضائل توجد حيث توجد الراية الإنجليزية. إنكم كلكم تعلمون اتساع المستعمرات البريطانية وتفاوت أجناسها وتباين أغراضها، والترانسفال إحدى تلك المستعمرات، فهل من مصلحة بريطانيا أن تقف موقف الضَّعْف أو الرَّهبة والتَرَدُّد إزاء جزءٍ من أملاكها. ألا يكون ضَعْفُها بمثابة مثال رديءٍ وإغراءٍ لباقي المستعمرات؛ للنهوض إلى ما نهضت إليه الترانسفال. وإذا قامت المستعمرات الإنجليزية إلى ذلك، فماذا يحل بالمملكة الإنجليزية ؟. ألا تسقط حجراً على حجرٍ، ويمحى اسمها من الخارطة الأوروبية [٤٠]". ثم تتعَجَّبُ المقالة من عنصرية الإنجليز، واعتزازهم بعرقهم، إزاء احتقارهم بقية الأجناس والأعراق، واعتقادهم أن خضوع غيرهم لهم هو التمدن عَيْنُه، فتنقل مُتَهَكِّمَةً بقية كلام اللورد شاتام قَوْلَهُ : «أيها الأخوان : إن هذه الدماء التي تُسفك الآن في جنوبي أفريقيا ستكون سماداً عظيماً لفسيلة التمدن، التي

تنبت وتنمو هنالك بعد الآن [٤١]". وبعد إيراد المقالة لتلك الكلمات، تعجبت من حرارة تصفيق نواب البرلمان الإنكليزي لكلمات اللورد شاتام العنصرية. وختمت المقالة كلماتها مُذَكِرَةً ذلك اللورد بأن أفريقيا الجنوبية ستكون مدفن إنجلترا [٤٢].

كما أردفت المجلة نفسها في عددٍ لاحق كلماتها المؤيدة للبوير ضد الإنجليز قائلةً : «انكم [أي الإنجليز] تستطيعون بقوتكم الهائلة سحق تلك الجمهورية الصغيرة، ولكن عملكم سيكون عملاً سيئاً. تستطيعون قهر الترانسفال على الرِّضا بمقترحاتكم، ولكن عملكم يكون عملاً سيئاً. تستطيعون اغتصاب معادنها الذهبية وضمِّها إلى أملاككم في أفريقيا، ولكن هذا أيضاً يكون عملاً سيئاً. ما ذَنْبُ شعب آمن يعيش في بلاد عَمَرَها بِعَرَقِ جَبِينِهِ ؟. ذَنْبه أنه شديدُ الحب للحرية، ذَنْبه أن في بلاده معادن ذهبية. ذَنْبه وقوع بلاده في خط السلطنة الأفريقية من الكاب إلى القاهرة. يا لسقوط مبادئ إنكلترا العظيمة، يا للأطماع السياسية التي تقتل الفضائل الأدبية والاجتماعية [٤٣]". ثم استشهدت المقالة بكلامٍ للمستر غلادستون قَوْلهُ : «والآن؛ فكل عقلاء أمة الانكليز عارفون أننا في هذه الحرب مخطئون وظالمون. الرأي العام في جميع أقطار العالم ضدنا، البحر يُعيق سفننا، والطبيعة تحاربنا، والله الذي استنصر به كروجر ساخطٌ من عملنا. لا تقولُنَّ أننا نحارب من أجل تمدين الترانسفال، لا تقولُنَّ أننا نسفك الدماء ليكون سماداً لفسيلة التمدن في أفريقيا الجنوبية، لا تقولُنَّ أننا مدافعون والترانسفال مهاجمة؛ فإن هذه حجةٌ واهنةٌ يكفي لردِّها غارة جيمسن [٤٤]". ويبدو أن المجلة في هذا العدد قد خصّت البوير بمقالاتها؛ إذ نشرت في ذات العدد مقالاً بعنوان «أسباب انتصار البوير وانغلاب الانكليز"، تتبعت فيه تَفَوُّقات البوير ومسببات تحقيقهم ذلك على الإنجليز من خلال تعداد القادة الإنجليز المقتولين برصاص البوير. وقد قالت

المقالة في هذا الشأن «إنها مصيبةٌ جديدةٌ على إنكلترا أقامتها ولم تُقعدها[٤٥]". وتقول أيضاً : «ولا بدَّ أن يتساءل الناس أجمعون كيف أن هذا الشعب الصغير، شعب البوير الفلاحين، استطاع الثبات إلى الآن في وجه الجيش الانكليزي المشهور ببسالته، بل كسْره عدة مرات شرَّ كسْرَة [٤٦]" .

وكتبت المجلة ذاتها في السنة نفسها مقالاً يطري البوير ويثني على بسالتهم القتالية وصبرهم أمام مدافع الإنجليز، وَسَمَت مقالَها بـــــ «كتابٌ إلى البوير الأبطال"، قالت فيه : «يغورُ الدم إلى القلبِ ويصعدُ الضغط إلى الرأسِ لدى قراءة تفاصيل معارككم الأخيرة أمام (لاديسمث) مع الإنكليز خصومكم... خصوصاً مع ما وُجِدَ من بين قتلاكم فتيات في زهرة الصِّبا لا يتجاوزْنَ سن السابعة عشرة، منهن جرحى، ومنهن قتلى بين جثث صبيان صغار، قتلتهم قنابل القوة الوحشية. فماذا نقول لكم بعد هذه البسالة الرومانية التي تدافعون بها عن حريتكم واستقلالكم. إنكم تذوقون الآن مرارة هذا التمدُّن الفاسد السقيم، فقُبْحاً لتمدنٍ يترك القوي على الضعيف يأكل لحمه ويمتص دمه. إن الدموع تصعد إلى أعيننا حين قراءة أخبارٍ عنكم كهذه الأخبار، ونجثو ونحن في شمال أفريقيا أمام تلك الدماء المقدسة التي تجري في جنوبها من جروح نسائكم وأولادكم. فالمجد لكم أيها المغلوبون، والسلام عليكم وعلى جرحاكم وقتلاكم [٤٧]".

أما مجلة «**المشرق** [٤٨]" فقد اعتنت في عام ١٨٩٩م، كسابقاتها من المجلات المومأ إليها، بمسألة البوير منذ بداية اشتعال فتيل الحرب فيها؛ فقد كتب صاحب المجلة الأب لويس شيخو اليسوعي [٤٩] مقالاً عَنْوَنَتْه بـــــ «البويرس وبلاد الترانسفال؛ نبذةٌ تاريخية جغرافية". وقد اعتنى المقال بالتعريف ببلاد البوير وعِرْقِهِم ومَسْقَطِهِم الذي أتوا منه. فافتتح الأب لويس مقالته، التي أظهر فيها تعاطفه مع البوير، منوِّهاً بمسيس الحاجة للكتابة عن

البوير وحربهم مع الإنجليز، قائلاً : «انطلقت ألسن الصُحُف منذ أشهر على البويرس وبلادهم الترانسفال، فصار اسم أقطارهم شائعاً، بعد أن كان مندرجاً في طيٍّ النسيان. ولئلَّا يفوت قرَّاءَنا شيء من أمر هذا الشعب، أحببنا ذكر مقالةٍ موجزةٍ؛ ليكونوا على بَيِّنَةٍ من أحوالِهِ، فيحضروا بمزيدِ شوقٍ هذا الصراعُ الجديد المُنْتَشِب بين الجبَّار البريطاني والقزم الترانسفالي، ولعلَّ التنبل ينتصر من الجبَّار كما فعل سابقاً (٥٠)". ويُثني الأب لويس في ذاتِ المقال على البوير وحربهم ضدّ الإنجليز قائلاً : «إن القناعة تسوق البويرس على سذاجة العيشة والاكتفاء بعددٍ قليل من الجنود لحماية الثغور، لكنهم إذا اضطَرَّتهم الحاجة، تألَّبوا، وحاربوا عن استقلالهم محاربة الأبطال، ورَدُّوا غارات أعدائهم. وهاكَ اليوم قد قامت الحرب على ساقٍ، ولعلَّ ظنّ بريطانيا في ضعف البويرس وفشلهم سيَخيب، فتروح آمالهم أدراجَ الرياح. وعلى كلِّ حالٍ، إن البويرس، سواءً منتصرين أو مكسورين، سوف يُحرزون لهم فخراً مؤبَّداً؛ لقيامِهِم بالدفاعِ عن شرفِهِم وحريَّتهم بإزاءِ دولةٍ كإنكلترا لا تغيب الشمس قطُّ عن أملاكها المتسعة، والله يعطي الملك من يشاء (٥١)".

وفي ذات مجلة «**المشرق**" اهتمت بتتبع حوادث الحرب ونتائجها، فدوَّنَت ذلك في سنة ١٩٠٣م في باب «نظرٌ في أهم حوادث السنة المنصرمة"، قائلةً : «قد خلا الجو لإنكلترا في العام المنقضي؛ فإنها نشرت عَلَمَها فوق الترانسفال بعد ثلاث سنواتٍ ذاقت جنودها الأمَرَّين بإزاء أمةٍ صغيرةٍ استَقْتَلَت في سبيل حريتها". وكتب في ذات العام أحد كَتَبَة المجلة، من الذين زاروا بلاد البوير آنذاك، مقالاً عَنْوَنَهُ بــــــ «ذكرُ الأبطال في حرب الترانسفال"، كال المديحُ لمحاربي البوير الذين ماتوا بالسلاح الإنجليزي، فقال الكاتب : «كنتُ عند ورودي إلى جنوبي أفريقيا ولِعاً بزيارة الأماكن التي جرَت فيها المواقع بين الجنود الإنكليزية والبوير... وقصدتُ مرةً الذهاب إلى

كولسبرغ لزيارة المدينة وموقع القتال الذي انتشب ثَمَّتَ بين الأمَّتين، فاتفق سفري مع أحد الضباط الإنجليز الذي حضرَ المعركة المذكورة بصفة ضابط مدفعية... فلمَّا وصلنا كولسبرغ، مشينا قليلاً، حتى إذا وصلنا إلى محلّ الواقعة، قال لي رفيقي : هذه ساحة الوغى... ثم قال : هَلُمَّ معي، فإني أرغب في زيارة القبور (قبور الجنود البريطانيين والبوير)... واستدللنا على قبور البوير من قلَّةِ هندستها؛ لأنها حُفِرَت على عجل. وهناك رفعَ الضابط الإنكليزي قُبَّعَتَهُ، وقدَّمتُ أنا لله صلاةً حارةً لأجلِ أولئك الأبطال الراقدين هناك". إن تلك المقالة يميزها تعاطف كاتبها مع البوير في الوقت الذي ينفر فيه من أي عاطفةٍ تُجاه الإنجليز.

على الرغم من ذلك، فإن ثَمَّةَ صُحُف عربية في المشرق العربي ظهرت على عكس مواقف المجلات المذكورة قَبْلاً، فقد اتخذت تلك الصحف مكاناً يُنَدِّدُ بالشماتة من الإنجليز وهزيمَتِهِم أمام البوير. وأوضح التمثيل على ذلك مجلة «**بيروت**"، ومجلة «**المنار**" الصادرة بمصر، لصاحبها محمد رشيد رضا، الذي أورد رأيه في حرب البوير تحت عنوان «أخبار الحرب الحاضرة"، قائلاً : «مضى على هذه الحرب خمسة أشهر، والإنكليز فيها على انكسارٍ متواصل وخذلان مستمر. ونقول هاهنا : إن جميع جرائد أوروبا أظهرت الشماتة بالإنكليز تبعاً لأممها ودولها إلا الجرائد العثمانية (٥٢). بل إن من هذه الجرائد ما كان من كلامها في الحرب إفراطاً في المدافعة عنهم؛ كجريدة (بيروت) الغرّاء. وإننا نقول الحق وإن كان مرًّا في مذاق المصريين الذين يئِنُّون من وطأة ضغط الإنكليز : إنَّ من مصلحة الدولة العلية أن تنتصر إنكلترا بعد انكسارها؛ لأن خذلانها المستمر يُحدث انقلاباً في أوروبا، واختلالاً في الموازنة بين الدول يكون فيه الرَّجَحان لدولة روسيا عدوة الدولة الطبيعية التي لا يرضيها إلا مَحو اسمها من لوح الوجود (٥٣)". ثم بدأ السيد

رشيد رضا يبدي بَسَطَهُ من انتصار الإنجليز على البوير في ذات المقالة المذكورة. وفيها أيضاً هاجمَ السيد رشيد جريدة «الأهرام" المصرية؛ لنشرها رأيها المُنْبِئ عن فرحِها بهزائِم الإنجليز، وتفسيرِها لبعضِ كلماتِ قادة الإنجليز، ردَّ على ذلك رشيد رضا قائلاً : «كَبُرَت كلمةً هي قائلتها، وأكبر منها أن المسلمين قرأوها من مدة طويلة ولم نَرَ أحداً استكبرها أو استنكرها[٥٤]".

والمُتَحَصَّل من ذلك، أنه كان ثَمَّتَ اهتمام في بلاد المشرق العربي بحرب البوير في تلك الفترة المعنية بالبحثِ، ظاهرها البَيِّن في اهتمام في الصحف العربية التي أطبق كثيرٌ منها على العاطفة تجاه البوير، في مقابل خُلُوّ التعاطف مع الإنجليز. ولم يكن بَيِّناً وقوف الصحافة العربية في المشرق مع الإنجليز إلا في الإشارة التي أتى بها البحث حول مجلة «المنار" لصاحبها محمد رشيد رضا ومجلة «بيروت". والحقيقة التاريخية لواقعِ تلك الفترة يُخبرنا أن صدى تلك الحرب في المنطقة لم يكن قصراً على الصحافة، بل تعدَّاه للواقع السياسي في المنطقة، وهو ما يطلبه المطلب التالي.

<u>ثانياً</u> : على المستوى السياسي في الفترة (١٨٩٩ – ١٩٠١م).

كانت الدول المتنافسة، في تلك الفترة، وثَّابة على الفرص، تتطلع لغفلة تختلسها فمن العدو الإنجليزي، ولعورةٍ فيه تخترمها، حتى إذا ما وجدت لِشَفْرَتِها محزّاً؛ أثارت عليه نَقْع الفِتَنِ وَأَصْلَتْهُ ناراً حامية تَفُتُّ في عَضُدِهِ، وتُطَأطِئ من إشْرافِهِ[٥٥] . كما يدلنا واقع تلك الفترة التاريخية أن الحرب التي خاضتها بريطانيا مع البوير قد استنفدت موارد بريطانيا، وأبانت للناقدين الحربيين في الأقطار الأوروبية مآخذ الضَّعْف العديدة في الجيش البريطاني[٥٦]. ففي الخليج العربي ظَهَرَ أن الحرب شَغَلَت بريطانيا عن نفوذها في مياهِهِ وسواحِلِهِ وموانيه، وعن مواجهتها مع الدول الأوروبية

المنافسة لها هناك. فقد أوردت الصحيفة الفرنسية «**لو غوليه Le Gaulais**" تقريراً يؤكد ذلك؛ تقول فيه :" أصبحَ الأمر بَيِّناً من أن أثر حرب الترانسفال جَعَلَ من الإنجليز قوماً متراجعين في المسألة الكويتية، وهو أمرٌ مليءٌ بالدلالات؛ فالألمان بدؤوا بالتفوق على البريطانيين في تلك البلدة «كويت"، والتي ستصبح قريباً، بفضل سكة حديد برلين، من أكبر طرق العالم. ومن هنا قام الألمان بِصَبِّ الزيت على النار في حرب بريطانيا بجنوب أفريقيا، وذلك من خلال تسهيلهم عملية توريد الأسلحة والذخيرة إلى هناك عبر مستعمرات ألمانيا في أفريقيا الغربية... وقد نجح الألمان في إبعاد إنجلترا عن مضارعتها في الفرات [٥٧] ». وتذكر الصحيفة الفرنسية «**لو فيغارو**" في مقال وَسَمَتْهُ بـــــ «السياسة الخارجية عن الخليج العربي" قائلةً :" واضحٌ أن الإنجليز لم يكونوا بهذه الليونة والتساهل قبل حرب الترانسفال؛ لقد كان تراجعهم الجلي في المسألة الكويتية ملئ بالدلالات، مما جعل صحافة «جينغو" تتهم الألمان بأنهم يساهمون في إطالة هذه الحرب التي لا يريدون التدخل فيها. وقد استغل غليوم الثاني الوضع لصالحه؛ لأن المتاعب التي تعرفها إنجلترا مَكَّنَتْهُ من بَسْطِ سيطرته على منطقةٍ ستصبح قريباً من أكبرِ الطرق التجارية [٥٨]. ولقد كان الألمان يستغلون مضارعتهم للإنجليز ومضايقتهم في حربهم مع البوير منذ وقتٍ مبكرٍ من اشتعالها؛ ليهتبلوا فرصة انشغال الإنجليز هناك لمَدِّ نفوذ ألمانيا في المشرق العربي. ومن قبيلِ ذاك الاستغلال؛ ما أَبْرَقَهُ إمبراطور ألمانيا غليوم الثاني إلى كروجر، عشية هزيمة غارة جيمسن، باعثاً إليه بتهنئة [٥٩]. عندها تميز الإنجليز غضباً؛ فقد عُدَّ تدخله هذا بلا ضرورة ولا جدوى، بل إنه قد ينضوي على الشر وعلى السوء [٦٠]؛ فالشرارات لا تسبب ناراً إلا إذا كان هناك ما يشتعل، ولكن الوقود هذه المرة كان جاهزاً، فأعطى التلغراف الشرارة المطلوبة. وكان

أغلب الإنجليز في آخر القرن التاسع عشر انعزاليين سواء لدافعٍ مسالم أو لدافعٍ استعماري، وأن مجرد أيُّ تحدٍّ دبلوماسي كان سيتركهم غير مكترثين، خاصةً إذا ما تعلَّقَ بالشرق الأدنى، أما حادثة تلغراف كروجر فظهرت لهم وكأنها تهدد مصالحهم الاستعمارية(٦١). على أن الألمان لم يكن بوسعهم، على الحقيقة، مساعدة البوير، ومن هنا كانت "حادثة تلغراف كروجر" عملاً لا طائل منه، ولكنها بَدَت مع ذلك شيئاً مجيداً، ودراماتيكياً، ودليلاً على أن ألمانيا أصبحت في المشرق العربي قوةً من المرتبة الأولى (٦٢)، وعليه كان استغلال الألمان مقصوراً على ساحة المشرق العربي، ولا تَعْدوها. بَيْدَ أن الألمان أرادوا موازنة للقوى من خلال تأييدٍ تطغى عليه الدبلوماسية والدعم السياسي ليس أكثر؛ إذ لم يكن بوسعهم، على الحقيقة، مساعدة البوير، ومن هنا كانت "حادثة تلغراف كروجر" وما بعدها من المضايقات؛ جعجعة ألمانية عظيمة، وطحنها أقلُّ من القليل، فإذا خرجت عن إطار الدبلوماسية لم تكد تُحِسُّ لها رِكْـــزاً (٦٣).

أما الفرنسيين؛ فقد قرَّرَ أحد المؤرخين بأن أهم أسباب انتعاش النفوذ الفرنسي في الخليج العربي يرجع إلى انشغال بريطانيا في حرب البوير (٦٤). وقد كانت صحيفة الـــ "**لو فيغارو Le Figaro**" الفرنسية ذكرت بأن انتصار الإنجليز في البوير قد أدى إلى ازدياد نفوذ الإنجليز في الخليج العربي، وهو ما تَنَبَّهَ إليه دبلوماسيو فرنسا، وحذروا مِن تزايده، خصوصاً بعد تلك الحرب(٦٥). وثمَّتَ ظاهرة أخرى قامت من قِبَلِ الفرنسيين ضد الإنجليز؛ كقيام فرنسا بنشر دعاية منتظمة في المشرق العربي، وبث أراء سياسية ضارة ببريطانيا عن طريق صحيفة عربية إسلامية اسمها "**فتح البصائر**" والتي تَغَيَّرَ اسمها لتصبح "**مرشد الألباب**". بدأت هذه الصحيفة في نهاية ١٨٩٩م وبداية ١٩٠٠م تصل إلى مسقط، حيث كانت تُوَزَّع مجاناً، ثم

توسعت حتى وصلت عدن ولنجه وبوشهر والبحرين والكويت والعراق العثماني، وكانت النغمة السائدة في «**فتح البصائر**" تهدف إلى إلهاب مشاعر المسلمين ضد الإنجليز في المشرق العربي؛ بعرض سياستهم في إطارٍ كريه. وكانت تتردد بين أعمدة الصحيفة عبارات مثل : " **الإنجليز أكبر تجار الفتنة**"، و" **الإنجليز شياطين هذا الزمان** ". وكانت الصحيفة تضخم باستمرار هزائم الإنجليز أو صور فشلهم في أي قضية وأي حالة، وقدَّمَت حرب البوير موضوعاً دسماً لهذه التعليقات (٦٦) .

ولم تتوقف المساعي الفرنسية لاستغلال انشغال الإنجليز في حرب البوير، إذ عزَّزَت ذلكم الاستغلال بأن أرسلت السفينة الفرنسية «دروم (٦٧)» إلى الخليج العربي، لتحقيق مكاسب فرنسية لم يحالفها النجاح. ومع ذلك فقد اهتمت الدبلوماسية الفرنسية بحال الخليج العربي إبَّان حرب الإنجليز والبوير، ومن ذلك الرسالة التي بعثها نائب القنصل الفرنسي ببغداد يقول فيها:" إن اللورد بيرسي كوكس يدعي بأن المحطة النهائية لسكة حديد برلين/ بغداد يجب أن تكون تحت سيطرة بريطانيا. نتمنى على تركيا ألا تستسلم لهذه المطالبات التي لا تنفك الصحافة الإنجليزية عن تردادها منذ سنتين [أي منذ ١٨٩٩م]؛ لأن ذلك يعني، حتماً، تزايد حدة النفوذ البريطاني في منطقة الخليج، يتبعه احتلالاً تاماً للكويت، والتفريط في الأراضي الشاسعة والمجهولة من جزيرة العرب. إن المتاعب التي تعرفها بريطانيا حالياً [المقصود بالمتاعب : حرب البوير] يجب أن تشجع الباب العالي على استعادة سلطته على الكويت، بما يضع حداً لإطماع الإنجليز في هذا الميناء الصغير (٦٨) ».

ومعلومٌ أن اشتعال هذه الحرب كانت فرصة ملائمة لروسيا لكي تقدم على خططها بإنشاء محطة فحمٍ في بندر عباس (٦٩)، وتتالى معها مَخرُ

السفن الحربية الروسية عُباب مياه الخليج العربي، مستغلة انشغال بريطانيا في حربها المذكورة، وتعتبر الباخرة الروسية جيلياك Gilyak (٧٠) إحدى تلك السفن التي قامت بزيارة الخليج (٧١) في ١٨٩٩م، تلك الزيارة التي قال عنها لوريمر :" هي بداية ما لا يمكن أن يسمى بغير سلسلة المظاهرات البحرية الروسية التي تستهدف أغراضاً سياسية". وقال معللاً ذلك : «فروسيا لم تكن لها مصالح مباشرة في منطقة الخليج، كما لم يكن الخليج واقعاً في طريق سفنها الحربية المتجهة إلى الشرق الأقصى (٧٢) ». ومن هنا نوَّهَ لوريمر أسباب ذلكم التواجد المناهض لبريطانيا في الخليج وسائر المشرق العربي قائلاً :" لقد استفاد نشاط ومطامع كل من فرنسا وروسيا الذي كان قد بدأ يتعاظم خلال السنوات الماضية ولقي تشجيعاً واضحاً من ارتباك الدبلوماسية البريطانية وحروب بريطانيا المتعثرة في جنوب أفريقيا من ١٨٩٩م إلى ١٩٠٢م (٧٣) ». ولقد كان بإمكان منافسي بريطانيا، لو أحسنوا اهتبال الفرص التي لم تتكرر، أن يستغلوا ذلكم الانشغال الإنجليزي لمناجزة وجوده في المشرق العربي، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث. لذا تَحَسَّرَ السلطان عبد الحميد الثاني على ضياع تلك الفرصة السانحة قائلاً : «لو أراد الروس والفرنسيون والألمان أثناء حرب البوير Boer هدمَ صرح الإنكليز في الهند لاستطاعوا، بفضل تأييدٍ منا، أن يهدموا هذا الصرح، لكنهم لم يتحركوا في الوقت المناسب فأضاعوا الفرصة الذهبية. لقد كان الوقت مناسباً لمحاسبة الإنكليز على ما اقترفوه بحق الهنود المساكين، وإننا لنأسف على الفرصة الضائعة (٧٤)".

الخاتمة

لقد أظهرت حرب البوير مدى الاهتمام الكبير الذي حظيت به في صحافة المشرق العربي، ولم يكن ذلك الاهتمام سوى رغبةً من أصحاب تلك

الصحافة لتبيان مدى تأييدهم للحقوق الإنسانية التي خالفتها بريطانيا في حربها مع البوير، هذا أولاً، ثانياً كانت تلك الصحافة تظهر مزيد بَسَطِها لما يحل بالإنجليز في تلك الحرب من هزائم وانتكاسات يرى أصحاب تلك الصُّحِف بأنها من مصلحة الدولة العثمانية المناوئة للهيمنة البريطانية على أراضيها في المشرق العربي. وكانت تلك هي النغمة السائدة في تلك الصُّحُف، ولم يخالف تلك النغمة سوى السيِّد محمد رشيد رضا في مجلته المنار، وكذا فعلت مجلة بيروت. أما الدول العظمى المناهضة لبريطانيا فقد وجدت فرصة سانحة لتحقيق مصالح جديدة في المشرق العربي، مستغلين انشغال الإنجليز في حربهم مع البوير.

الهوامش :

(١) جديون س . وير – تاريخ جنوب أفريقيا – ترجمة : عبد الرحمن عبد الله الشيخ – دار المريخ – الرياض – ط . ت بلا) – ص ٤٠ .

(٢) مستعمرة الكاب Cape Province : أصل التسمية من كلمة كابو تورمنتوسو ، وتعني : كاب العواصف ، أو ((رأس العواصف)) . سماها بذلك المكتشف البرتغالي بارثلومو دي ياز عام ١٤٨٨م . وتحوّلَ الاسم لـــ ((رأس الرجاء الصالح)) على يدِ مللك البرتغال جون الثاني . تم إنشاء أول مستوطنة أوروبية دائمة فيها عام ١٦٥٢م . وشَمِلَ اسم الكاب على المنطقة الممتدة من تلك المقاطعة ، والتي وتُعد الإقليم الأم لجنوب إفريقيا ؛ لأنها أولى مناطق استقرار الأوروبيون / الهولنديون . وهيُ من أكبر مقاطعات جنوب إفريقيا الأربع اليوم ؛ إذ تحتلُّ الطَّرفين الغربي والجنوبي من القارة الإفريقية . وتتميز الكاب بتنّوع المناظر الطبيعية والحياة النباتية والمناخ والتُّربة الجيدة والثروة . انظر : جديون س . وير – المرجع السابق – ص ٣٥ – ٣٨ .

(٣) وهم الذين جلوا عن موطنهم في فرنسا بعد إشهار الملك لويس الرابع عشر قراراً عُرِفَ بـــــ ((قرار نانت L'edit de Nantes)) ، فامتزج الفرنسيون بالهولنديين امتزاج الخمر بالماء . انظر : الأب لويس شيخو اليسوعي – البويرس وبلاد الترنسفال نبذة تاريخية جغرافية – مجلة المشرق – العدد ٢٢ – السنة ٢ – ١٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٩٩م – ص ١٠١٠

(٤) لاقى البويرس مقاومة عنيفة من قبائل الزولو الأفريقية كلما توغلوا شمالا . وقد اشتهر البويرس ببسالتهم القتالية حيث واجهوا مقاومة شرسة من الزولو إلا أنهم استطاعوا التغلب عليهم رغم قلتهم العددية . انظر : مجلة المقتطف – الترانسفال والاشنتي – المجلد العشرون – ج٢ – فبراير ١٨٩٦ – ص ١١٤ .

(٥) جديون س . وير – المرجع السابق – ص ٦١ .

(٦) الأب لويس شيخو – المقالة السابقة – ١٠١٠ .

(٧) جديون س . وير – المرجع السابق – ص ٦٣ .

(٨) شوقي عطا الله الجمل - تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة - ط٢ - ١٩٨٠م - ص ٢٦٦ .

(٩) كانت أشهر تلك الحروب بين الفريقين حربان ؛ نشبت الأولى ما بين عامي ١٨٨٠م و١٨٨١م. بينما وقعت الحرب الثانية بين ١١ أكتوبر ١٨٩٩ م ، و ٣١ مايو ١٩٠٢م ، وهي المعنية هنا .

(١٠) ترانسفال Transvaal : مقاطعة سابقة كانت تقع في الشمال الشرقي لجنوب أفريقيا ، بين نهري ((ليمبوبو)) من الشمال والغرب (الذي يمثل الحدود بين زمبابوي وبوتسوانا) و ((فال)) من الجنوب ، وفي شرقها تقع موزمبيق وسوازيلاند ، وتضمنت منطقة زوتبانسبرغ . سكنها الأفارقة ذوو البشرة السوداء الناطقين بلغة بانتو في حدود العام ١٨٨٠م ، ثم احْتُلَّت بواسطة فلاحي البوير الذين حولوها إلى دولة مستقلة وأطلقوا عليها اسم الجمهورية الأفريقية الجنوبية في عام ١٨٥٦م . وفي عام١٨٧٧م احتلت بريطانيا العظمى المنطقة ، على أن قدوم المستوطنين بدأ مع عام ١٨٨٦م حين اكْتُشِفَ الذهب والماس ، فتوترت العلائق بين البويرس وبريطانيا . وفيما بعد تشكلت ترانسفال كمستعمرة تاجية في عام ١٩٠٠م ؛ بعد حرب البوير (١٨٩٩ - ١٩٠٢) .

انظر : الأب لويس شيخو - مجلة المشرق - المقالة السابقة - ص ١٠١٠ . ولا وجود حالي للمقاطعة ، إلا أنها تمثل مقاطعات غاوتنغ وليمبوبو ومبومالانغا وجزء من مقاطعة الغرب الشمالي .

(١١) مجلة المقتطف - المقالة السابقة - ص ١١٣ .

(١٢) خليج ديلاغو : مستعمرة برتغالية متهاوية ، في تلك الفترة المعنية ، وهي المفتاح البحري للترنسفال . والخليج واقعٌ اليوم في موزمبيق . انظر : مجلة المقتطف - المقالة السابقة - ص ١١٧ . أيضاً : أ . تايلر - الصراع على السيادة في أوروبا ١٨٤٨/ ١٩١٨م - ترجمة كاظم هاشم نعمة ويونيل يوسف عزيز - دار الكتب - بغداد - ط (بلا) - ١٩٨٠م - ص ٤١٨ .

(١٣) هــ . أ . ل . فشر – تاريخ أوروبا في العصر الحديث (١٧٨٩ / ١٩٥٠م) – ترجمة : أحمد نجيب هاشم وزميله – دار المعارف – القاهرة – ط ٩ – ١٩٩٣ م – ص ٤٠٥ .

(١٤) مجلة المقتطف – المقالة السابقة – ص ١١٥ .

(١٥) هــ . ج . ويلز – موجز تاريخ العالم – ترجمة : عبد العزيز توفيق جاويد – مكتبة النهضة المصرية – القاهرة – ط (بلا) – ١٩٥٨ م – ص ٣٣٩ .

(١٦) مجلة الجامعة – تاريخ مسألة الترانسفال من بدايتها إلى الآن ، الوجه السياسي – ج١٥ – السنة١ – ٩ جمادى الثاني ١٣١٧هــ / ١٥ تشرين أول (أكتوبر) ١٨٩٩م – ص ٣٤١ .

(١٧) لقد أثيرت موجة الهجرات باكتشاف مناجم الذهب منذ ١٨٨٠م سيَّما في ١٨٨٤م في الترانسفال والأورانج . وفي هذين الإقليمين حُسِبَ فيها منذ ١٨٩٥م عدد الأوروبيين بـــ ٦٠٠٠٠ أوروبي ، دُلَّ عليهم تحت اسم هولنديين من ويتلاندرز Witlonders، وكان لهم دورٌ رئيسي في تاريخ أفريقيا الجنوبية . ولما كانت السياسة الإنجليزية تريد أن وَضْعَ يَدِها على الترانسفال ؛ استخدمت الويتلاندرزيين، ثم أصبحوا أكثر عدداً من البويرس Boers . وكانت قضية حق التصويت للويتلاندرز السبب الذي استخدمته إنجلترا لتفجير حرب البويرس . انظر : مجلة المقتطف – المقالة السابقة – ص ١١٦ . أيضاً : بيير رونوفن – التوسع الأوروبي في العالم ، أشكاله وطرقه ١٨٦٩ / ١٩١٤ م – ترجمة : نور الدين حاطوم – دار الفكر المعاصر – دمشق – ط ١ – ١٤١٨ هــ – ص ١٨١ .

(١٨) سيسل جون رودس : من عرق أنجلو سكسوني ، ورجل أعمال اشتهر بعنصريته وشوفينيته ، اشتهر بالبحث عن التجارة الطائلة من خلال الاتِّجار بالماس والذهب في أمريكا الجنوبية . تولى منصب رئيس وزراء مستعمرة الكاب عام ١٨٩٠م . شهد عصره توسعا ضخما في الإمبراطورية البريطانية . عُرِفَ رودس بلقب ((ملك الماس)) ؛ إذ أنشأ أضخم شركة للماس آنذاك . مات عام ١٩٠٢م . انظر : الإمبراطور الألماني غليوم الثاني – مذكرات غليوم الثاني إمبراطور ألمانيا – نقلها للعربية : أسعد داغر ومحب الدين الخطيب – المطبعة السلفية – القاهرة – ط

(بلا) ١٣٤١ هـ - ص ٧٥ - ٧٧ . أيضاً : مجلة الجامعة العثمانية - أخبار داخلية - ج٢ - السنة الأولى - ٢٠ ذو القعدة ١٣١٦ هـ / أول أبريل ١٨٩٩م - ص ٣١ . كذا : نفس المجلة - أخبار خارجية - ج٥ السنة الأولى - ٥ محرم ١٣١٧هـ / ١٥ أيَّار (مايو) ١٨٩٩م - ص ٨٩ . وانظر : فشر - المصدر السابق - ص ٤٠٥ . أيضاً : بيير رونوفن - المرجع السابق - ص ٣٥ .

(١٩) بول كروجر : سياسيٌّ بويري من الترنسفال ، عارض النفوذ البريطاني هناك ، ثم صار رئيسًا لجمهورية البوير لمدة عشرين عاما . يصفه المؤرخ البريطاني فشر بأنه " خشن الخلق ، وعنيف وتقي وخبيث وداهية " . مات في مدينة كلارس ، من أعمال سويسرا عام ١٩٠٤م . انظر : الأب يوسف خليل اليسوعي - أهم الحوادث في السنة الغابرة - مجلة المشرق - العدد١ - السنة الثامنة - ١ كانون الثاني / يناير ١٩٠٥ م - ص ٨١ . أيضاً : فشر - المصدر السابق - ص ٤٠٨ .

(٢٠) سميت بغارة جيمسن نسبة إلى قائدها جيمسن ، وهو صديق رودس ، ووكيله . انظر : مجلة المقتطف - المقالة السابقة - ص ١١٧ . أيضاً : أ . تايلر - المصدر السابق - ص ٤١٨ . وفشر - المصدر السابق - ص ٤٠٩ .

(٢١) شوقي الجمل - المرجع السابق - ص ٢٩٠ .

(٢٢) جديون س . وير - المرجع السابق - ص ١٨١ .

(٢٣) مجلة الجامعة - أسباب انتصار البوير وانغلاب الإنكليز - ج٢١ / ٢٢- السنة ١ - ١ شوال ١٣١٧ هـ / ١ فبراير ١٩٠٠م - ص ٥٤٢ - ٥٤٣ .

(٢٤) كتشنر : اللورد كتشنر وُلِدَ في ١٨٥٠م بإيرلندة . كان القائد الأعظم Field Marshal للجيش البريطاني ورجل دولة . بدأ كضابط بسلاح المهندسين الملكي ثم عين حاكماً على المستعمرات البريطانية بمنطقة البحر الأحمر في عام ١٨٨٦م ، ومن ثم أصبح القائد الأعلى للقوات المسلحة بالجيش المصري في عام ١٨٩٢م . قام بمبادرة وحشية عندما أمر بإخراج جثة محمد أحمد (مهدي السودان) وتمزيقها واخذ جمجمته وإرسالها إلى بريطانيا انتقاما مما فعله دراويش المهدي بغوردون وحاميته . وضع هذا القائد مثالا خطيرا في تاريخ السودان ونقطة تحول خطيرة حين قام بمنع الصلاة والأذان لعاميين متتاليين في (أم درمان) معقل المهدية .

انظر : مجلة الجامعة العثمانية - أخبار خارجية - ج٢ - السنة الأولى - ٢٠ ذو القعدة ١٣١٦ هـ / ١ نيسان (إبريل)١٨٩٩م - ص ٣٠ .

(٢٥) جديون س . وير - المرجع السابق - ص ١٨٤ - ١٨٥ .

(٢٦) الأب لويس شيخو اليسوعي - نظرٌ في أهم الحوادث في السنة المنصرمة - مجلة المشرق - العدد ٨ - السنة السادسة - ١٩٠٣ م - ص ٨٢ .

(٢٧) إلا ما كان من ((جريدة بيروت)) ، و ((المنار)) كما سيأتي

(٢٨) فشر - المصدر السابق - ص ٤١١ .

(٢٩) مجلة المقتطف : الصادرة بمصر ، لصاحبيها : د. يعقوب صرُّوف ، د. فارس نمر .

(٣٠) مجلة المقتطف - الترنسفال والأشنتي (مقالة سابقة) - ص ١١٣ - ١١٨ .

(٣١) مجلة المقتطف - المقالة السابقة - ص ١١٣ .

(٣٢) مجلة المقتطف - المقالة السابقة - ص ١١٤ - ١١٥ .

(٣٣) مجلة المقتطف - خبر عن الترانسفال بعنوان ((حادثة الترانسفال)) ورد في باب (أخبار الأيام) - المجلد ٢٠ - ج٣ - مارس ١٨٩٩م - ص ١٦٠ . وخبرٌ آخر بعنوان ((الترانسفال)) ورد في باب (أخبار الأيام) - نفس المجلد - ج٤ - مارس ١٨٩٩م - ص ٢٣٩ .

(٣٤) مجلة الجامعة : أنشأها فرح أنطون في مارس ١٨٩٩م في الإسكندرية . ثمَّ حُجِبَت فأصدرها من نيويورك سنة ١٩٠٧م بذات الاسم . انظر : الكونت فيليب دي طرَّازي - تاريخ الصحافة العربية - ج٢ - المطبعة الأدبية - بيروت - ط (بلا) - ١٩١٣م - ص ٣٨ - ١٧١ ، أيضاً : ج٤ - ص ٣٣٦ . وخير الدين الزركلي - الأعلام قاموس وتراجم- ج٥ - دار العلمْ للملايين - بيروت - ط ١٤ - ١٩٩٩م - ص ١٤١ .

(٣٥) مثال ذلك : مجلة الجامعة العثمانية - أخبار داخلية - ١ أبريل ١٨٩٩م- ص ٣١. و ١ مايو ١٨٩٩م - ص ٦٨ ، و١٥ مايو ١٨٩٩م - ص ٨٩ ، و ١٥ يوليو ١٨٩٩م - ص ١٦٨ ، و ١ أغسطس ١٨٩٩م - ص ١٨٨ .

(٣٦) مجلة الجامعة – تاريخ مسألة الترانسفال من بدايتها إلى الآن الوجه السياسي – ١٥ أكتوبر ١٨٩٩م – ص ٣٤٠ .

(٣٧) المقالة السابقة – ص ٣٤١ .

(٣٨) المقالة السابقة – ص ٣٤٢ .

(٣٩) مجلة الجامعة – الترانسفال ظالمة أو مظلومة ، الإنكليز والبوير بين السماء والأرض ، دفاع اللورد شاتام عن الإنكليز – ديسبمبر ١٨٩٩م – ص ٤٠١ .

(٤٠) المقالة السابقة – ص ٤٠٢ – ٤٠٣ .

(٤١) المقالة السابقة – ص ٤٠٣ – ٤٠٤ .

(٤٢) المقالة السابقة – ص ٤٠٥ .

(٤٣) مجلة الجامعة – الترانسفال ظالمةٌ أم مظلومة ، دفاع المستر غلادستون عن البوير – فبراير ١٩٠٠م – ص ٤٩٦ – ٤٩٨ .

(٤٤) المقالة السابقة – ص ٤٩٩ .

(٤٥) مجلة الجامعة – أسباب انتصار البوير وانغلاب الانكليز – فبراير ١٨٩٩م – ص ٥٤٢ .

(٤٦) المقالة السابقة – ص ٥٤٢ – ٥٤٣ .

(٤٧) مجلة الجامعة – كتابٌ إلى البوير الأبطال – أبريل ١٩٠٠م – ص ١٦

(٤٨) مجلة المشرق : مجلةٌ كاثوليكية تصدر مرتين في الشهر برسومٍ وتصاوير ، تحوي مباحث علمية وأدبية وفنية ، انطلقت سنة ١٨٩٩م بإدارة آباء كلية القديس يوسف ببيروت ، لصاحب امتيازها الأب لويس شيخو اليسوعي . وتُطبع ببيروت بالمطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين . انظر : فيليب دي طرازي – المصدر السابق – ج٤ – ص ١٠٨ .

(٤٩) الأب لويس شيخو اليسوعي : انصرف إلى تعليم الآداب العربية في كلية القديس يوسف ، ثم أنشأ مجلة المشرق ببيروت سنة ١٨٩٩م فاستمر يكتب أكثر مقالاته مدة ٢٥ سنة . ويُعَدّ من المؤلفين المُكثرين . مات سنة ١٩٢٧م . انظر : خير الدين الزركلي – المصدر السابق – ج ٥ – ص ٢٤٦ .

(٥٠) الأب لويس شيخو اليسوعي - البويرس وبلاد الترانسفال (مقالة سابقة) - ص ١٠٠٩

(٥١) الأب لويس شيخو اليسوعي - البويرس وبلاد الترانسفال (مقالة سابقة) - ص ١٠١٧ - ١٠١٨ .

(٥٢) السيد رشيد رضا ربما لا يعتدّ بعثمانية الصحف المناوئة للإنجليز (مثل : الجامعة، والمشرق) ؛ تبعاً لوجهته التي تقول أن من مصلحة الدولة العلية علوّ شأن الإنجليز . كما سيأتي تبيانه في مقالته تلك .

(٥٣) مجلة المنار - مقالة لمحمد رشيد رضا بعنوان ((حرب الإنكليز والبوير)) - ١٦ رجب ١٣١٩ هـ / ٢٩ أكتوبر ١٩٠١م - مجلد ٤ - ص ٦٣٤ . وانظر للسيد رشيد رضا فرحه في انتصارات الإنجليز في خبر أورده بعنوان ((انتصار الإنكليز على البوير)) - في ذات المجلد والسنة .

(٥٤) مجلة المنار - مقالة سابقة - ص ٦٣٤ - ٦٣٥ .

(٥٥) عبد الله أفندي رزق الله - الحرب والسلم - مجلة المشرق - العدد ١ - السنة ٢ - ١ كانون الثاني / يناير ١٨٩٩م - ص ٧٠٧ .

(٥٦) فشر - المصدر السابق - ص ٤١٠ .

(٥٧) تقرير ورد في الصحيفة الفرنسية ((لو غوليه Le Gaulais)) بتاريخ ٢١ أكتوبر ١٩٠١م ، بعنوان ((المسألة الكويتية Le Question De Koweit)) .

(٥٨) صحيفة الـ ((لو فيغارو الفرنسية Le Figaro)) مقال بعنوان ((Sur le Golfe Persique)) ، بتاريخ ٣ أكتوبر ١٩٠١م . ومقالٌ لنفس الصحيفة بعنوان ((A llemagne et Angielerre)) : ٨ أكتوبر ١٩٠١م .

(٥٩) اشتهرت تلك البرقية واتسع صداها حتى سمّيَت بـ ((حادثة تلغراف كروغر)) . انظر : نفس المصدر - ص ٧١ . أيضاً : مجلة المقتبس - مقالة ((الحرب والتاريخ)) - مجلد ٨ جزء ٢ - سنة ١٣٣١هـ / ١٩١٣م - ص ٦٠٠ .

(٦٠) انظر : نفس المصدر- ص ٧٢ . أيضاً : أ . تايلر -المصدر السابق - ص ٤١٩.

(٦١) كلمة للمؤرخ أ . جي تايلر - المصدر السابق - ص ٤٢٠ .

(٦٢) نفسه .

(٦٣) كرين برينتون – تشكيل العقل الحديث – ترجمة : شوقي جلال – الهيئة المصرية العامة للكتاب (مهرجان القراءة للجميع) – القاهرة – ط (بلا) – ٢٠٠٤ م – ص ٢٣٠ . هـ . ويلز – معالم تاريخ الإنسانية – ترجمة : عبد العزيز توفيق جاويد – الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة – ط (بلا) – ١٩٩٤م – ص ٤٢١ .

(٦٤) قرَّرَ ذلك : جمال زكريا في كتابه تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر – ج٢– دار الفكر – القاهرة – ط ٢ – ٢٠٠١ – ص ٤٤٥ . وقرَّرهُ أيضاً : محمد عبد الرحيم وزميله – أوروبا المعاصرة ١٨٧٠ / ١٩٣٩م – المطبعة الأميرية – القاهرة – ط (بلا) – ١٩٤٨م – ص ١٨٧ .

(٦٥) صحيفة الـ ((لو فيغارو الفرنسية Le Figaro)) ، بعنوان ((A llemagne et Angielerre)) ، بتأريخ ٨ أكتوبر ١٩٠١م .

(٦٦) لوريمر – دليل الخليج (القسم التاريخي) – ج١– ترجمة ديوان حاكم قطر – مطابع علي بن علي – الدوحة – ط ، ت (بلا) – ٥٤٥ – ٥٤٦ .

(٦٧) دروم : سفينة فرنسية حكومية كانت أكثر مهماتها دبلوماسية وليست عسكرية أو حربية . انظر : لوريمر – المصدر السابق (القسم التاريخي) – ج٣ – ص ١٥٣٩ .

(٦٨) الأرشيف الفرنسي في وزارة الخارجية بباريس ، AE, NE, Mascate 3- 7, Vice-Consulat de France A Bagdad, N'6 ، رسالة من نائب القنصل الفرنسي في بغداد (جي . رواي) ، بتأريخ ٥ يوليو ١٩٠١م .

(٦٩) جمال زكريا – تاريخ الخليج العربي ... إلخ (مرجع سابق) – ج٢ – ص ٤٧٥ . وسيتأكد ذلك التقرير مع مطلب" المنافسة الفرنسية – الروسية ... إلخ " الآتي بعد قليل هنا .

(٧٠) جيلياك Gilyak : إحدى السفن الروسية المكلفة بتنفيذ المخططات الروسية في المنطقة . وكان لها غاطس يبلغ عمقه ١٠ أقدام ، لكنه مسلح تسليحاً ثقيلاً . انظر : لوريمر – مصدر سابق (القسم التاريخي) – ج١ – ص ٥٢٥ .

(٧١) طارق الحمداني – العثمانيون والروس في الخليج العربي ، دراسة في العلاقات السياسية بينهما ١٨٧٨ / ١٩٠٧م – ندوة رأس الخيمة عن الصلات التاريخية بين الخليج العربي والدولة العثمانية – مركز الوثائق – رأس الخيمة – ط١ – ٢٠٠١م – ص ٣٣٠ .

(٧٢) لوريمر – المصدر السابق (القسم التاريخي) – ج١ – ص ٥٢٥ .

(٧٣) لوريمر – دليل الخليج / مصدر سابق (القسم التاريخي) – ج١ – ص ٥١١ .

(٧٤) السلطان عبد الحميد – مذكراتي السياسية ١٨٩١ / ١٩٠٨م – مؤسسة الرسالة – بيروت – ط١ – ١٣٩٧ هـ – ص ١٤٦ .

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : الوثائق :

* الأرشيف الفرنسي في وزارة الخارجية بباريس، AE, NE, Mascate 3- 7, Vice-Consulat de France A Bagdad, N'6، رسالة من نائب القنصل الفرنسي في بغداد (جي. رواي)، بتأريخ ٥ يوليو ١٩٠١م.

ثانياً : المصادر والمراجع المطبوعة (العربية والمعربة).

(١) أ. تايلر، الصراع على السيادة في أوروبا ١٨٤٨/ ١٩١٨م - ترجمة كاظم هاشم نعمة ويونيل يوسف عزيز - دار الكتب - بغداد - ط (بلا) - ١٩٨٠م.

(٢) الإمبراطور الألماني غليوم الثاني، مذكرات غليوم الثاني إمبراطور ألمانيا - نقلها للعربية : أسعد داغر ومحب الدين الخطيب - المطبعة السلفية - القاهرة - ط (بلا) ١٣٤١ هـ.

(٣) بيير رونوفين، التوسع الأوروبي في العالم، أشكاله وطرقه ١٨٦٩ / ١٩١٤ م - ترجمة : نور الدين حاطوم - دار الفكر المعاصر - دمشق - ط ١ - ١٤١٨ هـ.

(٤) جديون س. وير، تاريخ جنوب أفريقيا - ترجمة : عبد الرحمن عبد الله الشيخ - دار المريخ - الرياض - ط. ت (بلا).

(٥) جمال زكريا، تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر - ج٢- دار الفكر - القاهرة - ط ٢ - ٢٠٠١.

(٦) خير الدين الزركلي، الأعلام قاموس وتراجم- ج٥ - دار العلم للملايين - بيروت - ط ١٤ - ١٩٩٩م.

(٧) السلطان عبد الحميد مـــذكراتي الـــسياسية ١٨٩١ / ١٩٠٨م - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط١ - ١٣٩٧ هـــ.

(٨) شوقي عطا الله الجمل، تاريخ كشف أفريقيـــا واســـتعمارها - مكتبـــة الأنجلو المصرية - القاهرة - ط٢ - ١٩٨٠م.

(٩) طارق نافع الحمداني العثمانيون والروس في الخليج العربي، دراسة في العلاقات السياسية بينهما ١٨٧٨ / ١٩٠٧م - ندوة رأس الخيمة عـــن الصلات التاريخية بين الخليج العربي والدولة العثمانية - مركز الوثائق - رأس الخيمة - ط١ - ٢٠٠١م.

(١٠) كرين برينتون، تشكيل العقل الحديث - ترجمة : شـــوقي جـــلال - الهيئة المصرية العامة للكتاب (مهرجان القراءة للجميع) - القاهرة - ط (بلا) - ٢٠٠٤ م.

(١١) الكونت فيليب دي طرّازي، تاريخ الصحافة العربية - ج٢ - المطبعة الأدبية - بيروت - ط (بلا) - ١٩١٣م.

(١٢) لوريمر، دليل الخليج (القسم التاريخي) - ترجمة ديوان حاكم قطر - مطابع علي بن علي - الدوحة - ط، ت (بلا).

(١٣) محمد عبد الرحيم وزميله، أوروبـــا المعاصـــرة ١٨٧٠ / ١٩٣٩م - المطبعة الأميرية - القاهرة - ط (بلا) - ١٩٤٨م.

(١٤) هـــ. أ. ل. فشر تاريخ أوروبـــا فـــي العـــصر الحـــديث (١٧٨٩ / ١٩٥٠م) - ترجمة : أحمد نجيب هاشم وزميلـــه - دار المعـــارف - القاهرة - ط ٩ - ١٩٩٣ م.

(١٥) هـــ. ج. ويلز، موجز تاريخ العالم - ترجمة : عبد العزيز توفيـــق جاويد - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - ط (بلا) - ١٩٥٨ م.

(١٦) هـ. ج. ويلز، معالم تاريخ الإنسانية – ترجمة : عبد العزيز توفيق جاويد – الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة – ط (بلا) – ١٩٩٤م.

ثالثاً : الصحف والمجلات العربية والأجنبية :

١. ((لو غوليه Le Gaulais)) الفرنسية، تقريرٌ وَرَدَ بتاريخ ٢١ أكتوبر ١٩٠١م، بعنوان ((المسألة الكويتية Le Question De Koweit)).

٢. ((لو فيغارو الفرنسية Le Figaro))، بعنوان ((A llemagne et Angielerre)) ٨ أكتوبر ١٩٠١م.

٣. ((لو فيغارو الفرنسية Le Figaro)) مقال بعنوان ((Sur le Golfe Persique))، بتاريخ ٣ أكتوبر ١٩٠١م. ومقالٌ لنفس الصحيفة بعنوان ((A llemagne et Angielerre)) : ٨ أكتوبر ١٩٠١م.

٤. مجلة الجامعة – أسباب انتصار البوير وانغلاب الإنكليز – ج٢١ / ٢٢- السنة ١ – ١ شوال ١٣١٧ هـ / ١ فبراير ١٩٠٠م.

٥. مجلة الجامعة – أسباب انتصار البوير وانغلاب الانكليز – فبراير ١٨٩٩م.

٦. مجلة الجامعة – الترانسفال ظالمةٌ أم مظلومة، دفاع المستر غلادستون عن البوير – فبراير ١٩٠٠م.

٧. مجلة الجامعة – الترانسفال ظالمة أو مظلومة، الإنكليز والبوير بين السماء والأرض، دفاع اللورد شاتام عن الإنكليز – ديسمبر ١٨٩٩م.

٨. مجلة الجامعة – تاريخ مسألة الترانسفال من بدايتها إلى الآن، الوجه السياسي – ج١٥ – السنة١ – ٩ جمادى الثاني ١٣١٧هـ / ١٥ تشرين أول (أكتوبر) ١٨٩٩م.

٩. مجلة الجامعة – تاريخ مسألة الترانسفال من بدايتها إلى الآن الوجه السياسي – ١٥ أكتوبر ١٨٩٩م.

١٠. مجلة الجامعة – كتابٌ إلى البوير الأبطال – أبريل ١٩٠٠م.

١١. مجلة الجامعة العثمانية – أخبار خارجية – ج٢ – السنة الأولى – ٢٠ ذو القعدة ١٣١٦ هـ / ١ نيسان (إبريل)١٨٩٩م.

١٢. مجلة الجامعة العثمانية – أخبار خارجية – ج٥ السنة الأولى – ٥ محرم ١٣١٧هـ / ١٥ أيّار (مايو) ١٨٩٩م – ص ٨٩.

١٣. مجلة الجامعة العثمانية – أخبار داخلية – ١ أبريل ١٨٩٩م– ص ٣١. و ١ مايو ١٨٩٩م، ١٥ مايو ١٨٩٩م، و ١٥ يوليو ١٨٩٩م، و ١ أغسطس ١٨٩٩م.

١٤. مجلة الجامعة العثمانية – أخبار داخلية – ج٢ – السنة الأولى – ٢٠ ذو القعدة ١٣١٦ هـ / أول أبريل ١٨٩٩م.

١٥. مجلة المشرق – الأب لويس شيخو اليسوعي – نظرٌ في أهم الحوادث في السنة المنصرمة – العدد ٨ – السنة السادسة – ١٩٠٣ م.

١٦. مجلة المشرق – الأب يوسف خليل اليسوعي – أهم الحوادث في السنة الغابرة – العدد١ – السنة الثامنة – ١ كانون الثاني / يناير ١٩٠٥ م.

١٧. مجلة المشرق – عبد الله أفندي رزق الله – الحرب والسلم – العدد ١ – السنة ٢ – ١ كانون الثاني / يناير ١٨٩٩م.

١٨. مجلة المشرق – مقال للأب لويس شيخو اليسوعي – البويرس وبلاد الترنسفال نبذة تاريخية جغرافية – العدد ٢٢ – السنة ٢ – ١٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٩٩م.

١٩. مجلة المقتبس – مقالة ((الحرب والتاريخ)) – مجلد ٨ جزء ٢ – سنة ١٣٣١هـ / ١٩١٣م.

٢٠. مجلة المقتطف – الترانسفال والاشنتي – المجلد العشرون – ج٢ – فبراير ١٨٩٦.

٢١. مجلة المقتطف – خبرٌ بعنوان ((الترانسفال)) ورد في باب (أخبار الأيام) – نفس المجلد – ج٤ – مارس ١٨٩٩م.

٢٢. مجلة المقتطف – خبر عن الترانسفال بعنوان ((حادثة الترانسفال)) باب أخبار الأيام – المجلد ٢٠ – ج٣ – مارس ١٨٩٩م.

٢٣. مجلة المنار – مقالة لمحمد رشيد رضا بعنوان ((حرب الإنكليز والبوير)) – ١٦ رجب ١٣١٩ هـ / ٢٩ أكتوبر ١٩٠١م – مجلد ٤. كذا : خبر أورده بعنوان ((انتصار الإنكليز على البوير)) – في ذات المجلد والسنة.

مشكلة الحدود بين قطر والبحرين

(دراسة تاريخية)

د. فيحان محمد العتيبي

استاذ التاريخ الحديث والمعاصر

جامعة الكويت

مدخل :

الحدود هي الخط الجغرافي الفاصل بين دولتين، سواء مر هذا الخط على اليابس أو وسط مياه البحر أو النهر أو البحيرة، فهو يشكل بالنسبة إلى الأمم نوع من تجسيد الهوية الوطنية، ومع تطور الشعوب وظهور الدول تحولت الحواجز الطبيعية إلى حدود بين الدول على طول الأنهار الكبيرة والصحاري الشاسعة والجبال والبحيرات.

والحدود الدولية ظاهرة بشرية حديثة، لم تكن الحاجة تدعو إلى تخطيط الحدود في مطلع التاريخ البشري، إلا إقامة الأسوار القوية العالية بقصد الحماية وليس تحديد مناطق النفوذ، ثم تطور الإنسان وأخذ يترك مناطق محايدة بينه وبين جيرانه عرفت بالتخوم، وهي تمثل أقاليم انتقال بين سيادة دولتين متجاورتين، عبارة عن خط فاصل طبيعي يصعب اجتيازه إلا من خلال نقاط معينة للمراقبة والدفاع وتحصيل الضرائب على التجارة، وقد عرفت في التاريخ الإسلامي باسم الثغور. وخلال القرنين الماضيين زادت أعداد الوحدات السياسية، وزادت حاجة الدول إلى استغلال مناطق التخوم

والمناطق العازلة بفعل زيادة عدد السكان، ومن ثم كانت الحاجة ملحة للتحديد الدقيق الذي يؤكد الفصل المحدد بين سيادة دولة ودولة أخرى.

وتعتبر الحدود السياسية بين الدول (وهي إما حدود طبيعية أو وهمية مصطنعة سياسيا) معالم لتحديد هوية شعوب متجاورة وكذلك لتحديد مجال سيادة وحق الانتفاع بالثروات وحق تمييز نظم سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية سائدة في مناطق دون مناطق أخرى. فهي إطارات تحدد كيانات منفصلة وتشمل الحدود البرية والبحرية التي تفصل فصلا "قاطعا" بين مصالح وحقوق دول وشعوب متجاورة.

لقد لعب الاستعمار الأوربي وظروف الحرب العالمية الأولى والثانية ومصالح الغرب دورا واضحا في خلق الحدود بين الأقطار العربية وجعلها بؤر توتر ونزاع وقلق تعيق إقامة علاقات حسن جوار مع الدول المجاورة وتستنزف طاقات وثروات وجهود الوطن العربي في قضايا سياسية وأمنية وتسليح ونزاعات وحروب بدلا من استثمارها في البناء والتنمية وتحسين مستوى معيشة سكان الوطن العربي.

ويرجع ترسيم الحدود العربية الداخلية إلى عهود قريبة نسبيا، فقد تم ترسيم هذه الحدود من قبل الدول الأوربية المستعمرة للوطن العربي على أسس سياسية تراعي مصالح الدول الغربية قبل انسحابها ومنح الاستقلال للدول العربية بين الحربين العالميتين أو بعد الحرب العالمية الثانية، كما عملت الدول المستعمرة على توزيع تركة الدولة العثمانية بعد سقوطها في الحرب العالمية الأولى في الجناح الآسيوي والأفريقي دون مراعاة لمصالح الأمة العربية، وأوجدت مناطق نزاع حدودية بين الدول العربية بخلق مناطق مشتركة غير واضحة معالم السيادة وأبقت مفاتيح حل هذه المناطق غير المرسومة بأيدي الدول المستعمرة وخاصة بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وأسبانيا.

وبعد رحيل الاستعمار في صورته التقليدية وحصول الدول العربية على استقلالها السياسي، وبعد ظهور الثروات النفطية وغير النفطية برزت إلى السطح مظاهر الصراع الحدودي العربي- العربي، وتم التعامل مع بعضها من خلال الاجتماعات والاتفاقات الثنائية بين الدول العربية لفك الاشتباك ونزع فتيل الأزمات بالطرق السلمية، وساهمت جامعة الدول العربية في نصيب من هذه الحلول والاتفاقيات.

ويندر أن نجد دولة عربية واحدة ليس لديها مشكلة حدودية مع جيرانها سواء العرب أو غير العرب بما يترتب عليها من عدم الاستقرار السياسي بين هذه الدول من جهة وإعاقة خطط وبرامج التنمية المشتركة من جهة ثانية وقطع أوصال الشعب العربي وحرمانه من التواصل والتنقل بين الحدود العربية من ناحية ثالثة، وصرف النظر عن برامج وخطط تنمية المناطق المتنازع عليها بين هذه الدول ورفع مستوى معيشة سكانها. وتشكل النزاعات الحدودية بين الدول العربية أحد أهم العوامل لزرع الريبة والشك وعدم الثقة والتكامل بين هذه الدول قيادات وشعوبا.

سنتناول في هذه الدراسة النزاع الحدودي القطري – البحريني وفق المحاور التالية:

١. ظروف تشكل أو ظهور إمارتي البحرين وقطر وتطور العلاقة بينهما في ظل الهيمنة البريطانية على الخليج.
٢. ترسيم الحدود السياسية في الخليج وأزمة الحدود البحرينية القطرية في القرن العشرين.
٣. المناطق المتنازع عليها وأهميتها الإستراتيجية.
٤. أزمة الحدود بين البلدين في المحافل الإقليمية والدولية.

- البحرين وعلاقتها مع قطر في ظل الهيمنة البريطانية

تتألف البحرين من أرخبيل، يضم ثلاثاً وثلاثين جزيرة، أكثرها جزر صخرية صغيرة، لا أهمية لها. وأكبرها جزيرة المنامة، التي أُطلق عليها اسم البحرين. ويتمتع هذا الأرخبيل بأهمية كبرى في الخليج العربي، وصفها "ديوراند"، مساعد المقيم البريطاني في الخليج، بقوله: "إن البحرين في الخليج، كقبرص في البحر المتوسط ."

أما قطر، فتقع في منتصف السّاحل الغربي للخليج. وهي، بوجه عام، مقفرة لا تصلح للزراعة؛ وتتكون من شبه جزيرة، من صخور غير وعرة، وصحراء حصوية. وقد برزت، عام ١٨٦٨، إمارة مستقلة عن البحرين، التي حكمتها منذ ١٧٦٦، بعد قيام القبائل القطرية بثورات متعددة، استمرت أكثر من عشرين عاماً، انتهت إلى معاهدة ١٨٦٨؛ وكانت بريطانيا وراءها .

وكانت هناك حروب وعداءات، بين سكان المنطقتَين. وكانت القبائل القطرية، تدفع إتاوة سنوية، إلى شيخ البحرين. وعند قيام الحرب الأهلية في البحرين، بين عامي ١٨٤٠ و١٨٤٣، وما تبع ذلك من استعانة كلٍّ من الطرفيَن المتنازعين بقوة من شبه جزيرة قطر، بدأت تظهر بوضوح القوى المتنامية المتحفزة، من قبائل شبه الجزيرة، مستغلة جميع الظروف في الحصول على مغنم، أو الاستقلال بحكم نفسها. وفي عام ١٨٦٧، شنّ شيخ البحرين هجوماً على قطر، بمساعدة شيخ أبو ظبي؛ وخرّب المنامة. ولكن القطريين جمعوا جموعهم، والتقوا في جزيرة دامسة. وكانت بريطانيا تعد نفسها، إذ ذاك، حامية الخليج، فتدخلت في هذا النزاع، رادعة حكام البحرين وأبو ظبي، وعقدت معاهدة الصلح المذكورة آنفاً.

- تشكل إمارة البحرين

هاجرت قبائل العتوب "الهدار" وسط شبه الجزيرة العربية في نجد أواخر القرن السابع عشر بسبب القحط الشديد وتفشي الصراعات القبلية واتجهت نحو الساحل الغربي للخليج العربي سعياً وراء الرزق، فاستقر العتوب بفروعهم الرئيسية الثلاثة (آل خليفة – آل صباح – آل جلاهمة) في الزبارة بساحل قطر في ظل رعاية آل مسلم، ثم هاجروا إلى الكويت بعد خلاف مع آل مسلم واشتبك الفريقان في معركة رأس تنورة انتصر فيها العتوب وأكملوا مسيرهم إلى "كوت" بني خالد وأسسوا لهم كياناً جديداً باسم الكويت.

بعد عدة سنوات اختلف آل خليفة مع حلفائهم وهاجروا الكويت متجهين بسفنهم نحو البحرين لكنهم منعوا من النزول فاتجهوا نحو الزبارة وأقاموا بها عام ١٧٦٦، ولم يلقوا أي معارضة ولم يحدث أي صدام بينهم وبين أهالي قطر لكثرة ترددهم على المنطقة، ونجح شيخهم محمد بن خليفة في جمع الناس حوله بإقراضهم المال مقابل شراء محصول اللؤلؤ، وصاهر آل بن علي لتزداد روابط العلاقة معهم، كما قام ببناء قلعة "المريد" عام ١٧٦٨ استعداداً لحماية الزبارة إذا ما هاجمها آل مسلم.[١]

وبعد ما نمت ثروة آل خليفة وقوية شوكتهم، شهدت الزبارة ،بفضل نشاطهم، ازدهاراً تجاريا كبيراً، وتطلعوا إلى البحرين، فاصطدموا بحاكمها "نصر آل مذكور" الذي بدأ بمهاجمة الزبارة عام ١٧٧٧ لكنه فشل[٢]، ونجح آل خليفة من حشد القبائل القطرية على رأسها آل مسلم وآل بن علي وآل سليط والبوعينين والقبيسات وكذلك عتوب آل صباح والجلاهمة ليشاركوا في فتح البحرين والقضاء على الحامية الفارسية في المنامة بعد حصارها. [٣]

كما نجح آل خليفة بقيادة الشيخ أحمد بن خليفة في الاستيلاء على جزر

البحرين في يوليو ١٧٨٣ ليستقروا فيها ويتخذونها مقراً لحكمهم مبتعدين عن أخطار أي توسع سعودي محتمل، كما آثر أحمد بن خليفة الملقب بـــ "الفاتح" أن يقضي سنواته بين مملكاته في الزبارة تاركاً حكم البحرين لولديه، ثم انتقل الحكم بعد ذلك إلى البحرين نهائيا بعد وفاة الفاتح عام ١٧٩٤. [٤]

تحولت البحرين منذ ذلك التاريخ إلى إمارة عربية يحكمها آل خليفة وشهدت تطورات مهمة منها الحرب الأهلية خلال ١٨٤٠-١٨٤٣ عقب انسحاب القوات المصرية من الإحساء تمثلت في النزاع حول السلطة ما بين محمد خليفة وعبدالله بن أحمد، فأدى النزاع إلى دخول القبائل القطرية طرفاً في الخلاف وكسب ولائهم لصالح الشيخان المتنازعان، وطلب من محمد بن ثاني الذي يقيم في منطقة الفويرط مساندة الشيخ محمد بن خليفة إلا أنه لم يستجب، وفي أبريل ١٨٤٣ نجح محمد بن خليفة في استلام حكم البحرين بعد مساعدة عدد من القبائل القطرية بينما انتقل عبدالله بن أحمد إلى الدمام. [٥]

تدخل الإنجليز في شؤون المشيخات العربية واستغلوا الخلافات الأسرية والعشائرية التي نشبت في عهد الشيخ محمد بن خليفة الذي استلم الحكم بدلاً من الشيخ عبدالله بن أحمد في أبريل ١٨٤٣[٦]، كما استغلوا فرصة نشوب الاضطرابات في قطر عندما ثار القطريون وعلى رأسهم "آل نعيم" على عامل شيخ البحرين أحمد بن محمد آل خليفة بسبب سياسته تجاههم فتم القبض على رئيس آل نعيم وإيداعه السجن في البحرين عام ١٨٦٥، فثار آل نعيم واستعانوا بالشيخ قاسم بن ثاني الذي انتصر على عاهل البحرين، فطلب شيخ البحرين من ابن ثاني التوجه إليه، فلما وصل إلى البحرين تم القبض عليه وأودع السجن، فثار القطريون لملاقاة شيخ البحرين الذي جهز جيشه وأوقع بهم هزيمة عند "دامسة"، لكن القطريون أسروا القائد البحريني إبراهيم بن علي وتم استبداله بالشيخ قاسم بن ثاني فأطلق سراحه وعاد إلى قطر. [٧]

طلب الإنجليز من شيخ البحرين دفع مائة ألف روبية كتعويض للقطريين وتسليم السفن المسلحة والتعهد بعدم تكرار ذلك مستقبلا، لكنه رفض فحاصروه في سبتمبر ١٨٦٨، وتوجه إلى قطر تاركاً السلطة لشقيقه علي بن خليفة فاستغل الإنجليز الفرصة وعزلوه وتم تعيين أخاه بدلا منه. (٨)

تعهد الشيخ علي بن خليفة للإنجليز باحترام اتفاق ٣١ مايو ١٨٦١ كما وقع اتفاقاً جديداً في ٦ سبتمبر ١٨٦٨ يقضي بتسليم السفن ودفع ألف روبية للإنجليز كغرامة، كما يقضي بقبول تعيين وكيل من جانبه في البحرين وتعهد بتسليم محمد بن خليفة إلى الإنجليز في حال عودته إلى البحرين. (٩)

وفي تطور لافت من بريطانيا ورغبة منها في فصل قطر عن البحرين قامت بعقد اتفاق مع محمد بن ثاني في ١٢ سبتمبر ١٨٦٨ تعهد فيه بالعودة إلى البحرين والامتناع عن الاشتراك في أية أعمال حربية في الخليج العربي وبألا يعقد تحالف مع حاكم البحرين السابق محمد بن خليفة وأن يتعهد بتسليمه، كما تعهد محمد بن ثاني بعودة العلاقات مع البحرين إلى ما كانت عليه والتعهد بإحالة أي نزاعات وخلافات قد تحدث بينه وبين جيرانه إلى المقيم السياسي البريطاني للفصل فيها.(١٠)

- نشأة قطر

برزت قطر كإمارة مستقلة أواسط القرن التاسع عشر الميلادي حالها كحال بقية إمارات الخليج العربي التي لم يكن لها تاريخ مستقل كوحدة سياسية خاصة، وإنما كانت جزءا من تاريخ منطقة الإحساء الذي كان يشكل الجزء الأكبر من إقليم ممتد على الساحل الغربي للخليج العربي الممتد من البصرة شمالاً حتى عمان جنوباً وكان يطلق على هذا الإقليم اسم "بلاد البحرين" لفترة طويلة من الزمن مع بداية الفتح الإسلامي. (١١)

كانت قطر تتبع مقر الخلافة الإسلامية سواء في الحجاز أو في الشام أو في بغداد، إلى أن تمكن القرامطة من تخريب عاصمتها "هجر" واستولوا عليها وبنوا مدينة "الإحساء" وجعلوها عاصمة جديدة ومن الإحساء اتخذ الإقليم اسمه فيما بعد، وتتابع على حكمه كل من العيونيين وآل زامل وآل مغامس، ثم جاء البرتغاليون فاحتلوها عام ١٥١٧ وسيطروا عليها ثم نجح العثمانيون في السيطرة على المنطقة، وارتبطت الإحساء مع القطيف بتاريخ سياسي واحد ثم انفصلت عنها جزر"اوال" واستقلت باسم البحرين. (١٢)

خضعت شبه جزيرة قطر لحكم بني خالد حتى أواخر القرن الثامن عشر، قبل أن يقضي السعوديون على سلطتهم، ولم يمارس بنو خالد سلطة مباشرة على قطر وقبائلها وإنما كانوا يعتمدون على أصهارهم من أسرة "آل مسلم"، فعهد إليهم أمير الإحساء بجمع الخراج السنوي من أهالي قطر لإرساله إلى الإحساء. (١٣)

قام السعوديون بعد إسقاطهم لبني خالد واحتلالهم الإحساء بشن هجوم على الزبارة عام ١٧٩٨ ونجحوا بالاستيلاء عليها، ثم احتلوا المدن القطرية الأخرى كالحويلة والفريحة والرويضة، وبذلك استطاع السعوديون بسط سيطرتهم على شبه جزيرة قطر، كما خضعت البحرين لحكم السعوديين وجعلوها مقراً لهم، وعهد إلى عبدالله بن عفيصان القائد السعودي بحكمها. (١٤)

كانت أموال الزكاة تجمع من قطر والإحساء وترسل إلى البحرين لإرسالها إلى عاصمة الدولة السعودية وقام آل خليفة بتصريف شؤون إدارة الولاية في ظل السيادة السعودية، إلا أن ذلك لم يستمر سوى أعوام قليلة فسقطت الدولة السعودية بعد الحملات العثمانية خلال الفترة من ١٨١٢-١٨١٨ فعادت البحرين إلى سيطرة آل خليفة. (١٥)

تأخرت علاقة بريطانيا مع شيوخ وقبائل شبه جزيرة قطر نسبيا عن غيرهم من الكيانات القبلية والسياسية في الخليج العربي، ونتيجة حدوث بعض أعمال القرصنة على ساحل قطر أرسلت شركة الهند الشرقية البريطانية المدمرة "فستال" عام ١٨٢١ لتطلق مدافعها لإرهاب القبائل القطرية وأسفرت عن تدمير مدينة "البدع" وهجرة المئات من سكانها إلى الجزر الممتدة بين قطر والساحل العماني، وبعد عامين قام المقيم السياسي البريطاني في الخليج "ماكلويد" بأول زيارة إلى الدوحة وأمر بحصر جميع السفن ومنحها التراخيص اللازمة وبرفع أعلام معاهدة "السلم العامة".(١٦)

وفي سبتمبر ١٨٣٦ أنذرت السلطات البريطانية شيخ الدوحة بالامتناع عن إيواء أحد زعماء القراصنة، ثم قررت إدخال قطر منذ ذلك العام ضمن اتفاقيات الهدنة البحرية، إلا أن ذلك لم يوقف العمليات العدائية في البحر فألقت السلطات البريطانية المسؤولية على شيخ الدوحة وقصفت المدينة بأحد مدافعها عام ١٨٤١ وطالبت الشيخ بالتعويضات. (١٧)

برزت في الأربعينيات من القرن التاسع عشر شخصية محمد بن ثاني ثم ولده قاسم الذين تزعما القبائل القطرية نحو الاستقلال وحكم نفسها في شبه جزيرتها، وينتمي آل ثاني إلى المعاضيد وهم فرع من قبيلة الوهبة الذين يعودون إلى تميم، وقد هاجر آل ثاني من بلدة "أشيقر" من شبه الجزيرة العربية في أواخر القرن السابع عشر حيث حطت رحالها في واحة "جبرين" في جنوب شرق شبه جزيرة قطر ثم غادروها إلى "اسكاك" ثم "الرويس" ومنها إلى الزبارة إلى أن استقروا في الدوحة، واستطاع جدهم الأكبر "ثاني" الذي ولد في الزبارة تكوين ثروة كبيرة وأحرز مكانة اجتماعية مرموقة جعلته يترأس القبائل القطرية. (١٨)

- أزمة الحدود البحرينية – القطرية في القرن العشرين

ترجع أزمة الحدود بين دولتي قطر والبحرين إلى فترة الاستعمار البريطاني في القرن التاسع عشر حيث وقعت بريطانيا ضمن الاتفاقيات الموقعة مع شيوخ الخليج العربي اتفاقية مع حاكم البحرين الشيخ محمد بن خليفة في ٣١ مايو ١٨٦١ باسم الحاكم المستقل للبحرين وبمقتضاها تعهد الحاكم بالامتناع عن القيام بأي أعمال عدوانية تجاه جيرانه مقابل التزام بريطانيا تقديم الدعم اللازم لحماية أمن البحرين وممتلكاتها ضد أي عدوان، غير أن الاتفاقية لم تتضمن أي مادة تحدد حدود البحرين، وبعد ست سنوات وتحديداً عام ١٨٦٧ قامت البحرين بأعمال عدوانية تجاه قطر، فقام المقيم السياسي البريطاني في الخليج بالاتصال بحاكم البحرين علي بن خليفة، وبحاكم قطر محمد آل ثاني عام ١٨٦٨ من أجل توقيع اتفاقيات مع بريطانيا العظمى، حيث تعهد حاكم البحرين بتعيين وكيل لدى المقيم السياسي البريطاني التزاماً منه بالحفاظ على السلام في الخليج ومنع الاضطرابات بينما تعهد حاكم قطر بالعودة والإقامة بسلام في الدوحة وعدم دخول البحر من أجل القرصنة والأعمال العدوانية، ووفق لما تقوله البحرين فإن أحداث ١٨٦٧-١٨٦٨ تظهر أن دولة قطر لم تكن مستقلة بل كانت جزءاً من البحرين ثم انفصلت عنها في إدارة مستقلة عام ١٨٦٨ الأمر الذي ترتب عليه خلافات بينهما حول الحدود والفواصل الجغرافية، كما أن بريطانيا كان لها دوراً في تغذية الصراعات سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة. [١٩]

وفي عام ١٩١٣ حددت اتفاقية الأنجلو-تركية الموقعة بين الدولة العثمانية وبريطانيا العظمى الحدود السياسية لمنطقة الخليج العربي والتي سبقت قيام الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤، ومع بداية اكتشاف النفط في منطقة الخليج بدأت مشاكل الحدود بالظهور، لاسيما أن بريطانيا لعبت دوراً

رئيسياً في إثارة المشاكل والنزاعات الحدودية وعمدت إلى تقسيم المنطقة وتعيين حدود المشيخات والإمارات المختلفة تراعي وتحفظ المصالح البريطانية حيث اقتطعت أراضي إمارة لمصلحة إمارة أخرى مجاورة بهدف خلق خلاف حدودي دائم بعد رحيلها من المنطقة، وبعد سنوات من بدء اكتشاف النفط ظهر خلاف بين البحرين وقطر بإعلان الحكومة البحرينية عام ١٩٣٧ بأن قبيلة النعيم التي تقطن الزبارة في شمالي قطر أعلنت ولاءها لحاكم البحرين وطالبتها بمنع آل ثاني من التدخل في شؤونها. [٢٠]

بدأ النزاع بين الجانبين يتطور خاصة بعد الرسالة الموجهة إلى المكتب البريطاني في الهند للاستفسار عن تبعية جزر حوار وفشت الديبل للبحرين أم لقطر حتى يتسنى لشركات النفط التنسيق مع الحكومة المعنية للتنقيب عن النفط، وقد لفت ممثلو الشركات انتباه المكتب البريطاني في الهند لموضوع امتيازات قطر النفطية وملاحظة أن البحرين قدمت دعوى بشأن جزر حوار، وقد رد مكتب الهند بأن الحكومة البريطانية ترى أن حوار تابعة لشيخ البحرين إلا أن محتوى تلك الاتصالات لم تنقل لحاكم البحرين. [٢١]

من جانبه أرسل حاكم قطر في ١٥ مايو ١٩٣٨ رسالة احتجاج إلى الحكومة البريطانية يشتكي من الأعمال الاستفزازية لحاكم البحرين في منطقة الزبارة، ورد الوكيل السياسي البريطاني في البحرين على حاكم قطر في ٢٠ مايو ١٩٣٨ بأن الحكومة البريطانية مستعدة لدراسة أي طلب رسمي من قبل شيخ قطر يتضمن المطالبة بهذه الجزر على الرغم من أن البحرين لها وجود على هذه الجزر، وقد رد حاكم قطر في ٢٧ مايو ١٩٣٨ على خطاب الوكيل السياسي البريطاني بأن إدعاء قطر على جزر حوار بسبب القرب الجغرافي حيث تبعد عن الحدود البحرينية مسافة ١٧ ميلاً بحريا أو ١٨ بينما تبعد مسافة ميل واحد من قطر، كما أن البحرين احتلت هذه الجزر في الآونة

الأخيرة والتي كانت تابعة لقطر، مما دفع قطر إلى تقديم الشكوى والاحتجاج.(٢٢)

وفي ٣ يناير ١٩٣٩ قدمت البحرين إلى الوكيل السياسي البريطاني طلبا تدحض فيه المطالب القطرية في جزر حوار مستندة إلى أن الرعايا البحرينيين سكنوا حوار بعد فترة قصيرة من حكم آل خليفة للبحرين عام ١٧٨٣، ومن الطبيعي أن ينتج عن اتفاقية النفط إثارة قضايا الحدود بين قطر والبحرين وخاصة جزر حوار التي تضمنتها خريطة الامتياز، ودخل الطرفان في أزمة تبادلا فيها الحجج والأسانيد والمفاوضات، وعند زيارة ممثلي شركة النفط إلى مدينة الزبارة ثبت للمقيم السياسي البريطاني عدم أحقية البحرين بأي إدعاءات في الزبارة التي هي جزء من قطر. (٢٣)

قامت بريطانيا بدراسة إدعاءات كل طرف حول موضوع جزر حوار وحسمت القضية في ١١ يوليو ١٩٣٩ فقررت أن جزر حوار تابعة للبحرين، كما أصدرت بريطانيا قراراً آخر عام ١٩٤٧ يقضي بتبعية فشت الديبل وقطعة جراد إلى البحرين(٢٤). احتج حاكم قطر على القرار البريطاني بشأن تبعية جزر حوار للبحرين ولم يحتج على "فشت الديبل" وجراد، كما احتجت البحرين على قرار ١٩٤٧ والخاص بالخط الفاصل بين قطر والبحرين، ورغم احتجاج قطر والبحرين على القرار إلا أنه ظل قائما ونافذا باعتباره صادر من جهة مختصة وصدر مطبقاً لقواعد القانون الدولي الساري وقت صدور القرار. (٢٥)

طلبت قطر عام ١٩٦٥ من بريطانيا التي كانت مهيمنة على البحرين وقطر في ذلك الوقت عرض الخلاف الحدودي على التحكيم الدولي، وبدأت بريطانيا باتخاذ خطوات تنفيذية في الطلب القطري إلا أن العملية توقفت بسبب رفض البحرين عرض مسألة السيادة على حوار على التحكيم، وبعد

خروج بريطانيا من المنطقة واستقلال الدولتين عام ١٩٧١ فتحت صفحة جديدة في ملف العلاقات الثنائية بين البلدين مبنية على الروح الأخوية لإيجاد أفضل السبل لحل الخلافات القائمة بينهما بشأن مناطق النزاع المذكورة، وطرحت عدة وسائل لإنهاء الخلاف كإجراء حوار ودي مباشر بين الدولتين واللجوء إلى تحكيم دولي، ومن جانبها عرضت قطر إنشاء جزيرة في المياه الإقليمية البحرينية مقابل جزيرة حوار وعد اتفاقية تعاون اقتصادية في مجال التنقيب عن البترول داخل المناطق موضوع الخلاف واقترحت قطر إنشاء جسر يربط البلدين رغبة منها في حل النزاع بالطرق الودية، إلا أن المقترحات القطرية قوبلت بالرفض من قبل الجانب البحريني، وفي عام ١٩٧٦ اتفقت قطر والبحرين على أن تتوسط المملكة العربية السعودية لحل النزاع بينهما، فقبلت السعودية وساطة الجانبين لحل النزاع الحدودي. (٢٦)

في عام ١٩٧٨ تم التوصل إلى اتفاق بين المتخاصمين ينص على أن تجري المفاوضات اللازمة لفض الخلاف وديا بينهما بحضور ممثل عن المملكة العربية السعودية، وأن يتعهد كل طرف من تاريخه بعدم القيام بأي تصرف من شأنه أن يعزز مركزه القانوني أو يضعف المركز القانوني للطرف الآخر أو يغير الوضع الحالي لموضوعات الخلاف(٢٧)، كما قام مجلس التعاون لدول الخليج العربية بجهود ومساعي لرأي الصدع بين البلدين وتقريب وجهات النظر حول النزاع الحدودي بينهما، فصدر عام ١٩٨٢ قرار عن المجلس الوزاري لدول المجلس الموافقة على الطلب السعودي بشأن استئناف المفاوضات فوراً من أجل إنهاء الخلاف بين قطر والبحرين وعدم اتخاذ ما يسبب في تصعيد الأزمة ووقف الحملات الإعلامية وعدم اللجوء إلى الإثارة وتأكيد استمرار العلاقات الودية بين البلدين. (٢٨)

رغم اتفاق الطرفين بقرار المجلس الوزاري لدول مجلس التعاون

الخليجي إلا أن البحرين أقدمت على بعض الأعمال الاستفزازية، ففي مارس ١٩٨٢ أذاع راديو البحرين أن رئيس الوزراء الشيخ خليفة بن سلمان قام بتدشين سفينة حربية بحرينية باسم "حوار"، كما أذاع خبراً عن قيام وحدات خفر السواحل البحرينية بإجراء مناورات بالذخيرة الحية في منطقة فشت الديبل التي تعتبر إحدى مناطق الخلاف الحدودي بين البدلين، فأثارت هذه التصرفات حفيظة القطريين، فأصدرت قطر بيانات أدانت فيها هذه الأعمال واعتبرتها استفزازية، فقام المجلس الوزاري بعقد اجتماع في ٨ مارس ١٩٨٢ وقرر عدم اتخاذ أي إجراءات استفزازية بين الدولتين.

التزمت الدولتان بعدم إثارة أي أزمة لمدة عامين، ثم عادت البحرين إلى الاستفزاز مرة أخرى في ٢٠ يناير ١٩٨٤ بعد إعلانها عن إجراء دراسات لتنفيذ مشروع ضخم يهدف إلى ردم منطقة فشت البحرية بالتعاون مع بعض الشركات العالمية فاعتبرت قطر هذا العمل خرقاً واضحا لاتفاق سابق يقضي بالتزام الطرفين بعدم الإخلال بالأوضاع الحالية لحين الانتهاء من تسوية النزاع نهائيا. (٢٩)

عادت البحرين مرة أخرى للاستفزاز حيث أعلنت أنها عهدت إلى شركات أجنبية تحويل جزيرة فشت الديبل إلى جزيرة اصطناعية وتحويلها إلى مركز لخفر السواحل البحرينية، فقامت قطر في ٢٦ أبريل ١٩٨٦ بإرسال أربع طائرات مروحية للجزيرة وإحتلتها واعتقلت ثلاثين شخصا متواجدين فيها، وكاد الأمر أن يتحول إلى صدام مسلح بين الدولتين إلا أن المملكة العربية السعودية تدخلت ونجحت في تطويق الأزمة بإقناع الطرفين من سحب قوات الجانبين إلى ما كانت عليه قبل ٢٦ أبريل ١٩٨٦. (٣٠)

وفي ديسمبر ١٩٨٧ أعلنت المملكة العربية السعودية أن البحرين وقطر وافقتا على إحالة موضوع الخلاف القائم بينهما إلى محكمة العدل الدولية

وعلى تشكيل لجنة ثلاثية برئاسة السعودية لبحث الإجراءات التي بمقتضاها تنفيذ التزام الدولتين بعرض خلافهما على المحكمة، وقد عقدت اللجنة الثلاثية عدة اجتماعات إلا أنها لم تسفر عن أي اتفاق بسبب إصرار البحرين على أن السيادة على جزر حوار للبحرين وحسمه القرار البريطاني عام ١٩٣٩. (٣١)

وفي ديسمبر ١٩٩٠ نجحت السعودية في عقد اجتماع ثلاثي بحضور وزيري خارجية قطر والبحرين حيث تم الاتفاق على ثلاثة بنود رئيسية للوصول إلى حل نهائي للنزاع يتضمن التالي:

١. استمرار مساعي العاهل السعودي الملك فهد بن عبدالعزيز للوساطة بين البلدين حتى مايو ١٩٩١.
٢. التأكيد على الاتفاقيات التي تمت بين البلدين خلال الفترة السابقة.
٣. إذا تم التوصل إلى حل ودي مقبول بين الطرفين يتم سحب القضية من التحكيم. (32)

- المناطق المتنازع عليها وأهميتها الإستراتيجية

تنقسم الجزر المتنازع حولها إلى نوعين: الأولى: الجزر القريبة من الساحل القطري وأبرزها حوار وسواد الشمالية وسواد الجنوبية وتبعد كيلومتراً واحداً عن الساحل القطري وتلتحم مع الساحل في حالة الجزر ومساحة هذه الجزر حوالي ١٦ ميلاً مربعاً.

الثانية: الفشوت وهي جزر تصبح تحت سطح البحر في حالة المد، وتظهر وقت الجزر وهي عديدة تقع بين البحرين وقطر من أشهرها فشت الديبل وفشت العظم والتي تبعد عن البحرين ٢٥ كيلومتراً وعن قطر ٢٠ كيلومتراً. (٣٦)

ويمكن القول أن الخلاف بين الدولتين ينحصر حول عدد من الجزر

والأراضي الواقعة بينهما، وهي: منطقة الزبارة في اليابسة القطرية، و جزر حوار، وجزيرتا قطعة جرادة، وحد جنان، وهما جزيرتان صغيرتان، وفشت الديبل وفشت العزم، وعدد من الفشوت الصغيرة الأخرى. فضلاً عن مصائد الأسماك واللؤلؤ الواقعة بين البلدين، وانتهاءً بحدود المياه الإقليمية لكل دولة. وفيما يلي نتناول أهمها:

- الزبارة

قامت هذه المدينة على آثار قرية كبيرة على الساحل القطري، مقابل جزيرة البحرين، من جهة الجنوب. وتمتد في البحر كرأسٍ عريض. وبها بعض العيون. وتنمو فيها مراع للإبل. وتصلها مع العريش شمالاً طريق معبدة، طولها نحو ١١٣كم. ويُذكر أن أول من عمرها، ونزل بها، الشيخ أحمد بن رزق النجدي. ورغّب الناس في سكناها، بكرمه وجوده، فأتتها العرب من كل فج ومكان؛ وأخذ الناس يتجرون في اللؤلؤ. ثم سكن فيها لفيف من قبائل القطريين، منهم قبيلة آل علي والجلاهمة والمعاودة .

غير أن تاريخها وتعميرها الحقيقي، يعود إلى عام ١٧٦٦، حين نزحت أسرة آل خليفة، ممثلة في محمد بن خليفة، جد الخليفيين، حكام البحرين الحاليين، من الكويت، مع أولاده، ونزل على قبيلة آل علي، وتزوج منهم؛ وكان على جانب عظيم من الثروة والجاه. ولم يكن اختياره للزبارة من دون دراسة، فالمكان معروف للعتوب، منذ أمد بعيد، خلال إقامتهم في قطر. قبل هجرتهم إلى الكويت، ثم عرفوه، جيداً، خلال تجوالهم في الخليج، لنقل تجارتهم بين قطر والبحرين والإحساء. وكان اختيار هذا المكان لموقعه التجاري، أولاً؛ ولقربه من مغاصات اللؤلؤ، ثانياً؛ على الرغم من أن مصادر المياه والحطب كانت بعيدة عنه بمقدار فرسخ ونصف (١٢ كم تقريباً). واستطاع الشيخ محمد بن خليفة، أن يقوّي شوكته ونفوذه، بذكائه ودهائه،

وسيرته الحسنة، وأخلاقه، وكرمه وجوده؛ وكان يقرض الناس الأموال، مقابل شرائه محصول اللؤلؤ. وزادته مصاهرته آل علي قوة ونفوذاً. وقد جعل له مقراً في "مرير"، ورفض أن يدفع الخراج إلى آل مسلم، أمراء قطر .

ومما ساعد على سرعة ازدهار الزبارة، وانتعاش التجارة فيها، اتباع آل خليفة سياسة التجارة الحرة؛ فلم يتقاضوا شيئاً من الضرائب والمكوس، إذ استوردوا البضائع من كافة الجهات، لاستهلاكهم، وأعادوا تصدير الفائض منها إلى الإحساء ونجد. وزاد تجارتها ازدهاراً حادثتان بارزتان: الأولى، الطاعون، الذي تعرضت له مدينة البصرة، عام ١٧٧٢، والذي أفنى عدداً كبيراً من سكانها؛ وهرب عدد من تجارها الباقين إلى الكويت والقطيف والزبارة، حيث انتعشت الحركة التجارية في موانئها. الثانية، حصار الفرس للبصرة، عام ١٧٧٥، وحكمهم إياها حتى عام ١٧٧٩، ما دفع عدداً كبيراً من التجار إلى البعد عن مركز الأحداث، وشجعهم على اللجوء إلى الزبارة، التي لا تتقاضى شيئاً من الرسوم الجمركية .

ولم تكن الزبارة دائماً هانئة، بل تعرضت لمتاعب عديدة، وكان أشدّها خطراً هجوم الفرس عليها، يتقدمهم الشيخ ناصر، حاكم بوشهر والبحرين، بقوة، قوامها ألفا رجل؛ ولكنها هُزمت وتكبدت خسائر فادحة. وكان هذا النصر فاتحة عهد جديد؛ إذ شعرت القوة المنتصرة، في الزبارة بحاجتها إلى التوسع، فانطلقت صوب البحرين .

ومن الزبارة يبدأ حكم آل خليفة للبحرين؛ ومن هنا يبدأ العامل التاريخي في مطالبتهم بها؛ إذ إنها أرض أجدادهم، التي خرجوا منها، وفتحوا البحرين. ويقول "تشارلز بلجريف، المعتمد البريطاني، راوياً عن أحد شيوخ البحرين: "لو سئلت بعد الموت، فلن أجاوب إلا بكلمة زبارة". وزاد من حدة مطالبتهم بها، دخول القوات التركية قطر .

ومن الأسباب، التي تذكر على أساس صحة المطالبة بالزبارة، ما رواه حاكم البحرين للقائد البريطاني، "جرانت"، من أن قبيلة النعيم، قد وقّعت عهداً، تعترف فيه بخضوعها لحكام البحرين. وكان ذلك بحضور الكولونيل بيلي، وحاكم البحرين، يعد هذه القبيلة من رعاياه .

أما أسرة آل ثاني والقطريين، فتعد الزبارة، كذلك، مصدراً تاريخياً مهماً؛ فمنها تبدأ سلطة آل ثاني في قطر، منذ استقرارهم بها، وكان ثاني، جد الأسرة، مولوداً بها، وكان من تجار اللؤلؤ المشهورين. واستطاع، بفضل ثروته وجاهه، أن يكون وكيلاً للسّعوديين في قطر؛ فقد كان مسؤولاً عن جمع الضريبة من القبائل القطرية، وتسليمها إلى إمام السعوديين في نجد. وكان ابنه، محمد بن ثاني، حاكماً للدوحة، تحت سلطة آل خليفة. واستطاع ابنه، جاسم بن محمد بن ثاني، الحصول على الانفصال عن البحرين، بمقتضى المعاهدة المبرمة عام ١٨٦٨ .

ولمّا كان سكّان الزبارة من بني نعيم، غير خاضعين لسلطة آل ثاني، بل يغيرون على جيرانهم، معتمدين على تشجيع حكام البحرين، قرر الشيخ ثاني أن يقضي على قوتهم، فهجم عليهم، بقوة كبيرة، عام ١٨٧٨، وحاصر قلعة مرير خمسة عشر يوماً، سقطت بعدها، وتفرق بنو نعيم بين الدوحة والبحرين؛ وانتهت الزبارة، مدينة مزدهرة، بعد هذا التاريخ, وظل شيخ البحرين متمسكا بتبعية الزبارة باعتبار أن آل خليفة استقروا بها لفترة من الوقت، وعلى أساس أن قبيلة النعيم حولت ولاءها له بعد انفصال قطر، وقد وافق حاكم البحرين على أن يتنازل عن ملكية موارد النفط التي قد تكتشف في الزبارة، بشرط أن يتعهد شيخ قطر بألا يتدخل في شؤون رعاياه من قبيلة النعيم ، وذلك أثناء المفاوضات التي كانت تحت إشراف الوكيل السياسي البريطاني في البحرين إلا أنها لم تسفر عن أي اتفاق بين الجانبين، ويرى

المستشار البريطاني في البحرين أن أصل الخلاف حول الزبارة يعود لأكثر من ثلاثين سنة، ونظرا للأهمية القصوى التي يعلقها حكام البحرين على استمرار تبعية الزبارة لهم ولأنها "تمس الهيبة والشرف والكرامة" لديهم وهي تفوق في أهميتها أية مشكلة أو قضية سياسية أخرى، كما يرى عبدالله الأشعل أن الطلب البحريني ودعواها على قبيلة "آل نعيم" التي تقطنها فقط لكان ذلك طلباً غريباً وفريداً، ويمكن حله بانتقال القبيلة إلى جزر البحرين، ولكن استناد البحرين إلى واقعة مرور آل خليفة في القرن الثامن عشر بالزبارة وولاء سكانها لهم يعني أنها تطالب بالزبارة نفسها وليس بسكانها فقط، وهو ما يكشف تنازل شيخ البحرين في محادثات ١٩٤٩ لشيخ قطر عن موارد النفط إذا تم اكتشافها في الزبارة. (٣٣)

- جزر حُوار

مجموعة من الجزر مملوءة بالنشاط والحركة، تضم ست عشرة جزيرة متلاصقة. وسطحها جبلي مرتفع، وتبدو على شكل ربع دائرة. تبعد نحو عشرين كم، من الجنوب الشرقي لأقصى جنوب البحرين، في رأس البحر، وعلى بعد أقل من ثلاثة كم من قطر. ويمكن الوصول إليها من السواحل القطرية، على الأقدام، في حالة جزر البحر. وتقسّم إلى حوار الشمالية، وساد الجنوبية، وممزوزة، واستوحت تسميتها من الحُوار، ولد النّاقة؛ إذ إن أطرافها تتصل بسواحل قطر، وتشبه حواراً يرضع ضرع أمه. وتبدو صورة مصغرة من البحرين، تشبهها في كلِّ شيء، حتى في وجود الجبل في وسطها، وتعدها البحرين، تاريخياً، جزءاً من ممتلكات آل خليفة؛ بينما تثير قطر المشكلة، من ناحية قانونية، نظراً إلى قربها منها، فتطالب بسيادتها القانونية عليها

ويهتم البحرينيون بهذه الجزر؛ لما تمثله من ثقل جغرافي، يشكل ثلث

المساحة الجبلية للبلاد؛ فعدّوها وحدها تشكل ٩٠% من النزاع. ويرى بعض المراقبين أن حُوار هي لب الخلاف, وأن البحرين لم تكن لتقبل بأدنى من تبعيتها إليها.

أما باقي المناطق المتنازع فيها، فهي جزر صغيرة، ما كانت لها أهمية في الماضي, ولكن في العصر الحديث ظهرت فيها الثروات الطبيعية من النفط والغاز, فجزيرة فشت الديبل غنية بالغاز الطبيعي، وهي متاخمة لحقل الشمال القطري. وتقع على بُعد ١٢ ميلاً، في اتجاه الشمال الشرقي من قطر, وقطعة جرادة أو "فشت جرادة" المتاخمة لحقل الشمال القطري كذلك، والتي أعطيت للبحرين لتحولها دولة نفطية، وتحتضن ثالث مخزون عالمي للغاز الطبيعي, وقد كانت بيوت خبرة عالمية، ووثائق بريطانية قد قالت وقت الانتداب البريطاني إن قطعة جرادة عائمة فوق بحر من النفط والغاز الطبيعي .

- مساحات المناطق المتنازع عليها

- الزبارة: تبلغ مساحتها ١٩٣ كم٢ ، و جزر حوار: تبلغ مساحتها ٥٠ كم٢ . ، أما فشت الديبل فتبلغ مساحتها ٢٠ كم٢، وتبلغ مساحة قطعة جرادة ١ كم٢ ، بينما تبلغ مساحة جزيرة جنان ١,٥ كم٢، أما مغاصات اللؤلؤ فتبلغ مساحتها ١٧٠٠ كم٢ .

- اكتشاف النفط وتفاقم المشاكل الحدودية:

ظلت البحرين لا تعترف بقطر واعتبرت أراضيها جزءاً تابعاً لها، ولم تسقط مطالبتها رسميا إلا عام ١٩٦٧ بعد زيارة حاكم البحرين الشيخ عيسى بن سلمان للدوحة، إثر وساطة بريطانية، وتم الاتفاق بين الجانبين حول ترسيم الحدود بين البلدين باستثناء جزر حوار وفشت الديبل، وأكدت قطر تمسكها بجزيرة حوار التي تبعد مسافة ميل واحد عنها، كما طالبت بجزيرة

فشت الديبل وقطعة جراده، إلا أن البحرين رفضت بشكل قاطع المطالبات القطرية وظلت الخلافات قائمة، ويدور الخلاف القطري البحريني حول الجرز المتنازع عليها لأهميتها الإستراتيجية والاقتصادية ولتنافس الشركات النفطية على الحصول على امتياز النفط فيها، فبالإضافة إلى الصراع التاريخي والتنافس السياسي بين الجانبين إلا أن السبب الحقيقي يكمن أيضاً في البترول المتوقع اكتشافه، فقطر على سبيل المثال تملك كميات من النفط وتم اكتشاف فيها أكبر حقل للغاز في العالم تبلغ مساحته نصف مساحة الدولة، مما يزيد من التكهنات حول وجود النفط والغاز في المناطق المتنازع عليها بغزارة.(٣٤)

لاشك أن اكتشاف النفط في المنطقة كان من أهم العوامل التي أثارت المشاكل الحدودية بين قطر والبحرين، وهو الذي أدى إلى تكالب شركات النفط العالمية على تقسيم مناطق النفوذ بينهما، فالمشكلة لم تكن بارزة قبل عام ١٩٣٦ عندما ظهر منافس جديد لشركة نفط البحرين ممثلا في شركة نفط قطر (بتروليوم كونشن) التي قامت بضم جزر حوار والجزر القريبة منها إلى نطاق الامتياز المسموح لها من قبل حكومة قطر، ولم يشر لوريمر في كتابه (دليل الخليج) إلى أي حقوق للسيادة أو الملكية لهذه الجزر سواء لقطر أو للبحرين، وإنما أشار إلى حوار بوصفها إحدى الجزر المتاخمة للساحل الغربي لقطر. (٣٥)

- أزمة الحدود بين البلدين في المحافل الدولية

تُعد محكمة العدل الدولية، المرفق القانوني الأساسي للأمم المتحدة. ومقرها في "قصر السلام"، في مدينة لاهاي الهولندية. وقد بدأت العمل فيها في عام ١٩٤٦، وهي تعمل على تطبيق القانون الدولي، الذي يعد جزء لا يتجزأ من ميثاق الأمم المتحدة .

إذ ينص الفصل السادس من هذا الميثاق على حل النزاعات الدولية بالوسائل السلمية، والدبلوماسية، ومنها: الوساطة، والتحكيم، والاتفاق، والمفاوضات وغيرها من الأساليب التي تكفل معالجة النزاعات والصراعات بالطرق السلمية، ومنع الدول من اللجوء للقوة إلا في حال الدفاع عن النفس .

وللمحكمة هدفان: الأول، تسوية الخلافات القانونية، التي تتقدم بها الدول المتقاضية، طبقاً للقانون الدولي. والهدف الثاني، تقديم آراء استشارية في خصوص الموضوعات القانونية، التي تقدمها إليها منظمات ووكالات دولية .

تتكون المحكمة من خمسة عشر قاضياً، تنتخبهم الجمعية العامة للأمم المتحدة، ومجلس الأمن، كلٌ على حده. وتصل الفترة التي يقضيها القضاة في المحكمة، إلى تسع سنوات. وتنص اللوائح على ألا يُنتخب إلا قاضٍ واحد، من بلد ما، في الدورة الواحدة. وتعقد الانتخابات مرة كلّ ثلاث سنوات، لانتخاب ثلث مقاعد القضاة، الذين يمكن إعادة انتخابهم. وتجدر الإشارة إلى أن القضاة لا يمثلون حكوماتهم، بل هم قضاة مستقلون؛ ولكن، يجب أن يتمتعوا بالكفاءة المطلوبة في بلدهم، لشغل أعلى المناصب القضائية، أو أن يتحلوا بخبرة في القانون الدولي. كذلك يجب أن يعكس تشكيل المحكمةِ الأُطرَ الحضارية المختلفة، والنظم القانونية الرئيسية في العالم. وعندما لا تضم المحكمة قاضياً، من دولة، ترفع قضية أمام المحكمة الدولية، يمكن تلك الدولة تعيين قاض من قبلها، للمشاركة في القضية .

أما الأطراف المتقاضية، فلا تكون أفراداً، بل فقط يحق للدول رفع قضايا أمام محكمة العدل الدولية. والدول المقصودة، هي الدول الأعضاء في الأمم المتحدة، وعددها، الآن، ١٨٩ دولة؛ إضافة إلى دولة ليست عضواً في الأمم المتحدة، ولكنها شاركت في وضع قانون المحكمة، وهي سويسرا، إذ

يحق لها رفع قضايا، وحضور الجلسات .

ومنذ عام ١٩٤٦، أصدرت المحكمة أحكاما كثيرة في خلافات، تتعلق بالحدود البرية والبحرية والسيادة، والامتناع عن استخدام القوة، والإحجام عن التدخل في الشؤون الداخلية للدول، وأخذ الرهائن، وحق اللجوء، والجنسيات، والوصاية، وحق المرور والحقوق الاقتصادية.

أما مصادر أحكامها فهي المعاهدات والأعراف الدولية، ومبادئ القانون العامة .

- القضية في محكمة العدل الدولية

تقدمت قطر في ٨ يوليو ١٩٩١ بطلب إلى محكمة العدل الدولية في لاهاي لاتخاذ إجراءات قانونية ضد البحرين بسبب خلافات حدودية بين الدولتين تتعلق بالسيادة على جزر حوار وفشت الديبل وقطعة جراد، وترسيم الحدود البحرية بين الدولتين، وقد اعترضت البحرين على الطلب القطري وطلبت من المحكمة عدم قيده في سجل القضايا أو إعطائه رقماً أو اسماً ولكن المحكمة رفضت الطلب البحريني وسجلت الطلب القطري في سجل القضايا وأعطت الدعوى اسماً ورقماً، كما طلبت من قطر أن تتقدم بمذكرة في هذا الشأن في ١٥ فبراير ١٩٩٢ ومن البحرين أن تتقدم بمذكرة أخرى في ١١ يونيو ١٩٩٢، وقد تقدمت قطر بمذكرتها في الموعد المحدد لذلك.[٣٧]

في يوليو ١٩٩٤ أصدرت محكمة العدل الدولية حكمها الأول بشأن اختصاصاتها على تبادل الخطابات بين البلدين ومنها الوثيقة الموقعة في الدولة في ٢٥ ديسمبر ١٩٩٠ بمشاركة وزراء خارجية كل من السعودية والبحرين وقطر كونها اتفاقيات دولية تتضمن حقوقا والتزامات للأطراف، والتي بموجبها تعهدت الأطراف بإحالة مجمل الخلاف إلى المحكمة، كما تم

تحديده في الصيغة البحرينية، لذا قررت المحكمة منح الطرفين مهلة خمسة أشهر تنتهي في ٣٠ نوفمبر ١٩٩٤ ليتقدم خلالها بجميع موضوعات النزاع بإجراء مشترك أو منفرد. [٣٨]

وفي نهاية المهلة المحددة تقدمت قطر إلى المحكمة بإجراء منفرد ضمنته جميع موضوعات النزاع، فأصدرت محكمة العدل الدولية في ١٥ فبراير ١٩٩٥ حكمها باختصاصها بالنظر في النزاع بين الدولتين وقبول الطلب القطري المنفرد، كما أصدرت المحكمة قراراً إلى الطرفين لتقديم مرافعاتها المكتوبة إليها في موعد أقصاه ٣٠ نوفمبر ١٩٩٦، فاضطرت البحرين إلى تقديم طلب إلى المحكمة لتأجيل موعد تقديم المرافعات، بعدها وافقت المحكمة على أن يكون آخر موعد لتقديم المرافعات ٣٠ سبتمبر ١٩٩٦، وبالفعل قامت البحرين وقطر بإيداع مرافعاتها لدى محكمة العدل الدولية قبل نهاية الموعد المحدد. [٣٩]

- المطالب القطرية

طالبت قطر من محكمة العدل الدولية رفض جميع الدعاوى والمطالبات المضادة المرفوعة من البحرين، كما طالبت أن تحكم المحكمة وفقا للقانون الدولي بما يلي:

١. سيادة دولة قطر على جزر حوار.
٢. سيادة دولة قطر على فشت الديبل وقطعة جرادة.
٣. دولة البحرين ليست لديها أي سيادة جزيرة جنان.
٤. دولة البحرين ليست لها سيادة على منطقة الزبارة.
٥. رسم الخط البحري الأوحد بين المناطق البحرية لقاع البحر وطبقة الأرض.

- المطالب البحرينية

طلبت البحرين من محكمة العدل الدولية رفض جميع الدعاوى والمطالبات القطرية المضادة وأن تحكم المحكمة وتعلن ما يلي:

١. سيادة البحرين على منطقة الزبارة.
٢. سيادة البحرين على جزر حوار التي تضم جنان وحد جنان.
٣. سيادة البحرين على جميع الجزر والمناطق الأخرى بما فيها فشت الديبل وقطعة جرادة. (٤٠)

- حكم محكمة العدل الدولية

استمر تداول قضية النزاع البحريني القطري في محكمة العدل الدولية تسع سنوات، وقد حددت المحكمة الإطارين الجغرافي والتاريخي لمنطقة الخليج العربي، حيث رأت أن دولتي البحرين وقطر تقعان معاً في الجزء الجنوبي من الخليج العربي، فقطر تمتد شمالا إلى الغرب من الخليج الذي يعرف بدوحة سلوى وإلى الشرق من المنطقة التي تقع إلى الجنوب من خور العيديد وعاصمتها الدوحة، بينما تتألف البحرين من عدة جزر وجزر صغيرة وفشوت تقع قبالة السواحل الشرقية والغربية من الجزيرة الرئيسية (عوالي) وعاصمتها المنامة، أما الزبارة فتقع عل الساحل الشمالي الغربي من شبه جزيرة قطر قبالة الجزيرة الرئيسة في البحرين، وتقع جزر حوار بالقرب مباشرة من الجزء الأوسط من الساحل الغربي لشبه جزيرة قطر إلى الجنوب الشرقي من جزيرة البحرين الأم على مسافة عشرة أميال بحرية من البحرين، وجزيرة جنان وتقع قبالة الحافة الجنوبية الغربية من جزيرة حوار، كما تُعد فشت الديبل وقطعة جراد من بين الفشوت البحرية التي تقع قبالة الساحل الشمالي الغربي لشبه جزيرة قطر وإلى الشمال الشرقي من جزيرة

البحرين. (٤١)

- أولاً: السيادة على الزبارة

لاحظت المحكمة أن الدولتين اتفقتا على أن آل خليفة احتلوا الزبارة عام ١٧٦٠ وبعد عدة سنوات انتقلوا إلى البحرين وأقاموا فيها، لكنهم لم يقروا الوضع القانوني الذي ساد ذلك وتوج بأحداث ١٩٣٧، لذا رأت المحكمة أن شيوخ البحرين لم يمارسوا بشكل مباشر سلطتهم على الزبارة، كما أن المحكمة لا تقبل حجة وإدعاء البحرين بأن سيادتها قائمة على الزبارة من خلال التحالف مع قبيلة آل نعيم الموالية لها، وترى المحكمة أن الاتفاقيات الموقعة وغير المصدق عليها قد تشكل تعبيراً وثيقاً للتفاهم بين الأطراف المعنية من خلال فترة توقيعها، لاسيما المادة ١١ من اتفاقية الأنجوعثمانية لعام ١٩١٣ الموقعة في ٩ مارس ١٩١٤ قد أقرت في العام نفسه، فالأطراف المشتركة في الاتفاقية لم تكن تأمل في أي سلطة على أي مناطق أخرى سوى شبه جزيرة قطر، لذا لا تقبل المحكمة بوجهة نظر البحرين بأن بريطانيا اعتبرت الزبارة تابعة للبحرين، وبناء عليه فقد قررت المحكمة بالإجماع سيادة دولة قطر على الزبارة. (٤٢)

- ثانياً: السيادة على جزر حوار

نظرت المحكمة في صلاحية القرار البريطاني لعام ١٩٣٩ ورأت أن الطرفين لم يتفقا على مسألة حوار بتقديم قضيتهما إلى محكمة تحكيمية مؤلفة قضاة من اختيارهما يصدرون حكمهم على أساس القانون أو مراعاة العدالة، وبناء عليه فالقرار البريطاني بشأن تبعية حوار للبحرين لا يشكل قراراً تحكيمياً دولياً، ولا يعني ذلك أنه خال من الأثر القانوني، لاسيما أن قطر تشكك في صلاحية القرار البريطاني وتدفع بأنها لم تعط موافقتها على تفويض الحكومة البريطانية بتقدير مسألة جزر حوار، إلا أن المحكمة اطلعت

على خطابات شيخ قطر وموافقته على أن يعهد إلى الحكومة البريطانية بمسألة جزر حوار، لذا اعتبرت المحكمة قرار ١٩٣٩قراراً ملزماً منذ البداية للبلدين وكذلك ملزماً بعد استقلالهما عام ١٩٧١، فقررت المحكمة بأكثرية ١٢ صوتاً مقابل ٥ أصوات سيادة البحرين على جزر حوار. [٤٣]

- ثالثاً: السيادة على جزيرة جنان

لاحظت المحكمة أن جزيرة جنان لم يرد ذكرها في القرار البريطاني لعام ١٩٣٩ وقد دفعت البحرين بأن الجزيرة هي جزء من جزر حوار، بينما دفعت قطر بأنها غير مشمولة في القرار البريطاني، كما رأت المحكمة أن رسالة المعتمد البريطاني في ٢٣ ديسمبر ١٩٤٧ إلى حاكمي الدولتين بشأن ترسيم قاع البحري بينهما ذكرت في الجملة الأخيرة من الفقرة الرابعة أن جزيرة جنان ليست معتبرة بوصفها في جزر حوار، ومن ثم فإن الحكومة البريطانية لم تعتبر أن الجزيرة تابعة لشيخ البحرين، وبناء عليه فقد صوتت المحكمة بأكثرية ١٣ صوتاً مقابل ٤ أصوات بأن السيادة على جزيرة جنان لقطر.

- رابعاً: السيادة على قطعة جرادة

كان الخلاف حول هذه القطعة بأنها جزيرة، وقد رأت المحكمة أن الخبراء المعينين من الجانب القطري لم يؤكدوا بشكل علمي بأن قطعة جرادة هي فشت يظهر عند الجزر، وبناء عليه فالمحكمة خلصت إلى أن الملامح البحرية لهذه القطعة تفي بالمقاييس المشار إليها وأنها جزيرة موضع اعتبار لرسم الخط المتساوي الأبعاد فقررت المحكمة أن السيادة على قطعة جرادة للبحرين بموافقة ١٤ صوتا مقابل ٥ أصوات. [٤٤]

- خامساً: السيادة على فشت الديبل

وافقت المحكمة بالإجماع على أن ارتفاع فشت الديبل المنخفض المد

يقع تحت سيادة دولة قطر وفقاً مع الرأي القائل بأنه في القضية الحالية ليست هناك أرضية للاعتراف بحق البحرين في استخدام المياه المنخفضة لهذه الفشوت التي تظهر وقت الجزر. (٤٥)

خاتمة

أظهرت هذه الدراسة، أن الموارد الاقتصادية كانت وستبقى احد أهم الأسباب الرئيسية التي ساهمت في خلق هذه المشاكل الحدودية، وبينت ان معظم المشاكل والنزاعات الحدودية في المنطقة العربية ذات صلة وثيقة بالنفوذ والتدخل الاستعماري الأجنبي الذي كان ولازال في بعض المناطق ـ يمثل دوراً مريباً في هذه الخلافات بشكل أو آخر، ومن ناحية أخرى، أوضحت كيفية مساهمة الاستقرار السياسي والبعد عن الممارسات المتطرفة، في التوصل إلى حلول سليمة لمشاكل الحدود، بعيداً عن التطرف والدعاية والشعارات الخادعة ، ونرى ضرورة إتباع أساليب المفاوضات الأخوية وأهمية تغليب سياسة المصلحة العليا بأفق استراتيجي على المصالح الآنية الضيقة بأفق المكسب السريع هي الأجدى والتي تحقق المصلحة العليا للأطراف المتنازعة. وتبين لنا ان حدود الدول العربية كانت في الغالب حدوداً تم رسمها بفعل السياسة، ولا علاقة لها في كثير من الأحيان بمنطق الجغرافيا أو التاريخ ففي بعض الحالات ظهر ان الحدود كرست تقسيم القبيلة الواحدة ومزقت اقتصاداً محلياً ومن ثم فان حدود بعض البلدان العربية قد لا تكون متطابقة مع منطق الجغرافيا ولا وثائق التاريخ ومن هنا يبدو ان الحدود في المنطقة العربية، هي حدود خططت وفق الصراعات والمصالح الأجنبية الاستعمارية في كثير من الأحايين .

ان نتائج تحويل الخلافات الحدودية، إلى نزاعات وصدامات مسلحة ، في سبيل الحصول على مكاسب إقليمية أو اقتصادية أثبتت عدم جدواها وعقم

هذا الأسلوب وخطورته، فالصدامات العسكرية الخطيرة بين الدول المتنازعة، والتي استمرت فترات طويلة ولم يكن لها من نتيجة سوى زيادة حدة النزاع وخسائر هائلة في الموارد الاقتصادية والبشرية ، ثم العودة إلى نقطة البداية .

وهكذا فان اسلم الطرق للتخلص من هذه القضايا التي تثقل كاهل الأمة وتعيق وحدتها وتطورها، هو اللجوء إلى الوسائل السلمية ولا بد من الحوار الهادئ البناء ارتكازاً على وحدة المصير وتبادل المصلحة ، واقتسام الموارد الاقتصادية التي قد تكون محل نزاع بوسائل سلمية ترضي كافة الأطراف، ان فرض الحلول العسكرية لم يكن ولن يكون أسلوبا ناجحاً في حل قضايا الحدود .

وختاماً فإننا نزعم ان هذه الدراسة تنطوي على احد أهم الدروس المهمة في حل مشاكل الحدود بعيدا عن الصدمات المسلحة وهي محاولة للتعرف على هذه القضايا وإلقاء الضوء على أسباب ظهورها ونتائجها ومن ثم فقد تأكد ان اسلم السبل لحلها هو اللجوء إلى الوسائل التفاوضية ويظل الملجأ الأخير محكمة العدل الدولية بعيدا عن الصراعات المسلحة. وهناك كثيراً من النواحي المتعلقة بقضايا الحدود العربية لا زالت تحتاج إلى أبحاث مفصلة ومتعمقة مثل قضايا رسم الحدود وتخطيطها وتعيينها وتعميق مفهومها على أنها نقاط اتصال لا انفصال. وبالتالي فلا بد من دراسات متعمقة لوظائف هذه الحدود والدور الذي تلعبه في رسم السياسات العربية، وفي تحديد آفاقها المستقبلية التي تحقق المصلحة المشتركة للجميع.

المصادر والمراجع

١. أبو طالب، حسن. قراءة سياسية وقانونية في حكم محكمة العدل الدولية. القاهرة: الأهرام. ٢٠٠١/٣/١٧.

٢. الحموي، ياقوت. معجم البلدان. المجلد الثاني. ط١. القاهرة: ١٩٠٦. ص٧٢.

٣. الخصوصي، بدر الدين عباس. دراسات في تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر. ج٢. الكويت: ذات السلاسل. ١٩٨٨. ص٣٨.

٤. الشلق، أحمد زكريا. تطور قطر السياسي. ط٤. الدوحة. ٢٠٠٩. ص ٦٥، ٦٦.

٥. الشيباني، محمد شريف. إمارة قطر العربية. بيروت: ١٩٦٢. ص٣٩.

٦. المنصور، عبدالعزيز. التطور السياسي لقطر. الكويت: ذات السلاسل. ١٩٨٠. ص ٣٤.

٧. العابد، فؤاد. سياسة بريطانيا في الخليج العربي ١٨٥٣-١٩١٤. ج٢. الكويت: ذات السلاسل. ١٩٨٤. ص ١٣٩.

٨. جريدة الخليج. الخلاف القطري البحريني. البحرين: ٢٠٠١/٣/١٧. ص ١٨.

٩. جريدة الرأي العام. الكويت: ١٩٩٧. ص ٢٨.

١٠. جريدة الزمان. قطر: ٢٠٠٠/٦/١٤. ص ٢٦.

١١. جريدة السياسة. حكم محكمة العدل الدولية في الخلاف القطري البحريني. الكويت: ١٩ مارس ٢٠٠١. ص ٣٢.

١٢. حراز، السيد رجب. الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب. القاهرة: ١٩٧٠. ص ١٢٨.

١٣. شندي، مجدي. حدودكم يا عرب. ط١. القاهرة: الدار المصرية. ١٩٩٣. ص٦٢.

14. Kelly. Britain and Persian Gulf 1975-1980, Oxford. 1968, P. 675.

١٥. طهبوب، فائق. تاريخ البحرين السياسي. الكويت: ذات السلاسل. ١٩٨٣. ص ٤٦.

١٦. كرم، جاسم. النزاع الحدودي بين دولتي قطر والبحرين. مجلة العلوم الاجتماعية. جامعة الكويت: مجلد ٣٠. عدد ١. ٢٠٠٢. ص ٢٣٩.

١٧. لوريمر. دليل الخليج. الجزء الثالث. قطر: ١٩٧٥. ص١٢٧٢.

١٨. مركز جريدة الوطن للمعلومات والدراسات. الكويت: ٢٠٠١/٣/١٨. ص ٢٢.

١٩. مرهون، عبد الجليل زيد. أمن الخليج بعد الحرب الباردة. بيروت. دار النهار. ص ١٧٢-١٧٣.

ممباسا بين المزارعة والبوسعيديين

د./ مجدى رشاد عبد الغنى

كلية الآداب- جامعة الفيوم

ممباسا[*] Mombasa هى أحدى مدن الساحل الشرقى للقارة الأفريقية وتقع تقريبا على خط الاستواء فجوها حار رطب وتشمل المدينة على جزيرة يطلق عليها ممباسا التى تعتبر القلب النابض للمدينة القديمة حيث تأسست المدينة من خلال هذه الجزيرة التى تتميز عن باقى الجزر بدخول المياه إلى اليابسة واقتطاع جزء منها، تلفه المياه حيث تفصله عن الأرض الأم بحوض مائى، يبلغ عرضه فى أقصى اتساع له حوالى واحد ك.م.[١] وهذا ما أدى إلى وجود أهم ميناء فى الساحل الشرقى للقارة الأفريقية فهو ميناء كليندينى والذى يعنى باللغة السواحيلية (الميناء العميق). [٢] وهذا الميناء ساعد على رسو السفن القادمة من الهند والجزيرة العربية والسفن العابرة للمحيط الهندى مما أدى إلى تميز الحركة التجارية بها بالنشاط والتنوع حيث اشتهرت منذ بدايتها بوجود طائفة من الصناع المهرة الذين قاموا بسك النقود من النحاس والفضة. [٣]

كذلك ارتبطت الجزيرة بالأرض الكينية من الشمال بجسر (نيالى) الذى سهل عملية الاتصال بين الداخل الأفريقى والساحل مما ساعد على تنشيط حركة التجارة الداخلية، خاصة وأن التجار الأجانب اقتصرت تعاملاتهم عبر الساحل الأفريقى بالمناطق الساحلية فقط إلا أن ممباسا كانت من أوائل المدن التى بدأ بها التعامل التجارى مع المنتجات الداخلية فى أفريقيا[٤]، كما أنها

ذات موانئ طبيعية لا تحتاج إلى بذل كثير من التحسينات عليها وهـذا مـا يميزها عن باقى المدن الأفريقية مما يسهل رسو السفن عليها.

وبالنظر إلى خريطة(*) الساحل الشرقى للقارة الأفريقيـة يتـضح أن الموقع الجغرافى لمدينة ممباسا جعلها من أهم المدن التى نشأت فى الـساحل الشرقى للقارة الأفريقية، حيث أنها تتوسط هذه المدن فنجد فى شمالها توجـد عدة مدن من أهمها مالندى، وبات، لامو، براوة- وزيلع مقديشيو أمـا فـى جنوبها فتوجد مدينة بمبا (التى يطلق عليها الجزيرة الخـضراء) وزنجبـار ومنفية، وكلوة ورأس دلجادوا(٥)، وهذا الموقع أضاف لها أهمية أخرى بأنـه سهل لها الاتصال بكل الساحل الشرقى لأفريقيا كما أنه جعل منها المحـور الرئيسى للتجارة والتحكم فى هذا الساحل وهذا ما سـوف نلاحظـه خـلال دراسة القوى التى تعاقبت على حكم ممباسا. حيث لم تستقر الأمور لأى قوة توجد فى الساحل الشرقى لأفريقيا إلا بالسيطرة على مدينة ممباسا، فاستقرار ممباسا يعنى استقرار الساحل الشرقى للقارة الأفريقية.

كما أن سكان ممباسا ليسوا كغيرهم مـن سـكان الـساحل الـشرقى الأفريقى، حيث أنهم دائمو الثورة ضد الحكام الأجانب، فقد اتـسم سـكانها بالعنف وشدة المراس، حيث تزعمت ممباسا الحركات الانفصالية لكل مـدن الساحل الشرقى للقارة الأفريقية ضد أى قوى أجنبية فى المنطقة. (٦)

ويختلف المؤرخون حول بداية نشأة هذه المدينة فالبعض يرجع نشأتها إلى القرن العاشر الميلادى وتحديدا عام ٩٧٥م على يد الشيرازيين(٧). ولكن الدكتور جمال زكريا يرى أن الهجرة الفارسية وخاصة الشيرازية إلى شرق أفريقيا حدثت بين عامى ١٠٥٥ و ١١٠٠ على أثر فرار الشيعة الشيرازيين من وجه طغرل بك السلجوقى الذى غزا شيراز سنة ١٠٥٥، وكانـت هـذه الهجرات بزعامة على بن الحسن الشيرازى الذى نجح فى الـسيطرة علـى

الساحل الشرقى لأفريقيا حيث أصبحت مدينة كلوة عاصمة لدولته التى أطلق عليها دولة الزنج، إلا أن ممباسا نجحت فى السيطرة على هذه المدن خلال القرن الثانى عشر فأصبحت المركز الذى تدار منه شئون الساحل الشرقى للقارة الأفريقية. [٨] واستمرت هذه الأوضاع حتى جاءت حركة الكشوف الجغرافية، فقد وقعت ممباسا تحت السيطرة البرتغالية عام ١٥٠٥م. [٩] عندما حاصرها دالميدا بأحدى عشرة سفينة وثلاث قوارب وبعد أن تأكد من أن ميناؤها عميق ويصلح لرسو سفنه أرسل إلى حاكمها يدعوه للطاعة ولما رفض الأخير هاجم دالميدا المدينة وأخذها عنوة وأضرم فيها النيران وكان ذلك فى الثامن من أغسطس ١٥٠٥.[١٠]

ولكن لم تنعم السلطة البرتغالية بالاستقرار خاصة فى ممباسا فقد تزعم حكامها حركة مقاومة الوجود البرتغالى بها، بل امتد نفوذ حكامها على بعض المدن المجاورة خاصة بممباسا حيث منعوهم من أداء الجزية التى كانوا يدفعونها للبرتغاليين خاصة وأن السلطة البرتغالية كانت قد أوكلت إلى حاكم زنجبار بجمع الجزية من المدن الأفريقية المجاورة، ولما عجز عن أدائها بسبب امتناع ممباسا وبمبا عن دفعها له اشتكى للحكومة البرتغالية، التى أرسلت قواتها لمهاجمة ممباسا، ولكن شيخ ممباسة كان أصعب مراسا فى ثورته إذ كانت مدينته حصينة وموقعها صعب المرام ووسائل المقاومة لديه متوافرة تذكر اهلها بحلاوة الاستقلال وتحبب إليهم الذود عن ساحته، ورغم أن البرتغاليين قد تلقوا الدعم المادى والعسكرى من معظم المدن الساحلية خاصة من زنجبار وكلوة ومالندى الذين أمدوهم بالسلاح والرجال إلا أن ممباسا ظلت فترة صامدة أمام الغزو البرتغالى حيث لزم أهلها الغابات ومارسوا ضد البرتغال حرب النبال المسمومة حتى قتلوا منهم طائفة كبيرة، وقد تفشى مرض الطاعون بين البرتغاليين مما أجبرهم على الرحيل من ممباسا فى ابريل عام ١٥٢٨. [١١]

ويبدو أن التركيبة السكانية لممباسا ساعدت فى قيام الثورات ضد الوجود البرتغالى بها، حيث كانت ملجأ وملاذ للتجار العرب الفارين من ظلم واعتداء البرتغاليين الذين ضيقوا على تجارتهم فشكل هؤلاء جبهة ضد الوجود البرتغالى فى الساحل الشرقى كانت مدينة ممباسا أهم مراكزها[١٢]، فقد كانت ممباسا أسبق مدن شرق أفريقيا إلى طلب المساعدة من القائد التركى (على بك) الذى قدم إلى مقديشيو عام ١٥٨٥[١٣]، وكان معه سفينة واحدة وثمانين جنديا وأخبرهم أنه أتى من قبل السلطان مراد الثالث العثمانى ليحررهم، حيث طلب منه شيخ ممباسا بناء قلعة وتزويده بحاميات عثمانية، ولكن القوات البرتغالية استطاعت القضاء على قوات على بك وأسره عام ١٥٨٩، وانتقمت من المدن التى استنجدت به. [١٤]

ونتيجة لما كانت تسببه ممباسا من اضطرابات للوجود البرتغالى فى شرق أفريقيا فكرت البرتغال جديا فى ضمان الناحية الأمنية وتفاديا لتكرار ما حدث، خاصة بعد أن ظهر منافسين أوربيين فى المحيط الهندى، قامت البرتغال ببناء قلعة المسيح (حصن يسوع Fort Jesus) فى ممباسا عام ١٥٩٣ حتى تحقق الاستقرار لها فى الساحل الشرقى للقارة الأفريقية. [١٥]

وجاءت بأحد أفراد الأسرة الحاكمة من مالندى ليتولى السلطة فى ممباسا والتى استمرت من ١٥٩٣ – ١٦٣٢[١٦]، عندما قام يوسف بن حسن الذى تولى السلطة بعد وفاة والده، وهذا الحاكم الذى اعتنق المسيحية قبل ذلك وعمد فى جوادر وتزوج من برتغالية وبعد أن تولى السلطة أجبر الأهالى على أكل لحوم الخنازير وسمى باسم برتغالى هو جيرونيمو Jeronimo chingulid، لكنه بعد أن تولى السلطة عاد سرا إلى الاسلام وقاد ثورة ضد البرتغال استمرت حتى عام ١٦٣٢ عندما استطاعت القوات البرتغالية القضاء عليها . [١٧]

وبعد أن حقق اليعاربة وحدتهم الداخلية وحرروا بلادهم من السيطرة البرتغالية زمن الإمام سلطان بن سيف اليعربى (١٦٤٩ - ١٦٦٨) فى عام ١٦٥٠[١٨]، وتزامن ذلك مع قيام الثورات فى الساحل الشرقى لقارة أفريقيا الأمر الذى جعلهم يتجهون لطلب المساعدة من عمان نظرا للروابط التى تربطهم بها وقد خرج هذا الوفد من مدينة ممباسا قاصدا الأراضى العمانية بهدف طلب مساعدتهم ضد البرتغاليين، وقد نجحت قوات الإمام فى السيطرة على معظم المدن فى الساحل الأفريقى، ثم توجهت هذه القوات إلى ممباسا فى ١٢ فبراير ١٦٦١ ونزلت قواتها فى ميناء كلنديني حيث تمكنت من صد القوات البرتغالية واضطرتهم للانسحاب إلى قلعة يسوع والتحصن بها وفى النهاية تمكنوا من الاستيلاء على المدينة وعين اليعارية محمد بن مبارك واليا علها، وعاد الأسطول العمانى إلى مسقط فى ٢٤ مارس ١٦٦١ بعد أن أسر من القوات البرتغالية ثلاث سفن. [١٩] واستمرت القوات العمانية محاصرة لقلعة ممباسا حتى عام ١٦٦٥. [٢٠]

وظل الساحل الشرقى لأفريقيا محل صراع بين البرتغال وعمان حتى عهد الإمام سيف بن سلطان الملقب بقيد الأرض (١٦٨٨- ١٧١١) حيث أرسل اسطولا من سبع سفن تحمل حوالى ٣٠٠٠ مقاتل لحصار ممباسا حيث بدأ الحصار فى ١١ مارس ١٦٩٦ واستمرت إلى ١٣ ديسمبر ١٦٩٨ . [٢١]

وقد نجح الإمام سيف بن سلطان بمساعدة قبيلة المزارعة[*]، فى السيطرة على حصن يسوع بعد حصار دام ثلاث وثلاثين شهرا[٢٢]، وبذلك دانت ممباسا لحكم دولة اليعاربة، حيث أصبحت المركز الرئيسى الذى تدار من خلاله شئون الساحل الشرقى للقارة الأفريقية بشكل رسمى من قبل دولة اليعاربة وهو الذى يبدأ بعام ١٦٩٨، وتبع ذلك سيطرة اليعاربة على بمبا وكلوة وزنجبار حتى تم لهم طرد البرتغاليين من جميع قواعدهم الواقعة شمال

موزمبيق وأصبحت هذه المناطق من التوابع العمانية.[٢٣] حيث عين الإمام واليا على ممباسا يقوم بتحصيل الخراج من مدن الساحل الشرقى لأفريقيا لإرساله إلى عمان.[٢٤]

وتختلف المصادر التاريخية حول أول من تولى ولاية ممباسا فى عهد اليعاربة، حيث يذهب البعض إلى أن الجمادار شاه داود البلوشى الملقب بشوت هان هو أول والى من قبل اليعاربة على ممباسا.[٢٥] بينما تذهب أغلب المصادر إلى أن أول من تولى هذه الولاية هو أحد أفراد أسرة المزارعة التى صاحبت الحملة العمانية إلى شرق أفريقيا وان هذا الوالى هو ناصر بن عبد الله بن محمد المزروعى الذى كان ضمن قوات الجيش العمانى الذى كان يقوده مبارك بن غريب المزروعى.[٢٦]

ومع تولى ناصر بن عبد الله المزروعى ولاية ممباسا ابتدأت الهجرات المتتالية للمزارعة حيث جاء الوالى بأقاربه ثم فى أواخر دولة اليعاربة جاء محمد بن عثمان وأخواه على وقضيب وأبناء عمومتهم ثم توالت الهجرات من البيوتات الأخرى إلى قبيل استيلاء السيد سعيد بن سلطان على ممباسا حيث انقطعت الهجرات بأوامر من دولة البوسعيد خوفا من تأثيراتهم على الساحل الأفريقى.[٢٧]

أما عن المناطق التى كانت تحت ولاية المزارعة فى الساحل الشرقى للقارة الأفريقية والتى كانت ممباسا مركزا لها فيذكر الأمين المزروعى أن هذه السيادة كانت تمتد من رأس نغمين شمالا ونهر نبغان جنوبا[٢٨]، ونغمين منطقة شمال مالندى جنوب نهر تانا وكانت خاضعة للمزارعة أما نهر بنغان فهو يصب فى اقصى شمال ساحل تنزانيا حاليا.[٢٩]

وكان وقوع ممباسا تحت الحماية العمانية ايذانا بزوال الوجود البرتغالى فى الساحل الشرقى، فلم يبق لهم إلا موزمبيق، أما شعوب الساحل

الشرقى فقد ظلت على حالها متقلبة فى حالة وسطى بين التبعية للنظام الجديد والاستقلال عنه أى كما كانت فى العهد البرتغالى، خاصة وان الإمام سيف بن سلطان لم يتبع نظام الحكم المباشر فى هذه المدن إلا فى ممباسا الذى عين فيها واليا يدير شئونها.(٣٠)

ويبدو أن الوجود العمانى ظل اسميا على هذه البلاد لأسباب عدة منها انشغالها بالمشاكل الداخلية نتيجة الحروب الأهلية خاصة بعد وفاة الإمام سلطان بن سيف الثانى والتنافس الأسرى على السلطة، إضافة إلى صراعها الأقليمى مع القوى الناشئة فى منطقة الخليج العربى، كما أنها استنفذت معظم قوتها فى الصراع مع البرتغال والذى استمر زهاء نصف قرن كما أنها لم تعر الشرق الأفريقى مزيدا من الاهتمام سوى الحصول على نسبتها من الخراج السنوى مما أتاح الفرصة لولاتها للتفكير بإدارة شئونه دون الرجوع إلى الدولة اليعربية، مما ساهم فى احساس هذه القوى باستقلالها بعيدا عن التدخلات العمانية، وتواكب ذلك مع رغبة سكان الساحل فى عدم الخضوع المباشر لأى سلطة خارجية كما حدث زمن الاحتلال البرتغالى(٣١)، ورغم ذلك فأن الوالى المزروعى ناصر بن عبد الله ظل على ولائه لأئمة اليعاربة منذ عام ١٦٩٨ حتى ١٧٢٨م.

ولم تتوقف الأمانى البرتغالية فى العودة للسيطرة على الساحل الأفريقى فقد نظمت عدة حملات لاستعادة ممباسا خلال أعوام ١٦٩٩، ١٧٠٣، ١٧١٠، ولكن دون جدوى، ولكن بسبب انشغال عمان بمشاكلها الداخلية تكررت المحاولات البرتغالية للسيطرة على ممباسا خلال الفترة من ١٧٢٧-١٧٢٩. (٣٢)

وجاءت الفرصة عندما قامت ثورة ضد الوالى ناصر بن عبد الله المزروعى بقيادة سيسا رومبا إلا أن الأهالى رفضوا عزل الوالى وتولية آخر

بدلا منه فقامت حرب بين الطرفين استغل ذلك البرتغاليون الذين تمكنوا مــن الاستيلاء على ممباسا عام ١٧٢٨(٣٣)، ولكنهم لم يهنأوا بهذا النصر فقد قــام الأهالى بالثورة عليهم وأرسلوا بطلب المدد من إمام عمان ونظرا لشدة مــا ارتكبه البرتغاليون من فظائع، فذهب أهل المدينة إلى البرتغاليين قــائلين(٣٤) "لقد نما إلى علمنا أن إمام عمان قادم على رأس جيش للهجوم على ممباســا فماذا ترون" فكان ردهم إنه يجب توزيع الأرز على أهل المدينة فى ســنبله حتى يساعدوهم فى التصدى للغزو العمانى فما كان من أهل ممباســا إلا أن استولوا عليه ورفضوا إعادته للبرتغاليين فى الحصن وانتهزوا فرصة موعد المهرجان البرتغالى الكبير وخرجت القوات البرتغالية من الحصن، فخــرج عليهم سكان المدينة وحاصروهم وذبحوهم وهزمت القوات البرتغالية وطلبوا هدنة للخروج من الحصن فرحلوا عنه وتواكب ذلك مع وصول الأســطول العمانى بقيادة محمد بن سعيد المعمورى ١٧٣٠ فاستولى على القلعة وعــين واليا على ممباسا. (٣٥)

ولما ضعفت قوة اليعاربة بعمان، وعجــزوا عــن مقابلــة الممالــك الأفريقية، لقلة مدخولها، وكثرة نفقاتها عرضوا على الوالى الأسبق ناصر بن عبد الله المزروعى ان يقبل ولاية افريقية وان يدفع لهم شيئا معلوما من المال سنويا وتكون لهم السيادة فقط، لكنه اعتذر لكبر سنه، وطلب من الإمام سيف بن سلطان ان يولى محمد بن عثمان المزروعى(*) ولاية ممباسا فقبل ســيف ذلك(٣٦)، واستغل الوالى الجديد الأوضاع العمانية التى وصلت إلى حالة مــن التردى حيث كسب كثير من الأرض خلال الفترة من ١٧٣٩- ١٧٤٤. (٣٧)

أحمد بن سعيد والمزارعة فى ممباسا:

لم تكن السنوات الأولى لحكم الإمام أحمد بن سعيد سهلة بسبب فترة الاضطراب وعدم الاستقرار التى شهدتها عمان بعد الحرب الأهليــة التــى

انتهت باعلان أحمد بن سعيد إماما على عمان، فوجد الإمام الجديد (أحمد بن سعيد) نفسه أمام تحديات خارجية لا يمكن تجاهلها خاصة حرصه على استمرار العلاقة التجارية والسياسية مع الساحل الشرقى للقارة الأفريقية(٣٨)، خاصة وان والى ممباسا محمد بن عثمان المزروعى عندما علم بتولى الإمام الجديد أبى ان يقر له بالتبعية حيث قال ان احمد بن سعيد لم يكن من الأسرة المالكة بل أنه مثله من أفراد الخلق ولاحق له على بلاد عمان ولا على ممباسا، وإذا كان والى صحار قد اغتصب زمام الحكم والولاية على قطر عمان فماذا يمنع حاكم ممباسا من الاقتداء به أو ماذا يحول دون تملكه هذه الجزيرة(٣٩)، ويذهب البعض أن هذا الرفض من جانب الوالى المزروعى يأتى استمرارا للخلاف القائم فى عمان بين القبائل الهناوية والغافرية، حيث ينتمى المزارعة إلى الغافرية والبوسعيد إلى الهناوية، فمعظم القبائل الغافرية فى شرق أفريقيا رفضت الخضوع للإمامة الجديدة عدا زنجبار التى كان أغلب سكانها من المستوطنين الهناوية. (٤٠) ورأى البعض الآخر أن هذا الرفض كان أمرا طبيعيا حيث رأى المزارعة ان احمد بن سعيد وصل إلى السلطة عن طريق الانقلاب على أسرة اليعاربة والمزارعة يمثلون هذه الأسرة فى شرق أفريقيا فكيف تدين للأسرة الجديدة التى انقلبت على أصحاب السيادة عليها، لذلك فقد وجدوا ان رفض سلطة البوسعيد يتيح لهم فرصة الوصول إلى الحكم الذاتى(٤١)، خاصة وأن الفرصة أصبحت سانحة بسبب انشغال الإمام الجديد باستتباب الأمور فى الداخل، وبالتالى فليس لديه الاستعداد لإرسال حملات إلى شرق أفريقيا، كما رأى الوالى المزروعى ان الاعتراف سوف يفقده مركزه الاجتماعى له ولعائلة المزراعة فى شرق أفريقيا خاصة وان البوسعيد دأبت على تولية أحد أفرادها على المقاطعات التابعة لها لذلك اتخذت هذا الموقف. (٤٢)

فهو يرى أنه مناظر لأحمد بن سعيد فكليهما كانا من ولاة أسرة

اليعاربة، حيث كان احمد بن سعيد واليا على صحار من قبل الإمام سيف بن سلطان الثانى ومحمد بن عثمان المزروعى مثله واليا على ممباسا، فإذا استقل احمد بن سعيد بعمان فمن حق محمد عثمان المزروعى الاستقلال بممباسا(٤٣)، وكان أول مظاهر الاستقلال هو الامتناع عن ارسال الخراج السنوى المقرر على ممباسا وما جاورها من مدن فى الساحل الشرقى بل رفض الاعتراف باية حقوق لعمان على ممباسا(٤٤). بل انه شجع حاكم بات النبهانى على عدم الاعتراف بالنظام الجديد فى عمان. (٤٥)

وانتقل خبر استقلال محمد بن عثمان المزروعى إلى الإمام احمد بن سعيد عن طريق بعض مشايخ الكليفنين (أحد قبائل ممباسا التى كانت تبغض حكم محمد بن عثمان المزروعى) وذلك لتقديمه الملنديين والطوائف الثلاث فى ممباسا) [الكلندبينين –التنجانية – الشنغامية] عليهم، فعندما خلصت الأمور للإمام أحمد بن سعيد فى عمان كاتبوه بما حدث من الوالى المزروعى من اعلانه الاستقلال عن السلطة الجديدة فى عمان(٤٦)، على أن الإمام احمد كان يدرك جيدا مساوئ حدوث انفصال بين بلاده وبين شرق افريقيا لما بين الاقليمين من روابط وصلات اقتصادية وروحية لذلك فان المشاكل التى واجهها سواء داخلية فى بلاده أو فى الخليج أو فى صراعه ضد الفرس لم تكن لتشغله عن تثبيت السيادة العمانية على ممتلكاتها فى الشرق الأفريقى(٤٧)، ومن هنا كان تفكيره الجدى فى إخضاع ممباسا وتأكيد سيطرته على تلك المقاطعات التى ورثها عن اسلافه اليعاربة.

لذلك ارسل الامام احمد بن سعيد إلى ممباسا نفرا من اعوانه المخلصين وهم سيف بن خلف المعمرى، وسيف بن ناصر، وسيف بن سعيد، وسيف البطاشى ومعن بن كليب، ووصلوا ممباسا غير متظاهرين بالذى جاءوا به حيث عمدوا إلى الدهاء والحيلة، وقابلوا الوالى وأخبروه بأنهم

تخاصموا مع الإمام وهاجروا من عمان قاصدين الاقامة حيث هو مقيم، ثم اتصلوا بالكليفيين وكاشفوهم بالأمر وأخذوا منهم العهد على أن يكونوا عونا لهم على تأدية تلك المهمة، وبعد أن استوثقوا من أهل ممباسا ممن فى القلعة من جنود الإمام طلبوا من الوالى ان يجهز لهم السفر إلى كلوه ويمنحهم مبلغ من المال للاتجار به هناك، فأجاب الوالى طلبهم، وبينما هو جالس معهم يرتب لهم ما أرادوا وثبوا عليه وقتلوه وقبضوا على أخيه على بن عثمان وعلى خلف بن قضيب وعبد الله بن خميس العفيفى وزجوهم فى السجن، وأشاعوا بين الجنود ان هذه هى أوامر الإمام احمد بن سعيد فأطاعوهم وتم القبض على من فى ممباسة من المزارعة فقتل بعضهم وتشتت الآخرون.[٤٨]

وتولى سيف بن خلف المعمرى ولاية ممباسا نائبا عن الإمام احمد بن سعيد بالاتفاق مع زملائه وحصل لهم من الكليفيين والممباسين كل ما يطلبونه من المعونة وكان ذلك فى عام ١٧٤٤ [٤٩]، ولكن كيركمان يذكر أن ذلك حدث فى عام ١٧٤٧- ١١٦٠هـ. [٥٠]

وأظهرت هذه الحادثة مدى الانقسام داخل المجتمع الممباسى الذى يتكون من اثنى عشر قبيلة منها تسعا تسكن المدينة وهى التى تضم فيما بينها الباقين من السكان الشيرازيين القدامى والمهاجرين القدامى، وهم من عاون الوالى البوسعيدى الجديد فى التخلص من محمد بن عثمان المزروعى وخاصة الكليفيين الذين قدموا له الدعم والعون من أجل التخلص من حكم المزارعة وذلك لأن مصالحهم التجارية ترتبط بضرورة استمرار العلاقة مع مسقط، أما الحزب الآخر وهم أحزاب الريف الذين يشكلون الثلاثة قبائل الباقية ولكنهم يشكلون الأغلبية من سكان ممباسا، خاصة وأنهم من المهاجرين الجدد الذين هاجروا مع الوجود اليعربى فى ممباسا فكانت علاقتهم مع ولاة المزارعة علاقة حميمة تربطها روابط متينة خاصة وان

أغلبهم يؤمنون بفكرة الاستقلال وهذا ما تحقق لهم فى عصر اليعاربة، الذى مكنهم من السيادة على معظم الساحل الافريقى. (٥١)

إلا أن الأمور لم تستتب لسيف بن خلف فقد ظهر فى الأفق تحالف جديد بين القبائل فى ممباسا وخاصة رؤساء كلنديني وقبائل وانيكا وأحد التجار الانجليز ويدعى "كوك" الذى اعترض على الزج بعلى بن عثمان فى السجن بعد أن وعده سيف بن خلف بإطلاق صراحه، لذلك فكر فى استصراخ بالقبائل الحليفة للمزارعة، خاصة وانهم كانوا معارضين للوالى الجديد، بل ذكرهم بانهم هم من طلب الامام سيف بن سلطان اليعربى بتعيين محمد بن عثمان وأخيه على ممباسا، فأثار بهذا القول عوامل الكره والبغضاء فانتهى الأمر بان تعاهد رجال القبائل على ضرورة اطلاق سراح السجين على بن عثمان المزروعى بعد أن تم الاتصال بأفراد الحامية القديمة التى كانت لا تزال تحرس الحصن. (٥٢)

ويذكر الأمين المزروعى دور امرأة من الملنديين اسمها موانة قمباية التى قامت بدور الوسيط بين القبائل المناصرة للمزارعة وحراس السجن الذى كان يقيم فيه على بن عثمان، وخاصة بعض البلوش اللذين كانوا لايزالون يخلصون لعهد المزارعة ومنهم (همداء – هلب) حيث سهلا عملية هروب على بن عثمان من داخل القلعة(٥٣)، وذهبوا به إلى قبيلة وانيكا بقرية امريرا فتمكن على بمساعدة التاجر الانجليزى من تهيئة معدات الانتقام وتدابيره ووافته قبيلتا كلنديني ووانيكا بقوة كافية لمهاجمة الحصن، ونجح فى الاستيلاء عليه، وقتل معظم رجال الحامية أما سيف بن خلف المعمرى فقد تم القبض عليه فقطعت رأسه أخذا بالثأر منه لأخيه محمد بن عثمان وكان ذلك فى عام ١٧٤٦. (٥٤)

وفسر البعض مساعدة الضابط الانجليزى للمزارعة على أنها بداية

للنفوذ البريطانى فى شرق أفريقيا والعمل على تدعيم انفصالها عن عمان وبالتالى تسهيل السيطرة عليها خاصة وانها منطقة هامة بالنسبة للتجارة الانجليزية، وتأمين للطريق البريطانى عبر المحيط الهندى إلى المستعمرات البريطانية فى الهند وجنوب شرق آسيا. (٥٥)

ولما استتب الأمر لعلى بن عثمان وتم له السيطرة على زمام الأمور ولاه السكان حاكما عليهم فترك للسكان كل ما غنمه من الأموال فى الحصن ولم يبق لنفسه غير الأسلحة والذخيرة، بل منح أهل الجزيرة وخاصة قبيلة وانيكا وكليندينى امتيازات عديدة لم يسبق لهم ان حصلوا عليها فى عهد اسلافه(٥٦)، بل تنازل لهم عن عشور الجزيرة الخضراء مدة بقاء حكم المزارعة فى شرق أفريقيا. (٥٧)

وقد وافق ذلك قيام حركات انفصالية أخرى تزعمها النبهانيون فى جزيرة باتا وحققت ما حققه المزارعة فى ممباسا، إلا أن ممباسا تختلف عن غيرها من المدن (الساحل الأفريقى) فهى المدينة الثائرة التى دائما ما تثور ضد القوى الخارجية منذ عهد البرتغاليين، فقد وقفت تتزعم حركة المعارضة وتجاهد فى سبيل تكوين حلف مع المقاطعات الثائرة وتعمل على توجيه الشعور فى الشرق الأفريقى للثورة ضد عمان، حيث نجحت فى إثارة المدن التابعة لها كمقديشيو وبراوة وبقية المدن الواقعة فى الجنوب. (٥٨)

وحاول الإمام احمد بن سعيد التصدى لهذه الثورات ولكنه سرعان ما أدرك ان تورطه فى مشكلات الشرق الأفريقى فى الوقت الذى لم يكن حكمه قد توطد فى عمان قد يؤدى إلى انهيار دولته، خاصة وان علاقته بالفرس قد ازدادت عداء(*)، إضافة إلى حدوث صراع انجليزى فرنسى على منطقة الخليج وامتد نشاطه إلى مياه مسقط(**)، الأمر الذى أجبر الإمام أحمد على وقف نشاطه فى الشرق الأفريقى مكتفيا بالعمل على ترويج التجارة

واستمرارها بين مسقط وشرق أفريقيا مقتنعا بسيادة عمان الأسمية(٥٩). ولم يبق لعمان إلا جزيرة زنجبار التى أرسل إليها عبد الله بن جعد من أسرة البوسعيد يترأس فيها الحامية العمانية للدفاع عنها، أما سلطان كلوا فكان معترفا فى الظاهر بسلطة الإمام – أما شيخ مركة فقد ارسل إلى مسقط اثنين نيابة عنه لتقديم الولاء للإمام. (٦٠)

ونتيجة لانشغال الإمام أحمد بن سعيد بالأمور فى مسقط استغل على بن عثمان الفرصة ليبسط سيطرته على الساحل الشرقى لأفريقيا فبدأ صراعه مع بات Pate حول بمبا (Pemba) (الجزيرة الخضراء) التى كانت مصدر الغذاء بالنسبة لممباسا حيث أن أرضها خصبة وتتنوع فيها المنتجات الزراعية، وجاءت الفرصة عندما طالب سكان بمبا الوالى المزروعى أن يقبلهم تحت حكمه لعدم رضائهم بحكم (فوم عمر) وزير سلطانتهم (موانا ميمى) فبادر على بن عثمان المزروعى بإرسال قوة من جيشه إلى بمبا وتمكن بمساعدة سكانها من طرد أعوان فوم عمر وجنده ونصب فيها حاكما هو خميس بن على. (٦١)

وبسبب الصراع القبلى فى ممباسا، رأت قبيلة (وامفيتا) ان تزعزع نفوذ المزارعة بعد أن منحت كل الامتيازات لقبيلتى "كلنديني" و "وانيكا"، فقامت بالاتصال بوزير بات ليقترحوا عليه قبول المساعدة من قبيلتهم لاسترداد ما انتزعه على بن عثمان منه لذلك تحركت من بات قوة صغيرة إلى كلنديني واستولت عليها واحرقوها بعد أن مهدت لهم ذلك قبيلة (وامفيتا) ذلك ولكن على بن عثمان دخل معهم فى مفاوضات أدت فى النهاية إلى انسحابهم من كلنديني، وعادوا إلى بات مرة أخرى دون أن يتم الكشف عن الاتفاق الذى حصل بينهم. (٦٢)

إلا أن طموح على بن عثمان المزروعى لم يتوقف عند هذا الحد بل

جهز حملة كبيرة من القبائل المختلفة فى ممباسا وجند فيها كثير من العــرب ساكنى ممباسا وأبحر على رأس هذه الحملة التى قيل أنها بلغت ثمانين سفينة بين كبيرة وصغيرة (سفن شراعية) [٦٣]، بهدف الاستيلاء على زنجبار بقصد ان يضمها إلى املاكه وينتقم من أحمد بن سعيد صاحب السيادة عليها، وعهد إلى مسعود بن ناصر بالإشراف على هذه الحملة وكان ابن عم علـــى بـــن عثمان، ونائبه على بمبا بعد وفاة حاكمها خميس بن على، ولما وصلت هـــذه الحملة إلى زنجبار نزلت إلى البر وهاجمت المدينة واستولت على الـــشطر الأكبر منها ولم يبق فى حوزة المدافعين عنها سوى الحصن والقسم المحـــيط به، وكاد على أن يستولى على كامل المدينة إلا أن الأمور سارت عكس مـــا كان يشتهى على المزروعى إذ تآمر عليه مسعود بن ناصر الـــذى اســـتعمل خلف بن قضيب وحرضه على قتل على حتى يتولى هو السلطة فقام علـــى حين غرة بطعن على بن عثمان المزروعى أثناء حصار زنجبار وقام أحـــد أفراد قبيلة واسيجيو بقتل خلف بن قضيب ودفنا الأثنان بزنجبار وبذلك ينتهى حكم على بن عثمان المزروعى الذى ظل فى حكم ممباسا من ١٧٤٦ حتـــى ١٧٥٣ حقق خلالها كثيرا من الانتصارات والرخاء والاستقرار لأهل ممباسا حتى أصبحت اهم مدينة فى الساحل الشرقى لأفريقيا. [٦٤]

وقد أدت هذه الحادثة إلى انقسام الجيش على نفسه مما أدى بمسعود أن اتخذ قرارا بعودة الجيش إلى ممباسا، وعهد إليه بولاية ممباسا خلفا لعلى بن عثمان المزروعى. [٦٥]

وفى عهد الوالى الجديد مسعود بن ناصر زاد نفوذ ممباسا على حساب المدن المجاورة لها، ففى مدة حكمه حدثت فتنة داخلية فى مدينة بـــات Pate كان من نتائجها ان ثارت المنازعات من جديد بين ســـكان هـــذه الجزيـــرة وممباسا، فقد حدث خلاف بين الوزير فوم عمر Fumo Omar وفوم آلـــوت

على النفوذ فى بات، واستنجد كلاهما بمسعود بن ناصر، فأرسل هذا إلى بات جندا بقيادة احمد بن محمد المزروعى ولكن هذه القوات انحازت فى النـــزاع إلى جانب فوم آلوت واستمرت الحرب بين الطرفين لمـــدة خمـــس ســـنوات خلص الأمر فى النهاية لفوم آلوت الذى اعترف بسيادة ممباسا علـــى بـــلاه مقابل بقائه فى الحكم مع تعيين أحد المزارعة وزيرا فى بلاده وهو عبـــد الله بن مسعود، وبذلك فرضت ممباسا سيطرتها على بات التى كانت تحت سلطة النباهنة، ولكن هذه السيادة ظلت اسمية حتى وفاة فوم آلوت حليف المزارعة، فعندما تولى الوالى الجديد فوم عمادى نزع سيادة المزارعة على بات، وظل مستقلا بها بعيدا عن نفوذ المزارعة والبوسعيد، وظل مسعود فـــى ولايتـــه لممباسا حتى عام ١٧٧٤م. (٦٦)

وخلف مسعود فى السلطة عبد الله بن محمد بن عثمان المزروعى وهو أول والى ولد فى ممباسا واستمر فى ولايته وفقا لرواية جيـــان مـــدة ســـبع سنوات حيث ظل فى السلطة حتى عام ١٧٨٢م (١١٩٧هـ). (٦٧)

أما عن الأوضاع فى عمان فقد ظل الإمام احمد بن ســـعيد منـــشغلا بالأحداث فى مسقط واكتفى بحرصه على استمرار التجارة فى جميع المناطق الواقعة فى الساحل الشرقى لأفريقيا الخاضعة لسيادته، فكان يرسل كل عـــام ثلاث سفن أو أربع لتجلب إلى مـــسقط العبيـــد والـــذهب والعـــاج وســـائر الحاصلات التى يمكن الحصول عليها خاصة من كلوا Kilwa وزنجبار التى تدين له بالولاء. (٦٨)

أما المدن التى لم تكن تابعة له فقد كان يرى أنه ما دامـــت العلاقـــات قائمة بينها فلا حاجة إلى التدخل فى شئونها السياسية، وقد ظلت هذه الأحوال حتى وفاة الإمام أحمد بن سعيد عام ١٧٨٣. (٦٩)

وقبل وفاة الإمام احمد بن سعيد بعام تولى السلطة فى ممباسا أحمد بن

محمد بن عثمان المزروعى أخو الوالى المتوفى والذى استمر على سياسة سابقيه فى تدعيم سلطة المزارعة فى ممباسا، ففى عهده تولى السلطة فى عمان الإمام سعيد بن أحمد بن سعيد، وخرج عليه اخوه سيف الذى لم يجد الفرصة سانحة له فى السيطرة على عمان، فحشد جنوده ونزل بهم إلى شرق أفريقيا للاستيلاء على زنجبار ووصلها عام ١٧٨٤ وكان يحكمها خلفان بن أحمد الذى رفض أن يسلمها له وظل يدافع عن حصن زنجبار حتى وصلت الإمدادات من مسقط بقيادة أحد أبناء الإمام سعيد وهو (أحمد بن سعيد) فتغيرت الأحوال وتقابل سلطان أخو سعيد بسيف وأقنعه بأن مقاومته لا تجدى نفعا، فقرر سيف الخروج من زنجبار منتحيا إلى لامو، فظل فيها حتى مات.(٧٠) وأثناء عودة أحمد بن سعيد وعمه سلطان بن أحمد مرا على ممباسا(٧١)، ونزلا إلى البر فى ٢٠ يناير ١٧٨٥ دون أن يعلم بأمرهم أحد، ولكن تعرف عليهم أحد الأعراب الذين يعرفونهم فى عمان، وشاع خبر وصولهم وخرج الحاكم لاستقبالهم، حيث بذل لهما من مظاهر الترحيب والأكرام الكثير، وخلال هذا اللقاء نهض أحمد بن الإمام ووجه الخطاب إلى الحاكم سائلا أياه "لمن هذه المدينة" يقصد ممباسا فأجاب الحاكم "أن المدينة ملك للإمام" ولكن أحمد لم يكتف بهذه الإجابة بل طلب أن يكون ذلك كتابيا، ورغم أعتراض أقارب الحاكم أحمد بن محمد المزروعى على ذلك إلا أنه وقع كتابا يعترف منه بذلك، فغادر أحمد بن سعيد ممباسا تاركا الأمور إلى ما كانت عليه بعد أن حصل على هذه الوثيقة التى يعترف فيها المزارعة لأول مرة بسلطة إمام عمان على بلادهم. (٧٢)

ورغم خطورة هذا الاعتراف على حق المزارعة فى امتلاك ممباسا إلا أن الوالى أحمد بن محمد المزروعى اعتبر أن الذى كتبه لا يضر ولا ينفع، وفى نظره ان حكومة مسقط لا تستطيع السيطرة على بلاده إلا بالسيف. (٧٣)

وقد واتت الفرصة لأحمد بن محمد المزروعى للاستقلال ببلاده مرة أخرى فى عهد سلطان بن أحمد بن سعيد عندما كان الأخير منشغلا فى صد هجوم السعوديين على بلاده، وكذلك ظهور القواسم، وحكام البحرين فعمد المزروعى إلى استغلال تلك الفرص واستقل ببلاده، بل أنه أخذ يسعى لتوسيع نطاق سلطة المزارعة فى شرق أفريقيا، فى الوقت الذى ركز فيه الإمام العمانى فى علاقته بشرق أفريقيا على مسألة التجارة مع زنجبار، وخاصة مسألة تصدير تجارة الرقيق إلى المستعمرات الفرنسية أو إلى سورات أو عبر مسقط إلى الصين، فى الوقت الذى انتقل اهتمام التجار البانيان(*)، بزنجبار كأحد أهم الموانئ البحرية لتجارة العاج بعد انحسار الوجود البرتغالى فى الساحل الأفريقى، وتحول هؤلاء التجار للعمل مع السلطة الجديدة فى عمان. (٧٤)

وقد بلغت قوة مسقط التجارية فى عهد سلطان بن أحمد ما لا يقل عن ١٥ سفينة تتراوح حمولتها من ٤٠٠ – ٦٠٠ طن إضافة إلى عدد من السفن الصغيرة التى جابت مناطق الهند والساحل الشرقى للقارة الأفريقية والصين.(٧٥)

السيد سعيد بن سلطان وممباسا:

وبعد وفاة الإمام سلطان بن أحمد عام ١٨٠٤ تولى بدر بن سيف حتى ١٨٠٦ ثم تولى من بعده السيد سعيد بن سلطان(٧٦) فى الوقت الذى كان لا يزال يحكم ممباسا أحمد بن محمد المزروعى، حيث شهدت هذه الفترة نفوذ المزارعة فى مدينة بات وارخبيل لامو، فقد حدث نزاع على السلطة بعد وفاة فوم عمادى حاكم مدينة بات فى عام ١٨٠٧. فانقسم أهل بات وما يتبعهم من البلاد على انفسهم وانقسموا إلى قسمين : قسم يؤيد تولى ابن فوم عمادى وآخر يؤيد أبن الحاكم السابق فوم ألوت، ولما لم يتفق الطرفان فقد طلبا من

شيخ ممباسا التحكيم فيما بينهم، فتدخل فى البداية كوسيط، لكنه ناصر ابن فوم آلوت وهو (وزير) على حساب ابن فوم عمادى الذى كان مناهضا لسياسة المزارعة فى بات، حيث أرسل قواته إلى بات وحمل الناس على انتخاب ابن فوم آلوت، وارتضى الحاكم الجديد ان يكون واليا تابعا لحاكم ممباسا. (٧٧)

كما تم تعيين وكيل لحاكم ممباسا مقيما فى بات، إضافة إلى بقاء حامية عسكرية مكونة من خمسمائة جندى بقيادة عبد الله بن أحمد المزروعى فى بات لحفظ الأمن والاستقرار فيها(٧٨)، إلا أن اتباع فوم عمادى الخاسر فى ولاية بات لجأوا إلى جزيرة لامو Lamoo وهى المدينة التى رفضت الاعتراف بسلطة السلطان الجديد فى بات، فأدى ذلك إلى زحف زعيم ممباسا نحو لامو بقوة كبيرة، لكنه لم ينجح فى دخولها وتلقى جيشه هزيمة منكرة تراجع على أثرها إلى ممباسا. (٧٩)

ولكى يضمن سكان لامو عدم تجدد الهجمات من طرف ممباسا مستقبلا(٨٠)، فقد طلبوا حماية الإمام السيد سعيد بن سلطان وأرسلوا مبعوثا إلى مسقط لهذا الغرض، وقد وافق الإمام على إرسال حاكم إلى لامو عام ١٨١٣ واختار لهذا المنصب رجلا يدعى خلف بن ناصر مما أدى إلى توتر العلاقات بين المزارعة فى ممباسا والإمام السيد سعيد بن سلطان. (٨١)

لذلك فقد بدأ السيد سعيد اهتمامه بالشرق الأفريقى منذ تولية السلطة فى عمان وربما تكون الظروف هى التى دفعته إلى ذلك خاصة بعد ان استنجد به أهل لامو، لكن رغم إرساله تدعيما عسكريا إلى لامو بهدف تحجيم تطلعات حكام ممباسا فى المناطق المجاورة وبالرغم أن أوضاع الخليج العربى لم تكن مساعدا له للتفرغ لمسألة الساحل الشرقى لأفريقيا إلا أنه فى بداية عهده شجع عملية الهجرة العمانية للساحل الشرقى بهدف إيجاد مراكز

قوى تقلل من نفوذ المزارعة فى الساحل الشرقى، وكان أهم هذه الهجرات هجرة البروانيين، وهى عائلة اشتق اسمها من إبراء فى المنطقة الشرقية وقد جاءت هذه القبيلة للبحث عن مصالح قوية لها فى الطرف السفلى للأراضى العمانية فى الساحل الشرقى بين كلوا ورأس دلجادو (فى مكيندانى وليندى) وقد حصنوا ليندى، لأنها المركز الساحلى المهم لخط التجارة غرب بحيرة نياسا حيث نصب سالم بن عبد الله البروانى على الأرجح نفسه حاكما على منطقة كوتا كوتا البعيدة عن البحيرة، وأصبح البروانيون أقوياء جدا فى شمال هذا الاقليم وبرزت فيهم شخصيتان هما محمد بن خلفان البروانى المعروف باسم روماليزا وخميس بن عبد الله البروانى وقد انشأ البروانيون جزءا من اتحاد الحرث وهو فرع شرق أفريقيا من هناوى الشرقية(٨٢)، وقد لجأ السيد سعيد إلى ذلك خاصة وأن المناطق التى كانت تابعة لسلطة عمان فى شرق افريقيا تعانى من نقص فى عدد العمانيين المهاجرين على العكس من المناطق التابعة للمزارعة فقد استوطن فيها عدد كبير من المزارعة فأصبحوا يشكلون قوة لدولتهم فى صراعها مع السلطة العمانية فى مسقط، وكانت هذه الهجرات جزءا من خطة السيد سعيد للسيطرة على كامل الساحل الشرقى لأفريقيا.

وقد تزامنت هذه السياسة مع تولى عبد الله بن أحمد المزروعى ولاية ممباسا بعد وفاة والده فى ١٨١٤، الذى أظهر منذ تولية السلطة الرغبة فى شق عصا الطاعة على إمام مسقط، وامتنع عن إرسال الهدايا إلى عمان إيذانا باعلان استقلال ممباسا عن سلطة عمان التى اعتبرت انها سلطة اسمية منذ ان وقع والده على اعتراف بسلطتها فى عهد سعيد بن أحمد. (٨٣)

وكان أول من شرع فيه تقوية الجيش باعداد الأسلحة وتعيين القواد المدربين، ونصب الولاه الأكفاء فى الأطراف، بل وطد سلطة المزارعة فى

منطقة واسين حينما حاول أهلها الخروج عن طاعته. (٨٤)

وكان هذا الوالى هو قائد الحامية المزروعية فى بات زمن والده ولما تولى هو الحكم فى ممباسا أرسل أخاه مبارك بن أحمد أميرا على هذه الحامية وبقى المزارعة فى بات (بته) ولهم ذلك النفوذ الذى حصلوا عليه زمن احمد بن محمد المزروعى، وقد توفى حاكم بته وصديق المزارعة وهو (وزير) الذى لقب بسلطان احمد. وخلفه فوم لوت بن بوانه وكان على عكس سلطان احمد فى تأييده لنفوذ المزارعة فى بات فقد رأى الحاكم الجديد التخلص من سيطرة المزارعة على بلاده، فلم يجد بديلا إلا الاتصال بالسيد سعيد بن سلطان، فأرسل إليه يقر له بملك بات (بته) ويشتكى إليه تعدى المزارعة عليه. (٨٥)

لذلك أرسل السيد سعيد بن سلطان "حسين بن على بن عائش الجنيبى" بكتاب منه للوالى عبد الله بن أحمد المزروعى يحذره من التدخل فى أمور بات (بته) Pate ويبدو من مضمون الرسالة أن عبد الله بن احمد قد بعث برسالة إلى السيد سعيد يؤكد له فيها حقه فى بات وأنه يملك نصفها وفق الاتفاق بينه وبين فوم لوت، وقد أكد له السيد سعيد ان قوله غير صحيح، فإن أهل بات قد طلبوا حماية السيد سعيد منذ خمس سنوات، وأن تدخل والى ممباسا فى شأن بات يعد تدخلا فى شئون السيد سعيد، ويعد اعتداء على سلطة السلطان فى بات، وذكره بما تحت يده من أملاك، ويعتبر هذا اعترافا من السيد سعيد بحق الوالى فى ممباسا فى امتلاك الأراضى التى تحت إدارته وختم رسالته، بقوله: " فإن قبلتم فلكم ما لنا وعليكم ما علينا وأن ابيتم فأبشروا بحرب من الله عليكم". (٨٦)

ولكن جاء رد عبد الله بن أحمد المزروعى على السيد سعيد برسالة مع مبعوث الإمام السيد سعيد حسين بن على بن عائش الجنينى حيث أرسل بدلا

من الهدايا التى كان يرسلها والده إلى عمان " درعا وقدرا وميقافــا، يرمــز بذلك إلى أنه ان كان رجل حرب فليتدرع وينزل فى ميدان القتال كما أرسل القليل من البارود وبعض الرصاصات كنوع من التحدى. (٨٧)

وهذا الرد يعنى ان ما بينهما ليس سوى العداوة، وان الحرب هى رده على خطاب السيد سعيد. (٨٨)

وعندما علم أهل ممباسا بما فعله الوالى استاءوا منه وأيقنوا أن الحرب آتية لا محالة، فأصبحت هذه الواقعة حديث الناس ويرجع ذلك إلى ادراكهــم قوة السيد سعيد بن سلطان وقواته التى ربما قد تؤدى إلى هلاك بلادهم. (٨٩)

وأمام هذا التطور فى العلاقات بين المزارعة والسيد سعيد بن سلطان فكر الوالى عبد الله بن احمد المزروعى بالاستعانة بالانجليز حتى يقف أمام المد العمانى فى شرق أفريقيا، فقام بزيارة إلى بومباى وأثناء رحلته حدث ان أصيبت سفينته بثقب فأضطر إلى الرسو فى مركة وكان أهلها غير راضــين عن حكومة ممباسا وشجر خلاف بين السكان ورجال عبد الله فى هذا الصدد فهجم هؤلاء على المدينة ونهبوها، ثم واصل السير إلى بومباى حيث اكــرم حاكمها وفادته وبذل المجهود فى ملاطفته، فظلت علاقاتها حــسنة مــن ذاك العهد، وكان ذلك تمهيدا لتحديد العلاقات البريطانية مع المزارعة فى شــرق أفريقيا والتى توجت فى النهاية بفرض الحماية البريطانية عليها بعد ذلك. (٩٠)

وكان من نتائج تغلب عبد الله بن احمد المزروعى على سكان مركــة واتخاذه التدابير ضد السيد سعيد أن ذاع صيته بين سكان الــساحل الــشرقى للقارة الأفريقية، وأخذ أهلها يحتمون به ويلجأون إليه كلما شــجرت بيــنهم الخصومات، فقد دعى للتحكيم بين أهل براوة فى خلاف نشأ بسبب تافه وهو ان إمام الجامع توفى فأراد الطرفان المتخاصــمان مــن قبيلتــى البيــضاء والحاتمية ان يكون الإمام منهم، وذهب الحاج رفاعى شــيخ الحاتميــة إلــى

ممباسا ليطلب من عبد الله المعونة على خصمه واعدا إياه بخضوع المدينة له وإقرارها بسيادته، فأرسل حاكم ممباسا معه قوة صغيرة أعلنت سيادة ممباسا عليها. (٩١)

واستمرارا لرغبة السيد سعيد فى توطيد نفوذه فى الساحل الشرقى لقارة افريقيا، واستجابة لدعوة حاكم بات (بتة) فى معاونة عمان ضد حاكم ممباسا أرسل فى عام ١٢٣٨/ ١٨٨٢(٩٢)، حملة عسكرية بقيادة حماد بن احمد البوسعيدى على رأس قوة قوامها أربعة آلاف جندى بأسطول يبلغ ثلاثين سفينة. (٩٣) فرست السفن على براوة حيث تزودت ما يلزمها من الماء ثم نزلت قوة من رجالها وطلبت من سكانها الاعتراف بسيادة السيد سعيد عليهم فنصح الحاج رفاعى شيخ الحاتمية ألا يعرضوا انفسهم للأذى والاضطهاد من رجال الإمام "مع العلم ان الحاج الرفاعى هذا هو من طلب من قبل حماية المزارعة على براوة" فكتب شيوخ براوة صكا ووقعوا بقبولهم سيادة السيد سعيد على بلادهم، ولم يكتفوا بذلك بل أرسلوا بهدية من العاج إلى قائد الجيش العمانى(٩٤)، ثم أبحرت الحملة إلى ساحل بات (بته) وقد رسا هذا الأسطول فى مياه مشايخ وانجا ببلدة بته. (٩٥) وأرسل قائد الجيش إلى الأمير مبارك بن أحمد رسالة يأمره بالتسليم والا سيتعرض للحرب، إلا أن الأمير فضل الحرب على التسليم، وبالرغم من أنه لم يكن لديه القوة التى تسانده ضد جيوش حماد البوسعيدى، فقد كانت قوته لا تعادل عشر ما جاء به الأمير حماد، فضلا عن أن اكثر الناس فضلت الانحياز إلى جانب السيد سعيد لما هالهم من كثرة العدد والعدة، فلم يبق مع الأمير المزروعى سوى جنوده الممباسيين. (٩٦)

ورغم علم مبارك بن أحمد أنه مغلوب لا محالة لكنه رأى ان لا يستسلم، فالتقى الجيشان وتغلب جيش مبارك فى البداية على جيش حماد،

ولكن الذخائر والمؤن نفذت من جيش ممباسا، وبسبب الرياح الشمالية تعذر وصول الامدادات إليه من ممباسا وبمبا، فتمكن حماد من التضييق عليه، ففضل مبارك الانسحاب إلى ممباسا، فوقعت المدن الثلاث (بات – سيهوى – بازا "فازا") فى يد قوات السيد سعيد، ونصب عليها فوم آلوت السرير (أى الصغير أو الشاب) ولقب باسم السلطان أحمد السرير. (٩٧)

واستعد حماد بن أحمد البوسعيدى لمهاجمة ممباسا، وعندما مر على لامو أشار عليه أهلها بمهاجمة الجزيرة الخضراء (بمبا) أولا، حيث اخبروه أنها المخزن الرئيسى لمؤن المزارعة ومصدر ثروتهم، وأنه إذا استولى عليها، فإن ذلك سيسهل عليه محاصرة ممباسا ويعجل من سقوطها(٩٨)، لذلك قرر مهاجمة الجزيرة الخضراء، حيث دخلها من غير قتال فقد كان واليها فى زيارته السنوية إلى ممباسا، وعندما علم عبد الله بن أحمد المزروعى ارسل إليهم جندا بقيادة مبارك وأخوته للاستيلاء على بمبا من يد حماد البوسعيدى، ورست سفن مبارك بن أحمد فى قرية سيزينى من قرى بمبا، ونزل بقواته لمهاجمة قوات البوسعيد، ولكن جاءت امدادات من زنجبار استولت على قوات مبارك فى مياه سيزينى، ولما وجد المزارعة انفسهم محاصرين من قوات البوسعيد اضطروا إلى قبول شروط قوات حماد بأن يوقع على تنازل لسلطان مسقط على بمبا مقابل عودة ما تبقى من قواته إلى ممباسا، وعادت قوات ممباسا عبر واسين إلى بلادهم، وكان الوالى عبد الله بن أحمد مريضا، فأشتد عليه المرض، فنهر أخوته، وأمرهم بالعودة لاستعادة بمبا من يد البوسعيد، إلا أن قواتهم هزمت مرة أخرى، فمات عبد الله بن أحمد حزنا على ضياع أهم مخازن غذاء المزارعة وهى الجزيرة الخضراء. (٩٩)

لكن التحدى الأفريقى الأكبر للسيد سعيد هو جزيرة ممباسا وحكامها المزروعيين، فقد ظلت لسنوات طوال الهم الذى يقض مضاجعة والعقبة التى

تحول دون تحقيق طموحه فى ان يؤسس ملكا واسعا فى شرق أفريقيا. (١٠٠)

وقد مثلت ممباسا أهمية خاصة للسيد سعيد، حيث أنها تتحكم فى طريق التجارة البحرية نظرا لأهمية مينائها الذى يعد أهم ميناء طبيعى فى شرق أفريقيا، كما أنها تتوسط مدن الساحل الشرقى فمنها يمكن السيطرة على الحركة التجارية فى المحيط الهندى، كما أنها أكثر المدن رواجا فى التجارة خاصة مع الداخل الأفريقى، لذلك فكر السيد سعيد فى أن تكون ممباسا عاصمة لدولته الأفريقية التى كان يحلم بضمها، لكن المزارعة وقفوا حائلاً فى تحقيق هذا الحلم فى بداية حكم السيد سعيد. (١٠١)

إضافة إلى أن منطقة الخليج العربى بداية من مطلع القرن التاسع عشر كانت تمر بمراحل متطورة هددت وجود دولة البوسعيد خاصة الدولة السعودية الأولى، وحركة القواسم التى عطلت رغبة السيد سعيد فى إنشاء جناح لامبراطوريته فى الساحل الشرقى لأفريقيا خاصة وأن الفترة الأولى من حكمه شهدت تراجعا كبيرا فى حركة التجارة مع شرق أفريقيا، بعد أن وصلت إلى مراحل متقدمة فى عهد سلطان بن أحمد، حيث تراجعت ايرادات الجمارك من ٢٠٠ ألف دولار زمن سلطان بن أحمد إلى ١٠٠ ألف دولار فى عهد السيد سعيد، وخاصة مع بداية عشرينيات القرن التاسع عشر، لذلك رأى الأخير أنه فى حاجة إلى تثبيت سلطته فى شرق أفريقيا لتنمية التجارة معها. (١٠٢)

وإدراكا من السيد سعيد لأهمية العامل الاقتصادى فى الصراع بينه وبين المزارعة فى ممباسا، فقد اتبع سياسة الحصار الاقتصادى مع حكام ممباسا واتبع فى ذلك طريقين أولهما منع العمانيين من التجارة معها والثانى منع المدن الأفريقية التى استولى عليها مؤخرا من التعامل معها، إضافة إلى ان ممباسا كانت قد فقدت أهم مورد لها وهو الجزيرة الخضراء (بمبا) بعدما

استولى عليها السيد سعيد. [١٠٣] وبذلك شهدت ممباسا حظرا تجاريا من عمان خلال عشرينيات القرن التاسع عشر فقد نقصت لديها السلع الأساسية والأقمشة العسكرية، وبالتالى سهل الفرصة للسيد سعيد فى السيطرة عليها. [١٠٤]

موقف بريطانيا من الصراع العمانى المزروعى على ممباسا:

مع بداية حكم السيد سعيد بن سلطان (١٨٠٦- ١٨٥٦) رغب فى ان تحمى السفن البريطانية السفن التجارية العمانية فى السواحل الهندية والمحيط الهندى من غارات السفن الفرنسية ومن أعمال القرصنة، ولكن الحكومة البريطانية ماطلت فى الرد، كذلك وقفت الحكومة البريطانية ضد المصالح العمانية فى نزاعها مع الدولة السعودية الأولى، لذلك ابدى السيد سعيد استعداده لفكرة توطيد العلاقة مع فرنسا، فقد أرسل مبعوثا شخصيا إلى حاكم جزيرة فرنسا "ديكان Decaten" ليعتذر له عن أسر الانجليز للسفينة الفرنسية لوفيجلان Vigilant من جانب الفرقاطة البريطانية كونكورد فى ميناء مسقط[١٠٥]، واعرب عن رغبة بلاده فى توطيد العلاقة مع دولة فرنسا، ويعرض عليه مكانا يخصص كمقر للفرنسيين فى ميناء مسقط، فما كان من زعيم سورات إلا أن كتب لحاكم بومباى عن ذلك، وذكر أن العرب الذين وصلوا إلى سورات يعزون السبب فى محاولة كسب السلطان لصداقة الفرنسيين ان الانجليز لن يحموه من اعدائه، لذلك قام حاكم بومباى وحاكم الهند بكتابة رسائل إلى السيد سعيد يخبره فيها بموافقتها على حماية الأسطول العمانى، ووضع قوة لحراسة الأسطول التجارى السنوى فى رحلته إلى البنغال فى ذهابه وإيابه بين الهند ومسقط فى مواجهة الخطر الفرنسى، كذلك وضع سفينة حربية لحماية ميناء مسقط ذاته. [١٠٦]

وبناء على ذلك توقفت المفاوضات العمانية الفرنسية، ولكن فى

الثالث من ديسمبر عام ١٨١٠ تلقت فرنسا ضربة أخيرة حيث استسلمت جزيرة مورشيوس وقائدها جنرال ديكان لقوة عسكرية بريطانية بقيادة الجنرال "أبر كرومبى" "Gen – Aber Gromby" وبذلك انتهت هذه الحقبة بتفوق انجليزى فى المحيط الهندى.[١٠٧] ايذانا ببداية مرحلة جديدة، بنت فيها انجلترا علاقتها مع القوى الخليجية الناشئة حرصا منها على مصالحها سواء أكانت فى بلاد الهند او فى منطقة الخليج العربى.[١٠٨]

كان واضحا ان العلاقات العمانية البريطانية كانت قائمة على المصالح المتبادلة بين الطرفين فإن انجلترا ترغب فى اقامة علاقات جيدة مع عمان حرصا على مصالحها فى الهند ومنطقة الخليج العربى خاصة بعد قضاء محمد على على الدولة السعودية الأولى، فأصبحت عمان هى القوى المحلية الوحيدة القادرة على التعاون مع الانجليز، وقد ظهر هذا التعاون واضحا عندما تعرضت السفن البريطانية لهجوم القواسم، فلم يقف معها إلا السيد سعيد[١٠٩]، كذلك كانت عمان فى حاجة إلى العلاقات مع الحكومة البريطانية لتدعم موقفها كقوة محلية فى المنطقة، وحمايتها من أى تهديد يؤثر على بقائها وتمثل ذلك فى مساعداتها فى القضاء على تمرد بنو بوعلى فى منطقة جعلان ١٨٢٠[١١٠]، مما أدى إلى تثبيت سلطة السيد سعيد فى عمان، كذلك كانت انجلترا فى حاجة إلى سلطة عمان خاصة فى الساحل الشرقى للقارة الأفريقية لتكون غطاء لها كسلطة لها الحق فى السيطرة على المنطقة لتمنع الوجود الأوربى الآخر فى المنطقة[١١١]، خاصة وان فرنسا أرادت ان تعيد علاقاتها مع عمان عبر مستعمرة ريونيون التى بقيت فى ايدى الفرنسيين التى استخدموها فى محاولة لاستعادة المزايا السياسية والتجارية التى تمتعوا بها من قبل على شواطئ الهند وأفريقيا[١١٢]. كما ان فرنسا نمت علاقاتها بالساحل الشرقى لأفريقيا خاصة مع المدن الغير خاضعة لسلطان مسقط فى تجارة الرقيق حيث ارتفعت وارداتها من هذه المدن إلى الضعف خاصة من

كلوا وممباسا وهذا ما ازعج السيد سعيد بن سلطان من فرنسا. [١١٣]

ونتيجة لذلك زاد التقارب بين السيد سعيد والحكومة البريطانية حيث توج هذا التقارب بتوقيع معاهدة عام ١٨٢٢[١١٤]، وهذه المعاهدة التى ارتبطت بالساحل الشرقى لقارة أفريقيا، حيث وافق السيد سعيد بالغاء تجارة الرقيق خارج مستعمراته، ويمنع بيعها إلى الدول الأوربية خاصة فرنسا والبرتغال، وأنه سيعاقب كل شخص يبيع عبيدا لدولة مسيحية[١١٥]، وأنه سيحجز السفن التى تتاجر فى الرقيق، والموافقة على تعيين قناصل أو وكلاء فى أى مكان يرغب فيه الملك البريطانى، يكونون مكلفين بمكافحة تجارة العبيد، وأن يفوض الإمام الطرادات البريطانية بالقبض على جميع السفن العربية التى قد توجد محملة بالعبيد إذا كانت متجهة إلى موانئ خارج أراضى الامام. [١١٦] وعلى الامام تزويد جميع السفن العربية بجوازات سفر وتصاريح ميناء وسوف يتم القبض على أية سفينة يوجد على ظهرها عبيد ولا تحمل تصريح من قبل اى طراد بريطانى. [١١٧]

ووفقا لهذه المعاهدة منحت بريطانيا الاعتراف لسلطة السيد سعيد بسيادته على شرق أفريقيا، وكان الهدف من ذلك ان يقف السيد سعيد ضد التدخلات الفرنسية والبرتغالية بوصفه صاحب الحق فى السيادة على هذه المناطق، مع الاحتفاظ بالحقوق البريطانية فى التدخل والإقامة والتفتيش ووفقا لمعاهدة عام ١٨٢٢، وبذلك تمنع التدخل الفرنسى البرتغالى فى الشرق الأفريقى، كما كانت المعاهدة بمثابة اعتراف للسيد سعيد وحده دون غيره فى السيطرة على شرق أفريقيا، وخاصة القضاء على سلطة المزارعة فى ممباسا. [١١٨]

أما عن علاقة المزارعة مع الحكومة البريطانية فقد بدأت منذ ولاية عبد الله بن احمد المزروعى الذى رغب فى الاستعانة بالانجليز لمواجهة المد

العمانى فى عهد السيد سعيد، إلا أن بريطانيا لم تبحث مطالبه، وبعد وفاته حدث نزاع على السلطة فى ممباسا بين سالم بن احمد المزروعى ومبارك اخوه، ولما وجدا ان هذا الأمر سوف يؤدى إلى تفتيت قوتهم ويسهل للسيد سعيد السيطرة على ممباسا اتفقا على ان يتولى عمهما سليمان بن على حاكما على ممباسا فى الوقت الذى كانت تعانى بلادهم من سوء الأحوال الاقتصادية بسبب سياسة السيد سعيد الاقتصادية عليهم بعد أن فرض عليهم الحصار الاقتصادى، لذلك رأى ضرورة الاستنجاد بالانجليز[١١٩]، فاختار خميس بن ناصر ومحمد بن عبد الله بن محمد باشيخ جد آل باشيخ بممباسا، فأرسلهم لمفاوضة الانجليز فى حكومة الهند وطلب الحماية البريطانية على بلادهم.[١٢٠]

وبعد سفر الوفد ببضعة أشهر وصل إلى ممباسا القبطان فيدال فى الأول من ديسمبر ١٨٢٣ على بارجته (بركوته) ورست فى ميناء ممباسا، حيث التقى بوفد الوالى سليمان بن على المزروعى، وطلب منه الوفد رفع العلم الانجليزى على قلعة ممباسا خوفا من سيطرة السيد سعيد بن سلطان على بلادهم، إلا أن القائد فيدال ارجأ الموافقة حتى يرسل الأمر إلى حكومة بومباى[١٢١]. وربما كان الحرص على علاقتها بالسيد سعيد الذى وقع معها معاهدة عام ١٨٢٢ لمنع تجارة الرقيق، كل ذلك دفعها إلى عدم قبول فكرة الحماية على ممباسا. [١٢٢] ويبدو أن الانجليز لم يدركوا حتى ذلك الوقت اهمية ممباسا كمنطقة استراتيجية فى الساحل الشرقى للقارة الأفريقية، خاصة أهميتها التجارية، لذلك غادر فيدال ممباسا دون ان يعطى الموافقة على الحماية البريطانية على ممباسا. [١٢٣]

وبعد ان غادر القبطان فيدال خشى المزارعة ان تفاجئهم مراكب السيد سعيد التى كان يرجى وصولها عن قريب وهم غير مستعدين لمقاومة تلك

القوات الهائلة التى بلغهم خبر إعداد السيد سعيد لها لقتالهم، فـأمر الحـاكم المزروعى برفع العلم البريطانى على القلعة وذلك بدون اذن بريطانيـا[١٢٤]، وبعد مدة قصيرة فى بداية عام ١٨٢٤ ظهر أسطول السيد سعيد بقيادة عبـد الله بن سليمان وكان على وشك محاصرة المرفأ ولكن اضطر للتراجع عندما وجد العلم البريطانى يرفرف على قلعة ممباسا. [١٢٥]

وفى السابع من فبراير وصل الكابتن أوين Captain Owen إلى ميناء ممباسا على رأس السفينة " ليفن" وكان المسئول عن مراقبة الساحل الأفريقى لمنع تجارة الرقيق، وقد فوجئ برفع العلم البريطانى على ممباسا[١٢٦]، فدخل فى مفاوضات مع المزارعة، حيث اعترف له الوالى برفع العلم البريطـانى دون أذن، وابدى له الأسباب، ثم حدد طلبه دخول ممباسا وسـائر توابعهـا تحت الحماية البريطانية[١٢٧]، فقبل القبطان اوين ذلك بشرط التزام المزارعة بمنع تجارة الرقيق مقابل ان يعيد إليه القبطان الأراضى التى أخذها منه السيد سعيد[١٢٨]، وعلى أثر ذلك وقعت معاهدة بين الطرفين والتى نصت على:

١- ان تعمل الحكومة البريطانية على اعادة جميع الأراضى التى نزعـت من والى ممباسا إلى حوزته مرة أخرى.

٢- ان تضمن انجلترا للمزارعة ان تكون ممباسا وراثية فى اسرتهم.

٣- ان يعين وكيل من الحكومة البريطانية فى ممباسا .

٤- ان يتم تقسيم العائدات الجمركية مناصفة بين الطرفين.

٥- السماح لرعاية بريطانيا بالتجارة فى الداخل.

٦- ان تتعهد حكومة الولاية بإلغاء تجارة الرقيق فى ممباسا. [١٢٩]

وعلى أثر هذا الاتفاق تم تعيين جون راتيز Mr. Reates ليكـون أول قنصل بريطانى بها، وما كان من الشيخ عبد الله بن سليمان الظاهرى بعد أن

اخبره الكابتن اوين بالمعاهدة أن وعد ان يلتزم بشروطها شـرط ان يوافـق عليها السيد سعيد بن سلطان، ثم غادرها عائدا إلى عمان لابلاغ السيد سعيد بما رأى، ليتخذ ما يلزم تجاه هذا التطور فى شرق افريقيا. (١٣٠)

ووفقا لهذا الاتفاق وافق الكابتن اوين ان تسترد حكومة ممباسا املاكها القديمة، حيث نزل مبارك المزروعى مع خمسين من رجاله إلى جزيرة بمبا بينما سافر أوين إلى زنجبار يقنع حاكمها بـضرورة التنـازل عـن بمبـا للمزارعة، ولكن سعيد بن محمد حاكم زنجبار، أخبره أن هـذا التنـازل لا يحدث إلا من خلال السيد سعيد بن سلطان، لكن لم يتم انجاز ما خرج مـن أجله فعاد الحاكم المزروعى إلى ممباسا، فى ظل توتر فـى العلاقـات مـع سلطان مسقط الذى لن يسمح بعودة هذه الأملاك مرة أخرى للمزارعـة(١٣١)، ثم استغل اوين الخلاف بين مقديشو والسيد سعيد وحـاول وضـعها تحـت الحماية البريطانية ضمن املاك ممباسا الا أن أهلها رفضوا، إلا أنه نجح فى وضع براوة حيث رفعت الأخيرة العلم البريطانى على مدينتها بقبولها الحماية على ان تكون تابعة لممباسا ووافق اوين على هذا الطلب بشرط اقلاع أهلها عن تجارة الرقيق ثم عاد إلى ممباسا ليرتب امور ادارة هذه المنطقة تحـت الحماية البريطانية. (١٣٢) وقد انتعشت حالة ممباسا الاقتصادية بعد فترة مـن الحصار الاقتصادى الذى فرضه عليها السيد سعيد بن سلطان. (١٣٣)

ولم يقف السيد سعيد بن سلطان مكتوفى الأيدى تجاه هذه التطـورات، فقد بعث برسالة إلى الملك البريطانى يدلل فيها على حقه فى ولاية ممباسـا وفقا للتنازل الـذى حـصل عليـه البوسـعيدين مـن احمـد بـن محمـد المزروعى(١٣٤)، وقد تضمنت الرسالة أوضاع ممباسا منذ ان استولى عليهـا العمانيين منذ عام ١٦٩٨، وأنها تخضع لسلطته حتى عـام ١٨١٩، حينمـا شقوا عصا الطاعة عنهم، وعندما أراد أن يخضعهم لسلطته وجد سفن الكابتن

اوين تحول بينه وبينهم، بل أنه قام بالاستيلاء على بعض الأماكن الخاصة بمسقط، مثل برواة وغيرها من المناطق، إضافة إلى الاستيلاء على بعض السفن التى تحمل الرقيق إلى مسقط، وهذا ليس ضمن الاتفاق المبرم مع الحكومة البريطانية. (١٣٥)

ولم تجب الحكومة البريطانية على مطلب السيد سعيد بن سلطان، وربما كان ذلك للضغط على السيد سعيد حتى ينفذ ما تطلبه منه، خاصة وأنها كانت ترغب فى الغاء تجارة الرقيق بشكل كامل فى كل الساحل الأفريقى، فوجدت هذه فرصة سانحة للضغط عليه خاصة وأن تجارة الرقيق كانت تمثل للسيد سعيد أهم مورد اقتصادى له مع الساحل الشرقى للقارة الأفريقية. فهى من ناحية لم تجب على مطلب السيد سعيد، ومن ناحية أخرى لم تعتمد الاتفاق الذى تم بين الكابتن أوين والمزارعة، حتى يتم تقييم الأمور للصالح البريطانى. (١٣٦)

ولم يأل السيد سعيد جهدا فى اقناع السلطات البريطانية بضرورة رفع الحماية عن ممباسا، ففى مقابلة مع المقيم السياسى فى الخليج العربى فى ديسمبر ١٨٢٥ شكا له من تدخل أوين فى الشرق الأفريقى وان ذلك يعد انتهاكا للصداقة القائمة بينه وبين بريطانيا(١٣٧)، والأكثر من ذلك كتب إلى وكيله فى بومباى ما يفيد استعداده للموافقة على انهاء تجارة الرقيق إذا وعده البريطانيون بالدفاع عن مصالحه فى البر والبحر فى الخليج العربى، أو عن طريق دعمه ماليا أو تمكينه من السيطرة على الساحل الشرقى للقارة الأفريقية. (١٣٨)

ويبدو أن هذا ما كانت تريده الحكومة البريطانية، فجاءه الرد بأن الحكومة البريطانية عازمة على نبذ كل ما يخص ممباسا فى المستقبل، وإبطال ما أتى به القبطان أوين، حيث تم انزال العلم البريطانى فى يوليو

١٨٢٦ بعد أن ظل يرفرف على قلعة ممباسا لمدة عامين ونصف العام. [١٣٩]

وكانت الأوضاع فى داخل ممباسا قد تغيرت فقد ثار أبناء أحمد بن محمد بن عثمان المزروعى ضد عمهم الوالى سليمان بن على بن عثمان المزروعى، فخلعوه، وعينوا بدلا منه سالم بن أحمد بن محمد المزروعى واليا على ممباسا فى عام ١٢٤١هـ/ ١٨٢٦م ليبدأ المواجهة المسلحة مع السيد سعيد بن سلطان[١٤٠]، وقد أرسل سالم بن أحمد المزروعى إلى الملك جورج الرابع يطلب منه تمديد الحماية البريطانية على بلاده وجاء رد الحكومة البريطانية بالرفض حرصا على العلاقة مع السيد سعيد بن سلطان، وخوفا من أن يلجأ المزارعة إلى طلب الحماية من فرنسا فقد نصحت السيد سعيد بأن لا يغالى فى إظهار عدائه لأسرة المزارعة فى شرق أفريقيا. [١٤١]

وبمجرد رفع الحماية البريطانية عن ممباسا، بدأ السيد سعيد مفاوضاته مع حاكم ممباسا سالم المزروعى، على أساس خضوعه لسيادة مسقط، ولكن المزارعة رفضوا، وأرسلوا مندوبا لدى السيد سعيد للمفاوضات على السلام بين الطرفين إلا أن السيد سعيد رفض، بل أنه بدأ فى تجهيز حملة يقودها بنفسه مكونة من أربع سفن رئيسية هى ليفربول، وشاه علم، وبيدمونتيس، وأرتميس، بالاضافة إلى عشر سفن أخرى صغيرة وكان كل منها مجهزا ما بين أربعة وستة مدافع وتحمل ١٢٠٠ مقاتلا لغزو ممباسا. [١٤٢]

وعندما رست مراكب السيد سعيد فى ميناء كلنديني وهو الميناء الرئيسى لممباسا أرسل السلطان رسالتين الأولى للوالى سالم بن احمد والثانية لأحمد بن شيخ زعيم السواحيليين[١٤٣]، يدعوهما فيهما إلى تسليم القلعة، إلا إنهما فضلا الحرب على تسليم بلادهم لسلطان مسقط وكان ذلك فى يناير عام ١٨٢٨[١٤٤]، واستمر القتال لمدة اسبوعين ولكن اثبت المزارعة بسالة شديدة فى الدفاع عن مدينتهم. [١٤٥]

ولما رأى السيد سعيد ان الحرب لم تحقق أهدافه لجأ إلى المداهنة فقد علم بأن أولاد زاهر بن عبد الله [هم فرع من المزارعة لم يتم إشراكهم في السلطة] يحملون ضغينة مما فعله بهم أولاد عثمان بن عبد الله المزروعي [أصحاب السلطة فى ممباسا] من إبعادهم عن الحكم فى ممباسا واستئثار بها هم دونهم، فرأى ان يستعين بهم على جماعتهم، حيث ارسل إلى عبد الله بن زاهر يفاوضه سرا فى شأن الصلح بينه وبين الوالى مقابل ان يدفع له ٣٠٠٠ ريال، واعطاه ١٠٠٠ ريال مقدما وبدهائه نجح عبد الله فى اقناع الوالى المزروعى بالمفاوضة، ووافق أهل المشورة فى ممباسا على ايقاف الحرب، حيث تصالحوا مع السيد سعيد على عقد معاهدة صلح على أساس:

١- ان تخضع القلعة للسيد سعيد ويترك فيها حامية لا تزيد عن خمسين فردا بشرط أن يكونوا من قبيلة بينها وبين المزاريع موافقة.

٢- السماح للوالى المزروعى بالبقاء فى القلعة مع أسرته، كما كان الحال سابقا.

٣- تتبع أرض ممباسا السيد سعيد على أن يحتفظ سالم بالحكم فيها مدى حياته، ولعقبه من بعده. [١٤٦]

٤- يتم تقسيم [الجمارك] مناصفة بين السيد سعيد والحاكم المزروعى مع حق الوالى المزروعى فى تعيين المسئولين فى الميناء. [١٤٧]

ويبدو أن السيد سعيد لجأ إلى عقد هذا الصلح رغم ما به من تنازلات بسبب تطور الأوضاع فى منطقة الخليج العربى، فقد كان الأمر يتحتم عليه العودة إلى مسقط حتى يقضى على الفتن الداخلية، خاصة الصراع على السلطة بين أفراد أسرته، إضافة إلى مقاومة التغلغل السعودى، كما كان عليه الاهتمام بالجانب الاقتصادى لأنهاء المشاكل الداخلية، لذلك سعى لتقوية مركزه فى بندر عباس، فأجبر العثمانيين عن طريق محاصرة البصرة، على

تجديد الاعانة المالية التى كانوا يقدمونها له فيما مضى، كما قام بمحاولة أخيرة لإخضاع البحرين لكنه أخفق تماما وانتهى الأمر بتوقيعه على اتفاقية رسمية للاعتراف باستقلال البحرين ١٨٢٩(١٤٨)، وهذا ما أرضى طموحات الانجليز، وربما كان هذا الاخفاق واحدا من الأسباب التى جعلته يتخلى عن طموحاته فى الخليج العربى، لذلك رأى أن فكرة استقرار أوضاعه فى شرق أفريقيا لن تأتى إلا بكسر شوكة المزارعة، لأن استمرار وجودهم يتعارض مع مشروع السيد سعيد فى إنشاء قاعدة له فى شرق أفريقيا. (١٤٩)

لذلك بدأ السيد سعيد فى تحقيق خطته للقضاء على المزارعة، فأخذ يستميل إليه بالهدايا والعطايا كبراء المدينة وأعيانها، كما بدأ يعمل على أن يتسرب إلى القلعة عدد من الجند بحجة زيارتهم لرفقائهم بالحصن وما كان يخرج منهم فى المساء إلا النذر اليسير، حتى وصل عددهم فى أيام قليلة إلى مائتى جندى وعندما قوى مركز سلطة الإمام فى القلعة استطاع أن يخرج الوالى سالم المزروعى من الحصن(١٥٠)، ثم أعاد اصلاحه، وزادت أعداد قواته فى الداخل إلى أكثر من ٣٥٠ جندى من البلوش ثم ارسل السيد سعيد ناصر بن سليمان الذى كان واليا من قبله على جزيرة بمبا، ليكون قائدا للحامية والجند، ثم أصبح هو حاكم المدينة بدلا من الوالى المزروعى. (١٥١)

وكانت سياسة ناصر بن سليمان فى ممباسا قائمة على الكيد للمزارعة فقد شرع يطعن فيهم وينال من كرامتهم، ولما رأى مشايخ وزعماء الطوائف فى ممباسا ان زيادة هذا الخصام سيؤدى إلى حرب بين الطرفين تدخلوا للصلح بين الطرفين إلا أن ناصر رفض الصلح، وخرج ليقبض على الوالى المزروعى وجميع قياداتهم ولكن المزارعة قاوموا قوات ناصر الذين تحصنوا داخل قلعة ممباسا ففرض المزارعة عليها الحصار، وكان أمام مدخل القلعة من شمالها بيوت قليلة فأمر بهدمها واتخاذ مكانها معسكرا،

وكان جدار القلعة الغربى قصيرا فخاف ان يفر منه احد من هـذه الجبهـة فأصدر امرا بحفر خندق خارج هذا الجدار، واستمر الحصار حتى نفـذ مـا كان بالقلعة من أقوات وبلغ بهم الجهد إلـى ان أكلـوا الفئـران وحـشائش الأرض. (١٥٢)

وخوفاً من خيانة بعض الطوائف رأى الوالى المزروعـى أن يجمـع العرب وجميع مشايخ الطوائف الأثنى عشرة واخذ منهم العهد على الطاعـة والوفاء فعاهدوه على ذلك، واتفقوا على أنه إذا ظهر من أحد منهم خيانة مـا يسلم إلى جماعته ليقتلوه بأيديهم جزاء ما اقترفه من خيانة وطنه، ولم تمض فترة حتى تم اكتشاف خيانة أحد زعماء الطوائف السواحيلية فى ممباسا زعيم مقواية فى شمال المدينة وهو كومبو بن خميس، فقد تبين للـوالى سـالم ان كومبو بن خميس ونفر من قومه اتخذوا الوسائل إلى مساعدة المحاصرين فى القلعة بإرسال الطعام لهم.(١٥٣)

وعندما بلغ خبر هذا الحصار إلى زنجبار أرسل واليها السيد هلال بن سعيد بن سلطان، سفينة مشحونة بالطعام ولكن المزارعة استولوا عليها مما زاد الأمر سوءا، ولما ضاق الخناق بناصر بن سليمان ومن معه مـن شـدة الحصار، وكادوا يموتون جوعا طلبوا من الوالى الأمان، على أن يخرجـوا من القلعة، فأمنهم الوالى، فخرجوا من القلعة كأنهم بعثوا من قبورهم من شدة الحصار. (١٥٤)

وغادرت الحامية العمانية إلى زنجبار، بينما عاد ناصر بن سـليمان إلى بمبا، وعندما دخل الوالى سالم المزروعى القلعة وجد فيها قيودا مكتوبـا فى كل قيد اسم واحد من المزارعة وكان أحد هذه القيود مكتوب عليها اسـم الوالى نفسه، فأرسل فى طلب ناصر بن سليمان فأتوا به فأمر بقتلـه فقتـل، وبالتالى انتهت سيطرة السيد سعيد على ممباسا، وأعاد المزارعة الـسيطرة

عليها مرة أخرى بمساعدة الطوائف في ممباسا، نظرا للعلاقات التى كانت تربط بين الطرفين، إضافة إلى سوء تصرف الوالى البوسعيدى ناصر بن سليمان، خاصة وأنه لم يمض الكثير على الاتفاق الذى وقعه السيد سعيد مع زعماء المزارعة اللذين ارتضوا بالسيادة الأسمية العمانية عليهم، مع بقاء حامية عسكرية بالقلعة إلا أن ناصر بن سليمان استعجل فى إنهاء وجودهم بممباسا فكان التوقيت غير ملائم لمثل هذا القرار، كما أن الأمور فى مسقط، لم تساعد السيد سعيد فى نجدة ناصر فى ممباسا، فمثل هذا تحديا جديدا للسيد سعيد فى الشرق الأفريقى. [١٥٥]

ونتيجة لهذه الأحداث ابحر السيد سعيد من عمان على رأس حملة تقدر قواتها بـ ١٤٠٠ جندى وكان ذلك فى ديسمبر ١٨٢٩، وحاول السيد سعيد الاستيلاء على حصن ممباسا بعد قتال استمر لمدة ستة أيام، غير ان قواته هزمت[*] واضطر إلى طلب الصلح من الوالى سالم بن محمد المزروعى[١٥٦]، حيث بعث اثنين من اعوانه اللذين اعربا للوالى المزروعى عن أسف سيدهم السيد سعيد عما حصل، وان الذى اغضبه هو مقتل ناصر بن سليمان، وانه مستعد للتعاقد معهم على شروط المحالفة الأولى، فأجاب سالم بأنه يقبلها إلا شرطا واحدا منها هو احتلال الحصن بجنود الامام، ووعد مقابل ذلك للقيام على الاخلاص والاحترام للامام، فأدرك سعيد ان لا فائدة من الالحاح فى الموضوع فطلب المبالغ المستحقة له من ايرادات الجمارك فى السنوات الماضية فاتفق الطرفان على أداء هذا المبلغ بمدينة بمباى وقت هبوب الرياح الجنوبية الغربية، وطلب سعيد ضمانا لهذا الاتفاق ان يصطحب معه إلى عمان بعض أقارب سالم كرهائن، فأجابه الوالى على هذا الطلب حيث سلمه ابنيه ناصر، وراشد[١٥٧]، وذهب السيد سعيد إلى زنجبار وطال فيها أقامته، ونتيجة لفشله فى السيطرة على ممباسا رغم تفوق قدرته العسكرية إلا أن حصانة موقعها وامكانياتها البحرية، أدت إلى فشله وعاد إلى

مسقط فى ٨ من مايو ١٨٣٠ نتيجة للاضطرابات التى وقعت فـى الـداخل العمانى. [١٥٨]

وقد فكر السيد سعيد اثناء وجوده فى زنجبار فى ان يتخذ من زنجبـار عاصمة له ليسهل عليه تضييق الخناق على ممباسا، فقد رأى أن ذلـك هـو الطريق الوحيد للقضاء على المزارعة بأن يجعل فى الشرق مقـرا لدولتـه يستطيع من خلاله توجيه الضربات للمزارعة فى ممباسـا للقـضاء علـيهم نهائيا[١٥٩]، خاصة وان المزارعة بعد ان حققوا انتصارهم على قواته، حاولوا اعادة السيطرة على الجزيرة الخضراء من ايدى القوات العمانيـة، إلا أنهـم فشلوا فى ذلك لأن قواتهم لم تكن كافية للتغلب على الاسـتحكامات الحربيـة التى اعدها السيد سعيد فى بمبا. [١٦٠]

ونتيجة لسياسة المزارعة ارسل السيد سعيد احدى سفنه مع مـركبين صغيرين لتفرض حصارا على ممباسا مع نهاية عام ١٨٣١ وحتى منتصف عام ١٨٣٢[١٦١]، خاصة وانه مع بداية عام ١٨٣٢ سافر إلى شرق افريقيـا، ليبدأ فى اتخاذ مدينة زنجبار مقرا لإقامته فى شرق افريقيا لتكون العاصـمة الثانية للإمبراطورية العمانية. [١٦٢]

وقد كان لهذا الحصار الذى فرضه السيد سعيد على ممباسا آثاره على ممباسا مما جعل الحكومة البريطانية تحاول الضغط على السلطان العمـانى لاحترام الاتفاق السابق بينهما بعدم تضييق الخناق على المزارعة فى ممباسا، لكن السيد سعيد احتج لدى حكومة بمبـاى علـى عـدم احتـرام الحكومـة البريطانية لحصار السيد سعيد لممباسا خاصة وان حكامها من المزارعة قـد اعلنوا الثورة عليه، وقد تعللت حكومة بومباى بأنها لم يصلها بلاغ رسـمى من السلطان سعيد يعلمها بفرض الحصار على ممباسا. [١٦٣]

وإزاء هذا الموقف البريطانى رأى السيد سعيد أن يلجأ إلى دولة اخرى

تساعده فى القضاء على ثورة المزارعة فى شرق افريقيـا، حيـث حـاول الاتصال بممثل الولايات المتحدة فى عمان، لكن الولايات المتحـدة رأت ان مصلحتها تكمن فى اقتصار علاقاتها بعمان على الناحية الاقتـصادية فقـط وخاصة فى القسم الأفريقى دون الزج بها فى المشاكل السياسية. (١٦٤)

وعندما علمت بريطانيا بمحاولة السلطان سعيد طلب المـساعدة مـن الولايات المتحدة بادرت بإرسال الكابتن هارت Hart لعقد اتفاقيـة تجاريـة مماثلة للاتفاقية الأمريكية التى عقدت عام ١٨٣٣، وبغرض معاقبة السلطان سعيد على طلب المساعدة من الولايات المتحدة إلى جانب مراقبة الأوضـاع التجارية الأمريكية فى الساحل الشرقى الأفريقى. (١٦٥)

أما المزارعة فقد حاولوا تحصين مدينتهم امام هـذا الحـصار الـذى فرضه السيد سعيد عليهم، فقام المزارعة ببناء سور حـول المدينـة حيـث اشتركت جميع الطوائف فى بنائه، وكان سمك هذا السور قريبا مـن ثلاثـة أذرع وبنى عليه فى بعض الجهات ابراج مرتفعة. (١٦٦)

وفى عام ١٨٣٣ جرد السلطان سعيد بن سلطان حملة عسكرية تحـت رياسته مكونة من اربع سفن وقوارب عديدة متحاشيا هذه المـرة اسـتعمال السفن الكبيرة والأكثار من الجنود بقيادة الأمير سعيد بن مسلم وكانت القيادة العامة إلى الأمير حماد بن احمد وانزل جزءا من الجنود بالجهة الـشمالية، وقد صوب مدافعه نحو المدينة وقد لاقت هذه الحملة مقاومة شديدة من قبـل المزارعة فاضطر السلطان إلى الانسحاب إلى زنجبار، دون ان يحقـق اى نتائج على المزارعة. (١٦٧)

كذلك حاول السيد سعيد ان يستولى على جزيرة مدغشقر اكبر جـزر المنطقة ليسهل عليه السيطرة على ممباسا، فلما مات حاكم مدغـشقر تـولى الحكم من بعده ارملته الملكة (رانا فولوتا) وقد ارسل إليها الـسلطان وفـدا

محملا بالهدايا وعرض عليها الزواج إلا أنها اعتذرت له نظـرا لأن تقاليـد بلادها لا تجيز زواج الملكة الأرملة، وعرضت عليه الزواج من احدى بناتها إلا أنه رفض(١٦٨)، ليفكر فى حملة جديدة للقضاء على المزارعة فى ممباسا.

وقامت ثورة فى احدى المناطق التابعة لبات وهى مدينة سيهوى ضـد السيد سعيد بن سلطان وتزعم هذه الثورة (بوانا وزير) وكان هـذا الرجـل حليفا للمزارعة واستنجد بسالم المزروعى(١٦٩)، الذى وصله على رأس قوات كبيرة من ممباسا، ولما وصل السلطان ورأى ان الجيش المزروعى يفـوق القوات التى كانت معه، ولا يستطيع مواجهتها، فأكتفى بتوجيه اللـوم إلـى سالم المزروعى على تدخله فى شئون ممباسا وطلب منه العودة إلى بـلاده وقصر اطماعه على ممباسا ورحل على اثر ذلك تاركا امام بات سـفينتين، وفى رواية أخرى ثلاث سفن، وغادر سالم منتصرا إلى بلاده، وهناك وافته المنية فى ممباسا عام ١٨٣٥م. (١٧٠)

واختلف أهل ممباسا فى اختيار خلفا لسالم فى حكـم ممباسـا وكـان خميس اكبر أولاده مكروها، لكن راشد بن سالم بن عبد الله اعانه على اخيه ناصر، وكاد الأمر يصل إلى درجة الاقتتال بين الأخوة، فاستغل راشد هـذا الأمر واستولى على الحصن وأعلن نفسه واليا على ممباسا ووافق الجميـع على تولية السلطة. (١٧١)

ونتيجة لهذا النزاع انفرط عقد حلفاء ممباسا فقد عمل راشد بن سـالم على اضطهاد وظلم مؤيدى اخويه خميس وناصر، وكان السلطان سعيد هـو المستفيد الوحيد مما حدث فى ممباسا، وسئم بعض من العرب والـسواحيلية من نزاع اسرة المزروعى على الحكم، فقد ارسل بعضهم رسلا إلى الـسيد سعيد يطلبون منه التدخل لحسم النزاع فى ممباسا فاغتنمها الأخيـر فرصـة وأرسل اسطوله استجابة لهذا النداء، واستند فى خطته الأخيرة للاستيلاء على

ممباسا على سياسة تدعيم المعارضة الداخلية هناك من خلال امدادها بالمال، إضافة إلى بث العداء بين المزارعة وأهل المدينة فشكلت المعارضة في الداخل مما أدى بالوالى المزروعى راشد بن سالم ان وجد نفسه فى وضع لا يحسد عليه. (١٧٢) وخاصة بعد ان استقطب السيد سعيد العديد من زعماء القبائل فى ممباسا وخاصة قبائل وانيكا، مما سهل له الاستيلاء على ميناء كلنديني وكان السيد سعيد يرسل الوفود تباعا إلى قبائل المزارعة لمفاوضتهم فى الصلح، مما اضطرهم فى النهاية إلى قبول الصلح، ومن ثم فقد نجح السيد سعيد فى الاستيلاء على حصن ممباسا فى فبراير ١٨٣٧ بعد فترة طويلة من الصراع مع المزارعة(١٧٣)، ووافق راشد على شروط اقل من شروط عام ١٨٢٦ فقد اخلى الوالى القلعة التى سلمت للسيد سعيد الذى عين عليها القائد على بن منصور ومعه ٥٠٠ من الجنود البلوش ثم سافر إلى زنجبار. (١٧٤)

وبعد عدة أشهر سافر راشد بن سالم إلى زنجبار لمقابلة الامام بها يصحبه كل من خميس وناصر وبعض رجال حاشيته فجامله الامام واكرم وفادته وأحسن معاملته، وطلب منه التنازل عن الحكم فى ممباسا وان يبقى فى زنجبار، وكان سليمان بن احمد هو المكلف بالضغط على راشد بن سالم المزروعى لقبول عروض الامام سعيد بن سلطان والتى تمثلت فى :

١- ان يبقى راشد فى زنجبار على ان يعطى عشرة آلاف ريال(*) بمثابة تعويض وثلثمائة ريال مرتب سنويا.

٢- ان يتولى حكومة مافيا.

٣- ان يتولى ولاية الجزيرة الخضراء. (بمبا) (١٧٥)

غير ان راشد بن سالم رفض بضغط من أقاربه العروض الثلاثة التى قدمها له السيد سعيد لأنه أدرك انه بمغادرته ممباسا سواء إلى زنجبار او مافيا

او بمبا فان ذلك سيعرض حياته وحريته للخطـر إزاء مـؤامرات الـبلاط الزنجبارى وادرك انه من الصعب عليه ان يأمن على نفسه وحياته وحريته، فعاد إلى ممباسا. (١٧٦)

وأمام تدخل بعض شيوخ الداخل فى ممباسا لدى السيد سعيد بضرورة إنهاء وجود المزارعة هناك، وربما يكون قد لقى هذا المطلب رضـا لـدى السيد سعيد الذى سبب له المزارعة قلقا خاصة وان السيطرة على الـساحل الشرقى تأخرت كثيرا فمنذ عهد الامام احمد بن سعيد الامـام الأول لدولـة البوسعيد وقبيلة المزارعة كانت اهم القوى المعارضة للوجود البوسعيدى فى الساحل الأفريقى والذى يمثل أهمية خاصة فى عملية التجارة لدولة البوسعيد التى قامت نهضتها وقوتها على تجارتها فى المحيط الهندى، لذلك اتخذ السيد سعيد قرارا بضرورة انهاء عمل اسرة المزارعة بل إنهـاء وجودهـا فـى ممباسا حتى لا تحدث له ازعاجا مرة اخرى فأرسل ابنه خالد، ومعه سليمان بن احمد وكانت المهمة الموكلة اليهما ان يقبضوا على جميع اعضاء اسـرة احمد بن محمد بن عثمان المزروعى. (١٧٧) فلما وصلا إلى ممباسـا حـضر الجميع لتحيتهم بما فيهم راشد بن سالم ومعه جمع من أقاربه ثـم غـادروا امنين،لكن عندما نزل خالد وسليمان إلى القلعة زارهم راشد بن سـالم، فـتم القبض عليه، وبدأ ينفذ الخطة بالقبض على كل من معه، ففر منهم الكثير من ممباسا إلى الداخل الأفريقى وبذلك تشتت شمل قبيلة المزارعة، وتـم حمـل الكثير منهم إلى السفينة فى الميناء وقيل ان عددهم (٣٠ فردا مـن زعمـاء الأسرة) حيث تم ترحيلهم إلى زنجبار ومنها إلى مسقط، ثم صدر قرار بنفيهم إلى هرمز(١٧٨)، حيث ظلوا فى السجن حتى ماتوا، وهكذا أنهى السيد سـعيد وجود المزارعة السياسى فى ممباسا إلا ان بقاياهم سببوا لـه الكثيـر مـن المشاكل ولكنها كانت دون تأثير كبير على تأسيس الجنـاح الأفريقـى فـى الساحل الشرقى.

وباستيلاء السيد سعيد على ممباسا حقق هدفه الذى سعى إليه ودان له الشرق الأفريقى دون منازع، وبدأ يطيل إقامته فى زنجبار حتى جعل محـل اقامته الدائم بها تاركا عمان ومشاكلها تحت إدارة ابنه ثوينى، فقد اصـبحت زنجبار مركز رئيسى للتجارة، بل ومحط انظار الدول الأوربية، التى وثقت علاقاتها بالسيد سعيد بعد ان حقق هذا الاستقرار. [١٧٩]

الهوامش :

(*) ممباسا: جاء ذكرها فى رحلة ابن بطوطة باسم منبسى (وضبط اسمها ميم مفتوح ونون مسكن وباء موحدة مفتوحة وسين مهمل مفتوح وياء – ابن بطوطة تحفة النظار فى غرائب الأمصار، جـ١، المكتبة التجارية الكبرى- مصر ١٩٥٩، ص ٢٤٤.
واتفق معه فى هذا الاسم المسعودى، انظر المسعودى: أبى الحسن بن على، مروج الذهب ومعادن الجوهر، جـ٣ تحقيق محمد محى الدين، دار الفكر، بيروت، ١٩٦٤، ص ٧٧.
أما ياقوت الحموى فقد أطلق عليها منبسة انظر ياقوت الحموى شهاب الدين أبو عبد الله: معجم البلدان، جـ ٥، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧، ص ٢٠٧. أما صاحب كتاب السلوة فى أخبار كلوة فقد ذكر بأن اسمها بلاد منفسة، أنظر: وزارة التراث: السلوة فى أخبار كلوة تحقيق محمد على الصليبى، عمان، ١٩٨٥، ص ٢٧، وكانت تعرف قديما باسم (غنغوبا) وهو اسم سواحيلى وتسمى أمفيت ومعناها الحرب وربما سميت هكذا لكثرة الحروب فيها، وقيل أن الذى سماها ممباسا البرتغاليون نسبة إلى أحد قادتهم، أنظر المغيرى، سعيد بن على: جهينة الأخبار فى تاريخ زنجبار تحقيق محمد على الصليبى، ط٤، وزارة التراث القومى والثقافة، سلطنة عمان، ٢٠٠١، ص ١٦٣.

(١)محمد خميس الزوكة: جغرافية شرق أفريقيا، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٨٨، ص ٥٤.

(2)Rosemary Mcconkey, Thomas Mc Erlean: Mombasa island: amaritime perspective - international Journal of Historical Archoelogy vol. 11, No,2 June 2007, P. 101.

(٣) شوقى عبد القوى عثمان: تجارة المحيط الهندى فى عصر السيادة الاسلامية، سلسلة عالم المعرفة العدد ١٥١، الكويت، ١٩٩٠، ص ١١٨، ١١٩.

(4)Wilkinson. J.C. Oman and East Africa, New light on Early kilwan history from the omani sources, Boston University African studies center and Board of trustees vol. 14, No2, 1981, P. 278.

(*) انظر الخريطة رقم (١) نهاية البحث.

(5)Krapf . J.L. : Travels Research and Missionary labours in East Africa, London, 1860, P. 522.

(٦)جمال زكريا قاسم : الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٩٩٦، ص ١١٢.

(7)Irene, S. van Dongen: Mombasa in the land exchanges of East Africa, Erd kunde, Bd, 17, H. 1/2. Jun 1963, P. 17.

، المغيرى سعيد بن على: جبهة الأخبار فى تاريخ زنجبار، ص ١٣٣.

(٨)جمال زكريا قاسم: الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية، ص ٧٥.

Tomas spear, Williams college : The shirazi in swahili traditions, culture and history vol. 11, 1984, P. 298.

(9)) Boxer C.R., carlos de Azevedo: Fort Jesus and the portuguese in Mombasa 1593- 1729, London. 1960, P. 17.

(١٠)جيان: وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن افريقيا الشرقية، ترجمة يوسف كمال، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٢٧، ص ٢٢٤.

(١١) جيان: وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية، ص ٢٦٢- ٢٦٨.

(12)Berg, F.J.: The swahili community of Mombasa 1500- 1900, Journal of African History 1x, Cambridge university, 1968, P. 36.

(١٣) وزارة التراث القومى والثقافة – العمانيون وقلعة ممباسا العدد التاسع – الطبعة (٣) عمان ١٩٩٤ ، ص ١٣.

(14)Boxer C.R. Carlos de Azevedo, op.cit, P 22- 24.

, Edward corcoan cssp : Mombasa Missian Grouth of the church in mombasa, Kenya, 1888 - 1990, Dublin, 1997, p. 6.

(١٥)جيان: المصدر السابق، ص ٢٨١.

(16)Berg F.J. : The Swahili community of Mombasa 1500- 1900, P. 42.

(17)Edward Corcoran cssp ., Op.cit, P. 7.

(١٨)المعولى: أبو سليمان محمد بن عامر بن راشد: قصص وأخبار جرت فى عمان، تحقيق سعيد بن محمد بن سعيد الهاشمى، ط١، وزارة التراث والثقافة، سلطنة عام، ٢٠٠٧، ص ٢٣٩.

- الأزكوى: سرحان بن سعيد: كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة – تحقيق حسن محمد عبد الله النابودة، دار البارودى ، ص ٩٦٥.

(19)Boxer, Op.cit, P. 48.

, James kirkman, fort jesus a portugese Fortaressan the East African coast, oxford, 1974, P. 4.

(٢٠) جمال زكريا قاسم : دولة البوسعيد فى عمان وشرق افريقيا، ١٨٤١- ١٨٦١، القاهرة، ١٩٦٨، ص ٢٥.

– السالمى نور الدين عبد الله بن حميد: تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان، جـ٢، مكتبة الاستقامة، عمان ١٩٩٧، ص ١٠٧.

(٢١)عبد العزيز عوض: دراسات فى تاريخ الخليج العربى الحديث، دار الجيل ، بيروت، مكتبة الرائد، جـ١، الأردن ط١، ١٩٩١، ص ٦٥.

(22)Boxer C.R., carlos de Azevedo, op.cit, P 58- 59.

, Coupland, East Africa and its invaders Oxford, 1938, 67- 68.

(*) قبيلة المزارعة: قبيلة عمانية كغيرها من القبائل العمانية منتشرة فى شتى بلاد عمان لا يختصون ببلد خاص، بل يوجد بعضهم، باطراف الشمال العمانى، فمنهم من سكن شناص ويوجد بعضهم فى الرستاق فيما يسمى (محلة برج المزارعة) ويقال لهم فى الرستاق المزارعة أما فى باقى عمان فيطلق عليهم المزاريع، والمزارعة كان لهم دور كبير فى دعم قيام دولة اليعاربة منهم من وقف إلى جانب ناصر بن مرشد مؤسس دولة اليعاربة التى كانت عاصمتها الرستاق، لذلك اعتمدت عليهم دولة اليعاربة فى إقامة دولتهم وكذلك فى قيادة جيوشهم خاصة فى نزاعها البحرى مع البرتغال.

انظر سالم بن حمود السيابى: اسعاف الأعيان فى انساب أهل عمان، وزارة التراث، عمان، ١٩٨٣، ص ٣٥- ٣٦. ويقول أمين المزروعى ان مزارعة شرق أفريقيا متفرعون من أربعة عشر اصلا ينتهى إلى زيد بن كهلان بن عدى بن عبد شمس بن وائل فهم ينتسبون إلى عرب قحطان.

انظر: الأمين بن على المزروعى: مخطوط تاريخ ولاية المزارعة فى أفريقيا الشرقية جامعة أم القرى، المكتبة المركزية رقم ٢٠٤٩، ص ١.

انظر ايضا: عبد الحكيم الوائلى: موسوعة قبائل العرب، جـ٥، دراسات للنشر والتوزيع، عمان، ٢٠٠٢، ص ٤٢٥.

(23)Burton F. Richard, zanzibar city island and coast, vol 11, London, 1872, P. 46- 47.

انظر ايضا: الأزكوى المصدر السابق، ص ٩٦٧، السالمى، ص ١٠٧.
والمعولى: ص ٢٤٥، فالح حنظل: العرب والبرتغال فى التاريخ ٧١١- ١٧٢٠م، ط١، منشورات المجمع الثقافى، ابو ظبى ، الامارات ١٩٩٧، ص ٥٢٣.

(24)Hinawi. Mabarak Ali: Alakida and fort jesus Mombasa. East African literature, Nairabi: 1950, P. 49.

-مؤلف مجهول: تاريخ اهل عمان: تحقيق وشرح سعيد عبد الفتاح عاشور. وزارة التراث القومى والثقافة . عمان، ١٩٨٠، ص ١٤٧.

-سلوت ب.ج: عرب الخليج فى ضوء مصادر شركة الهند الشرقية الهولندية ١٦٠٢ – ١٧٨٤ ترجمة عايدة خورى، ط١، ١٩٩٣، ص ٢٣٢، لكنه يذكر ان حصار ممباسا استغرق ٢١ شهرا وليس ٣٣ شهرا.

-ناصر بن عبد الله الريامى: زنجبار شخصيات وأحداث ١٨٢٨- ١٩٧٢، مكتبة بيروت مسقط ٢٠٠٩، ص ٢٢.

، بياتريشه نيكولينى: جزيرة زنجبار التاريخ والاستراتيجية فى المحيط الهندى ١٧٩٩- ١٨٥٦ ترجمة نزار آغرى ، دار النهار بيروت، ١٩٩٨، ص ٣٨.

(٢٥)جمال زكريا قاسم: تاريخ الخليج العربى الحديث والمعاصر : المجلد الأول إمارات الخليج العربى فى عصر التوسع الأوربى الأول ١٥٠٧- ١٨٤٠ ، دار الفكر العربى – القاهرة، ١٩٩٧، ص ١٠٣.

، عبد المنعم عامر: عمان فى امجادها البحرية، وزارة التراث القومى والثقافة ، سلسلة تراثنا، سلطنة عمان، ١٩٨٠، ص ٤٨.

(٢٦)المغيرى : جهينة الأخبار، ص ١٩٧.

(٢٧)المصدر السابق، ص ١٩٧.

(28)Stigand C.H.: The land of zing the coming of the Mazrui, London, 1913, P. 55, 56.

، الأمين بن على المزروعى : تاريخ ولاية المزارعة فى أفريقية الشرقية دراسة وتحقيق ابراهيم الزين صغيرون، سلطنة عمان ، ١٩٩٥، ص ١١٩، انظر الأمين المزروعى ، مخطوط ولاية المزارعة ، ص ١٨.

(٢٩)الأمين بن على المزروعى مخطوط ولاية المزارعة، ص ١١.

(٣٠)المصدر السابق، ص ١٢.
(٣١)الأمين بن على المزروعى: تاريخ ولاية المزارعة تحقيق ابراهيم صغيرون ، ص ٢٠٥.
(٣٢)جيان: وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية فى افريقيا الشرقية، ص ٣٥٥.
(33)Boxer C.R. The Portuguese seaborne Empire 1415- 1825 carcanet, 1991, P. 147.
Boxer, Carlos de Azevedo, Fort jesus and the portugese in Mombasa 1593 – 1729, P. 78.
،حسين عبيد غباش:عمـــان الديمقراطيـــة الاســـلامية،ترجمة انطـــوان حمـــص،دار الجديـــد، ط١،بيروت،لبنان،١٩٩٧،ص ١١٧
(34)eliot, sir scharles : The East Africa protectorate, Frank cass, London, 1966, P. 19.
Abdulazizy . LaDHi, Muslims in Eastern Africa their past and present, Nordic journal of African studies 3 (1) uppsala university, Sweden, 1994, P. 88.
(٣٥)عائشة السيار: دولة اليعاربة فى عمان وشرق أفريقيا ، ١٦٢٤ ١٧٤١، ط٢، القاهرة، ١٩٧٣، ص ١١٢.
(36)Owen, W.F.M. Narrative of voyages of explore the shores of Africa, Arabia and Madagascar final Departure of the portugeses in, 1829, P. 416- 417.
(٣٧)عائشة السيار ، المرجع السابق، ص ١١٣.
, Patricia Risso, Oman and Muscat an Early Modern History, Crom Helm, London, 1986, P. 121.

(*) يرى الأمين بن على المزروعى فى مخطوط ولاية المزارعة فى شرق أفريقيا ان محمد بن عثمان المزروعى تولى ولاية ممباسا فى عام ١٧٣١ الموافق ١١٤٣ حيث مكث فى الولاية مدة اربعة عشر سنة وهى رواية تخالف كل الروايات الأوربية التى تؤكد ان مدة ولايته خمس سنوات فقط من ١٧٣٩- ١٧٤٤، انظر المخطوط، ص٢٣.

(٣٨)المغيرى سعيد بن على: جهينة الأخبار، ص ٢٠٧.
(39)Reda Bhacker. M.: Trade and Ampire in Muscat and Zanzibar, Roots of British domination, London, New York, 1994, P. 20.
(٤٠)عبد اللطيف الرميحى ، فؤاد شهاب : قيام الدولة البوسعيدية الأسباب والنتائج أضـــواء من ندوة عمان فى التاريخ ، وزارة الدفاع سلطنة عمان ، ١٩٩٤، ص ١٥٢.
(٤١) جيان: وثائق تاريخية وجغرافية وتاريخية، ص ٣٦٢.
صلاح العقاد، جمال زكريا قاسم : زنجبار، القـــاهرة، ١٩٥٩، ص ٣٣، ٣٤. محمـــد مرسى عبد الله: امارات الساحل وعمان والدولة الـــسعودية الأولـــى، ١٧٩٣، ١٨١٨، المكتب المصرى الحديث، جـــ١، القاهرة، ١٩٧٨، ص ٨٧.
(42)Reda Bhacker, trade and Amprie in musucat and Zanzibar, P. 21.

(٤٣)خالد ناصر الوسيمى: عمان بين الاستقلال والاحتلال دراسة فـي التـاريخ العمـانى الحديث وعلاقاته الاقليمية والدولية المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، الكويـت، ٢٠٠٢، ص ١٣٧.

(٤٤)خالد ناصر الوسيمى، المرجع السابق، ص ١٣٨.

(٤٥)جمال زكريا قاسم: الأصول التاريخية للعلاقات العربية الافريقية، ص ١١٣.
جمال زكريا قاسم: دولة البوسعيد فى عمان وشرق افريقيا، ص ٩٢.

(٤٦)محمد حسن العيداروس: السلطان سعيد بن سلطان والعلاقات العربيـة الأفريقيـة، دار المتنبى للطباعة والنشر، ط١، الامارات، بدون، ص ١٧.

(47)eliot, Charles : the East Africa protectorate, P. 20.

(٤٨)الأمين بن على المزروعى: مخطوط ولاية المزارعة فى افريقية الشرقية، ص ٢٢.

(٤٩)جمال زكريا قاسم: الدولة العمانية فى شرقى افريقيا، حصاد ندوة الدراسـات العمانيـة وزارة التراث القومى والثقافة سلطنة عمان، ١٩٨٠، ص ٩٦. صـلاح العقـاد: دور العرب والفرس فى مكافحة الاستعمار البرتغالى فى الخليج، دراسة مقارنة، حصاد ندوة الدراسات العمانية، المجلد الرابع وزارة التراث – سلطنة عمـان ، ١٩٨٠، ص ١٠٣، ١٠٤.

(٥٠)الأمين بن على المزروعى: مخطوط ولاية المزارعة، ص ٢٣ ، جيان (يذكر أن عـدد من جاء إلى ممباسا من قبل الأمام ستة من أعوانه ولكن لم يذكر منهم إلا سـيف بـن خلف المعمرى لكن المزروعى ذكر خمسة فقط ، انظـر جيـان ، وثـائق تاريخيـة وجغرافية وتاريخية، ص ٣٦٢.

(٥١)الأمين المزروعى، ص ٢٣.

(٥٢)جى. كيركمان: التاريخ المبكر لعمان الاسلامية فى شـرقى افريقيـا، حـصاد نـدوة الدراسات العمانية المجلد الخامس ، وزارة التراث ، عمان ، ١٩٨٠، ص ٢٩٩.

(53)Berg F.J. : The Swahili community of Mombasa, 1500- 1900 journal of African History 1X, P. 55- 56.
Swartz, Marc. J.Religious courts community and Ethnicity Among the Swahili of Mombasa and Historical study of social Bounderies, Journal African, 1979, P.23.
وجى كير كمان: التاريخ المبكر لعمان الاسلامية فى شرق افريقيا، ص ٢٩٩.

(٥٤)جيان: وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية فى افريقيا الشرقية، ص ٣٦٤. رويت رودلف سعيد: سعيد بن سلطان ترجمة سامى عزيز، وزارة التراث القومى والثقافة ، سـلطنة عمان، ١٩٨٣، ص ٦٤. وندل فيليبس : تاريخ عمان ، ترجمة محمد أمين عبد الله، ط ٥، عمان ٢٠٠٣، ص ٧٤.

(٥٥)الأمين بن على المزروعى . مخطوط ولاية المزارعة، ص ٢٦.

(٥٦)جيان : المصدر السابق، ص ٣٦٥، وزارة التراث، العمانيون وقلعة ممباسا، ص ١٧، أحمد حمود المعمرى : عمان وشرقى افريقية، ترجمة محمـد أمـين عبـد الله، وزارة التراث القومى والثقافة، سلطنة عمان ، ١٩٧٩، ص ٧٨، ٧٩، وندل فيلبس ، ص ٧٤.

(٥٧)عائشة السيار: دولة اليعاربة فى عمان وشرق افريقيا، ص ٢٣٨، جمال زكريا قاسم:سعيد بن سلطان،مؤسس امبراطورية عربية،مجلة العربى،العدد١٦١، الكويت، ١٩٧٢، ص ٤٣.

(٥٨)جيان : المصدر السابق، ص ٣٦٥.
(٥٩)الأمين المزروعى : المصدر السابق، ص ٢٦.
(٦٠)عائشة السيار: المرجع السابق، ص ٢٣٩.
(*) علاقة الإمام أحمد ببلاد فارس. خاصة بعد أن قام الإمام أحمد بن سعيد من طردهم من الأراضى العمانية، حيث ظل الفرس يتابعون أعمال الإمام بغيرة وحسد ولا يضيعون فرصة تلوح إلا لمضايقته ومعارضة خططه حيث تعرضت سفنه التى تصدر البن إلى البصرة لعمليات قرصنة من جانب الفرس خلال أعوام ١٧٥٣ ، ١٧٥٨، ١٧٦٥ ، ١٧٦٦، ١٧٦٧، وكان رد الإمام بمحاصرة ميناء بوشهر وقام والى مسقط بالتحالف مع شيخ رأس الخيمة وحاكم هرمز بتدمير سفينتين ايرانيتين فى بندر عباس وثالثة فى لنجة، ثم جاء محاصرة كريم خان لميناء البصرة الذى كان خاضعا للسلطان العثمانى الذى استنجد بالإمام أحمد الذى خشى من التقدم الفارسى البرى عبر الأراضى العراقية إلى عمان فجهز حملة استطاعت ان تفك الحصار عن مدينة البصرة وتهزم قوات كريم خان ١٧٧٦، لتنهى النفوذ الفارسى فى الخليج العربى لتحتل عمان هذه المكانة بداية من الربع الأخير للقرن الثامن عشر . لمزيد من التفاصيل انظر :
لوريمر ج.ج : دليل الخليج: القسم التاريخى، جـ٢، ٦٤٩ – ٦٥٢، حسين عبيد غباش، عمان الديمقراطية الاسلامية، ص ١٣٢ ، حميد بن محمد بن رزيق السيرة الجلية سعد سعود البوسعيدية. تحقيق ودراسة عبد الرحمن بن سليمان السالمى ، عمان ٢٠٠٧، ص ١٥٧، ١٥٨.
(**) حيث بدأت الاتصالات الفرنسية العمانية بتجارة مسقط مع مورشيوس التى استولى عليها الفرنسيون سنة ١٧١٥ واستمرت تلك التجارة دون انقطاع وكانت مسقط تستورد السكر وتصدر لها السمك والتمر والقهوة، وتوثقت هذه العلاقات خلال حرب السنوات السبع، حتى عام ١٧٥٩، عندما هاجمت السفن الفرنسية السفن الانجليزية الراسية فى مياه مسقط واسر بعض السفن فى مياه الهند ومنها السفينة المحمودى العمانية، وتوسط الإمام احمد لدى القنصل الفرنسى فى بغداد لرد السفينة إلى عمان، وأرسلت فرنسا سفينة اخرى بدلا منها إلى الامام. ثم توترت العلاقات بعد ذلك بسبب التنافس الانجليزى الفرنسى على النفوذ فى منطقة الخليج العربى. انظر: سلطان القاسمى العلاقات العمانية الفرنسية ١٧١٥- ١٩٠٥، ١٩٩٤، ص ٣٥ وما بعدها، مايلز. ب: الخليج بلدانه وقبائله ترجمة محمد أمين عبد الله، ط٣، وزارة التراث والثقافة، عمان ، ١٩٨٦، ص ٢٢٥.
(٦١)جمال زكريا قاسم : الدولة العمانية فى شرق أفريقيا، حصاد ندوة الدراسات العمانية، ص ٩٧.
(٦٢)جيان: المصدر السابق، ص ٣٦٦.
(٦٣)نفسه، ص ٣٦٧.
(٦٤)جيان : نفسه، ص ٣٦٨.
(٦٥)المغيرى: جهينة الأخبار فى تاريخ زنجبار، ص ٢٠٩.
(٦٦)الأمين بن على المزروعى : مخطوط ولاية المزارعة، ص ٣٠، ٣١ ، جيان ، المصدر السابق، ص ٣٦٩، المغيرى ، المصدر السابق، ص ٢٠٩، كيركمان: التاريخ المبكر لعمان الاسلامية فى شرقى افريقيا،ص ٣٠٠.
(٦٧)جيان : المصدر السابق، ص ٣٧٠.
(٦٨)جيان: المصدر السابق، ص ٣٧١، الأمين المزروعى يذكر انه توفى عام ١٧٧٩ الموافق ١١٩٣ حيث يذكر انه مكث فى الحكم خمس وعشرين سنة، انظر الأمين المزروعى مخطوط ولاية المزارعة، ص ٣٣.

(٦٩)جيان: المصدر السابق، ص ٣٧٢، ولكن المزروعى يذكر ان مدة حكمه عامان فقط، فيذكر أنه توفى عام ١١٩٥هـ، انظر المزروعى : المصدر السابق، ص ٣٤.

(70)Reda Bhacker: trade and empire in muscut and Zanzibar, Roots of British domination, London, New York, 1994, P. 88.

جيان: المصدر السابق، ص ٣٧٤.

(٧١)حسين عبيد غباش: عمان الديمقراطية الاسلامية ، تقاليد الإمامة والتاريخ السياسى، ١٥٠٠—١٩٧٠، ترجمة انطون حمصى، دار الجديد، ص ١٣٥، جيان: المصدر السابق، ص ٣٧٥.

(٧٢)جيان: المصدر السابق، ص ٣٧٦.

Reda Bhacker : trade and Empire in Muscat and Zanzibar, P. 113.

(٧٣)كيركمان: التاريخ المبكر لعمان الاسلامية فى شرقى افريقيا، ص ٣٠١.

(٧٤)جيان: المصدر السابق، ص ٣٧٧ ، جمال زكريا قاسم : الأصول التاريخية للعلاقات العربية الافريقية، ص ١١٤.

(٧٥)المغيرى : جهينة الأخبار فى تاريخ زنجبار، ص ٢١٠.

(*) البانيان: هم فئة من الهنود غير المسلمين (الهندوس) نسبة إلى نهر السند والبعض يقول أنها جاءت من بانيا ومعناها تاجر، أو أنها تحريف لكلمة بهاتيا وهو اسم احدى الفئات التجارية فى الهند واقترن تاريخها بالاتجار مع الخارج. انظر نورة محمد القاسمى: الوجود الهندى فى الخليج العربى، ١٨٢٠- ١٩٤٧. الشارقة – الامارات ١٩٩٦، ص ٦٤، ٦٥ ، جون كيلى: بريطانيا والخليج ١٧٩٥ – ١٨٧٠ ترجمة محمد أمين عبد الله، وزارة التراث والثقافة، عمان، ص ٢٧ ، ابراهيم عبد المجيد محمد: الهنود فى زنجبار فى ظل حكم العمانيين فى القرن التاسع عشر، ص ٩.

(76)) Wilkinson, John. C. : The imamate tradition of oman, Cambridge university press, First published, London, 1987, P. 79.

(٧٧)نورة القاسمى ، المرجع السابق، ص ٢٣.

(78)Coupland, Exploitation of East Africa 1856- 1890, The slave trade and scramble, London, 1939, P. 13, 14.

(٧٩)جيان: وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية، ص ٣٨٠.

(٨٠)الأمين بن على المزروعى: مخطوط ولاية المزارعة فى شرق أفريقيا، ص ٣٧.

Ibrahim E. Soghayroun, The Arab and Swahili culture in Historical perspective some important links in the history of the Mazruis in East Africa By shagkh, Al- Amin B. Ali Al- mazrui centre for middle Eastern studies university of Bergan, sudanic Africa, vol . 12, 2001, 23.

(٨١)الأمين المزروعى : المصدر السابق، ص ٣٥.

(٨٢)سلطان القاسمى: تقسيم الامبراطورية العمانية ١٨٥٦- ١٨٦٢، ط٣، ٢٠٠٥، ص ٢٣- ٢٤ ، أحمد حمود المعمرى : عمان وشرقى افريقيا ترجمة محمد أمين عبد الله ، وزارة التراث القومى والثقافة، سلطنة عمان، ١٩٧٩، ص ٨١، ٨٢.

(83) Owen, W.F.W. Narrative of voyages vol 1, London, 1833, P. 383.

Reda Bhacker: Op.cit, 113.

(84)Wilkinson, John, The imamate tradition of Oman, P. 80.

(٨٥)جيان: المصدر السابق، ص ٣٨١.

(٨٦)الأمين المزروعى : مخطوط ولاية المزارعة، ص ٥٢.

(٨٧)المصدر السابق، ص ٣٨، عبد الله بن صالح الفارسى البوسعيديون حكام زنجبار . ترجمة محمد أمين عبد الله، وزارة التراث القومى والثقافة، العدد الثالث تراثنا، سلطنة عمان، ١٩٨٢، ص ١١٧.

(٨٨)المغيرى، سعيد بن على : جهينة الأخبار فى تاريخ زنجبار، ص ٢١١، ٢١٢.

(٨٩)الأمين المزروعى:المصدر السابق، ص٥٦، ٥٧،سلطان القاسمى تقسيم الامبراطورية العمانية، ص ٢٤.

(٩٠)عبد الله بن صالح الفارسى البوسعيديون حكام زنجبار، ص ١١٧.

(٩١)الأمين المزروعى: المصدر السابق، ص ٥٨.

(٩٢)جيان : المصدر السابق، ص ٣٨٣. سلطان القاسمى : تقسيم الامبراطورية العمانية، ص ٢٤ ، رويت رودلف سعيد: سعيد بن سلطان، لكنه وصف رحلة عبد الله بن احمد المزروعى بالرحلة الفاشلة إلى بومباى، ص ٦٥.

(٩٣)جيان: المصدر السابق، ص ٣٨٣.

(94)Wilkinson, Op.cit, P. 81.

(٩٥)الأمين المزروعى : مخطوط ولاية المزارعة ، ص ٥٨ "يذكر أن قائد جيش عمان حماد بن محمد البوسعيدى".

(٩٦)جيان : المصدر السابق، ص ٣٨٥

(٩٧)المغيرى : جهينة الأخبار، ص ٢١٢.

(٩٨)الأمين المزروعى : ص ٥٩.

Reda Bhacker, Op.cit, P. 115- 116.

(٩٩)الأمين المزروعى : المصدر السابق، ص ٥٩ ، جيان : المصدر السابق، ص ٣٨٥ ، المغيرى، المصدر السابق، ص ٢١٢.

(١٠٠)الأمين المزروعى، المصدر السابق، ص ٦٠.

(١٠١)جيان : المصدر السابق، ص ٣٨٧، عبد الله بن صالح الفارسى البوسعيديون ، حكام زنجبار، ١١٨.

(١٠٢)سالمة بنت السيد سعيد بن سلطان: مذكرات اميرة عربية، ترجمة عبد المجيد حسيب القيسى، ط٢، دار الحكمة ، لندن ، بدون، ص ٣٤.

(103)Harkishan Bhagat and Haroub othman colonialism and class formation in zanziBar, tanzania publishing House Dares salam, University of Dares salm, P. 198.

، وزارة التراث القومى والثقافة : العمانيون وقلعة ممباسا، ص ٢٨، ٢٩.

(104)Calvin H. Allen. Jr, the state of the Masqat in the Gulf and East Africa 1785- 1829, international journal of Middle East studies vol . 14, No.2, Cambridge Univ. 1982, P. 122.

(١٠٥)جمال زكريا قاسم : الدولة العمانية فى شرق أفريقيا، حصاد ندوة الدراسات العمانيـــة، ص ١٠١، جيان: المصدر السابق، ص ٣٨٨.

(106)Thomas vernet: slave trade and slavery on the Swahili coast, slavery islam siaspora, York university, Toronto, 2003, P. 85.

(١٠٧)حسين عبيد غباش: عمان الديمقراطية الاسلامية، ص ١٥٨. ، صلاح العقاد: التيارات السياسية فى الخليج العربى من بداية العصور الحديثة حتـــى أزمـــة ١٩٩٠- ١٩٩١، الانجلو المصرية، ص ٨١.

(١٠٨)سلطان بن محمد القاسمى: العلاقة العمانية الفرنسية ١٧١٥- ١٩٠٥، ص ١١٦، ١١٧.

(١٠٩) المرجع السابق، ص ١٤٠.

(110)James onley: Britain's Native Agents in Arabia and Persia in the Nineteenth century, comparative studies of south Asia, Africa and Middle East, 2004, P. 132.

(111)ALmousawi, Hussain Ben Al- seyed yousuf, A History of Omani British relations with special Reference to the period, PHD, thesis, 1888- 1920. University of Glasgow, 1990, P. 47.

(112)Calvin H. Allen. Jr: Op.cit P. 123.

(113)Biswas, A Parajita : European slave Routs Indian ocean centre for African studies, University mombai, P. 13, 14 .

(١١٤)سلطان القاسمى: المرجع السابق، ص ١٣١.

(115)Biswas, Aparajiate, op .cit, P. 15.

(116)F.O 54/ 3 microfilm No 333, treaty concluded with the imam of Muscat for the suppression of slavery, 1822.

(117)Treaty between great Britain and Muscat, concluded at Muscat the 10th September, 1822 A collection of the treaties and comuentions and Reciprocal Regulations at present subsisting Between great Britain foreign powers, (By lewis Hertslet) vol, 111, London, 1827, P. 265- 269.

(118)Requistions made on the Imam Muscat with answers respecting slavery, dated 4th September 1822, A collection of treaties Engagements and sunnueds Relating to india and neighboring countries, compiled by C.U . Aitcheson B.C.S. Under secretary to the government of india in the foreign Department vol. Vll, Calcutta, 1865, P. 211-213.

(119)Additional reguistions made on the imam with answer Respecting slavery dated 9th sep . 1822, P. 215.

(120)Harkishan Bhaget, Haroub Othman, colonialism and class formation in Zanzibar, P. 194, Reda Bhacker : op. cit, P. 114.

(١٢١)جيان: المصدر السابق، ص ٣٨٩.

(١٢٢)الأمين المزروعى : المصدر السابق، ص ٦٣.
(123)Coupland : East Africa and its invaders, P. 258.
(124)Coupland, op. cit, P. 222.
(125)calvin H. Allen . Jr. the state of the masqat in the Gulf and East Africa, 1785 – 1829, P. 123.
(١٢٦)الأمين المزروعى : المصدر السابق، ص ٦٤.
(١٢٧)سلطان بن محمد القاسمى : تقسيم الامبراطورية العمانية، ص ٢٤ ، جيان: المصدر السابق، ص ٣٩٠.
(128)owen : Op.cit P. 367.
عبد الله بن سليمان، كثير من المصادر تذكر اسمه عبد الله بن سليم ، انظر : جيان: ص ٣٩٤ ، الأمين المزروعى ، ص ٦٩.
(١٢٩)الأمين المزروعى : المصدر السابق، ص ٦٧.
(١٣٠)جمال زكريا قاسم: الخليج العربى دراسة لتاريخ الامارات العربية فى عصر التوسع الأوربى الأول ١٥٠٧– ١٨٤٠ دار الفكر العربى ، القاهرة، ١٩٨٥، ص ٢١٣.
(131)Aitchsion, C.U. Bombay government selection from the records of Bombay government History and other information connected with the province of Oman, Muscat, Bahrien and other place the pesian Gulf, new series vol xxiv bombay 1856, P. 191, owen, P. 368.
(١٣٢)عبد الله بن صالح الفارسى: البوسعيديون حكام زنجبار، ص ١٢٠.
(١٣٣)جيان: المصدر السابق، ص ٣٩٣.
(١٣٤)جيان: المصدر السابق، ص ٣٩٥.
(135)Wilkinson, Op.cit, P. 54.
(١٣٦)عبد الله بن صالح الفارسى، البوسعيديون حكام زنجبار، ص ١٢١.
(137)Se also Bombay Archive, Political Department vol, 20, PP 9- 13.
سلطان بن محمد القاسمى، تقسيم الامبراطورية العمانية، ص ٢٦، ٢٧.

(138)Calvin. Allen. Jr. The state of the Masqat in the Gulf and East Africa, P. 124.
(١٣٩)جمال زكريا قاسم : الخليج العربى، المرجع السابق؛ ص ٢١٥.
(140)Co 879/ 35/ confidential print Africa 1834- 1966 war and colonial Department and colonial office, Africa 1642- 1892. P. 421.
Calvin H. Allen, Op.cit, P. 125.
(141)Lyne, Robert imnez : zanzibar in contemporary times A short History of the southern East in the Nineteennth century, London, 1905, P. 27.
(١٤٢)الأمين المزروعى: مخطوط ولاية المزارعة ، ص ٧٦، عبد الله بن صالح الفارسى، المصدر السابق، ص ١٢١.

(١٤٣)جمال زكريا قاسم : المرجع السابق، ص ٢١٥، ٢١٦.

, Reda Bhacker, trade and Ampire in Muscat and Zanzibar, Roots of British do minaiton, London, 1994, P. 119.

، روبت رودلف سعيد: سعيد بن سلطان ،ص ٦٥.

(١٤٤)ابن رزيق: حميد بن محمد: بدر التمام فى سيرة السيد الهمام سعيد بن سلطان، ملحق فى كتاب الفتح المبين فى سيرة السادة البوسعيديين، ١٨٥٨، ط٥، عمان، ٢٠٠١، ص ٤٧٣ ، وزارة التراث القومى والثقافة : العمانيون وقلعة ممباسا، ص ٣٠ ، عبد الله بن صالح الفارسى ، المصدر السابق، ص ١٢١، رويت، المرجع السابق، ص ٦٦.

(١٤٥)المغيرى : سعيد بن على : جهينة الأخبار فى تاريخ زنجبار، ص ٢١٨.

(١٤٦)رويت ، المرجع السابق، ص ٦٧، جيان ، المصدر السابق، ص ٣٩٧.

(١٤٧)سالمة بنت السيد سعيد بن سلطان : مذكرات اميرة عربية، ترجمة عبد المجيد حسيب القيسى، ص ٣٥.

(١٤٨)الأمين المزروعى : مخطوط ولاية المزارعة ، ص ٧٩ ، عبد الله بن صالح الفارسى : المصدر السابق، ص ١٢٣ ، جيان: المصدر السابق، ص ٣٩٩.

(149)([1]) Aitchsion, C,U, Selections from the Records of the Bombay government No, XXV, Report on Zanzibar Dominions Bombay , 1861, P. 31.

ابن رزيق : المصدر السابق، ص ٤٧٤ ، جيان، المصدر السابق، ص ٣٩٩، رويت ، سعيد بن سلطان ص ٦٩ ، المغيرى سعيد بن على : جهينة الأخبار، ص ٢١٩ ، صلاح العقاد ، وجمال زكريا قاسم، زنجبار ص ٥٩.

(150)Hughes Thomes, selections from the records of Bombay government, Arabian Gulf intelligence New series, No xxiv, Bombay , 1856.

Arabia Bahrian, Kuwait, Muscat and Oman Qater, united Arab Emartes and islands of the Gulf, P. 199.

(151)Wilkinson, John : The Imamate tradition of Oman, P. 58, Zomarsh, East Africa, Cambridge, 1961, P. 92.

سالمة بنت السيد سعيد: مذكرات اميرة عربية، ص ٣٥.

(١٥٢)جيان: المصدر السابق، ص ٤٠٠.

(١٥٣)وزارة التراث القومى والثقافة ، العمانيون وقلعة ممباسا، ص ٣١، الأمين المزروعى مخطوط ولاية المزارعة ، ص ٨١ ، عبد الله الفارسى، ص ١٢٤.

(١٥٤)الأمين المزروعى : مخطوط ولاية المزارعة، ص ٨٣.

Calvin Hallen. Jr, The state of the Masqat in the Gulf and East Africa, 1785 – 1829, P. 125,126.

(١٥٥)ابن رزيق : الفتح المبين، ص ٤٧٤ ، الأمين المزروعى: ولاية المزارعة فى شرق أفريقيا تحقيق ابراهيم صغيرون، ص ٢٣٦ ، المغيرى : جهينة الأخبار، ص ٢٢١.

(١٥٦)المغيرى: المصدر السابق، ص ٢٢١.

(١٥٧)كير كمان: جى ، التاريخ المبكر لعمان الاسلامية فى شرقى افريقيا، ص ٣٠٣.

وزارة التراث : العمانيون وقلعة ممباسا، ص ٣٢، عبد الله الفارســي البوســعيديون حكام زنجبار، ص ١٢٤، جمال زكريا قاسم : الدولة العمانية فى شرقى افريقيا ، ص ١٠٢.

Coupland, East Africa, P. 276.

(*) خسر السيد سعيد فى هذه المعركة خسائر كبيرة حيث يقدر عدد القتلى فى هذا الهجوم حوالى ٤٠٠ رجل إلى جانب الجرحى والغرقى، إضافة إلى اغراق المزارعة لعدد من سفن الامام فى ميناء كلنديني، كما غنم المزارعة عدد كبير من الأسلحة نتيجـة لهـذا الهجوم ، كما قتل فى هذه المعركة عدد كبير من المزارعة ومن الطوائف الثلاث التى شاركت إلى جانب الوالى المزروعى فى ممباسا، ويقال ان الأهالى انشغلوا بعد المعركة لمدة اربعة أيام فى دفن موتى جيش السيد سعيد وموتاهم، لمزيد من التفاصيل انظــر ، الأمين المزروعى مخطوط ولاية المزارعة ، ص ٩١ ، ٩٢.

(١٥٨)وزارة التراث ، العمانيون وقلعة ممباسا، ص ٣٢، عبد الله الفارسى، ص ١٢٤.

(١٥٩)جيان ، المصدر السابق، ص ٤٠٨، ٤٠٩.

(160)Selection from the records of Bombay government, Op. cit, P. 201.

(161)Harkishan Bhagat and Haroub Othman, coloniolism and class formation in Zanzibar, . 195.

(١٦٢)الأمين المزروعى : مخطوط ولاية المزارعة ، ص ٩٣ ، المغيرى : جهينة الأخبار ، ص ٢٢٧.

(١٦٣)جيان : وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية، ص ٤٠٩.

(164)Selection from the records of Bombay government, op.cit, 203.

(١٦٥)فاطمة السيد على الزين: التاريخ السياسى لسلطنة زنجبار الاسلامية ١٨٣٢- ١٨٩٠ ، ط١، الرياض، ١٩٩٨، ص ٥٠.

(١٦٦)السيد رجب حراز ، بريطانيا وشرق افريقيا من الاستعمار إلــى الاســتقلال ، معهـد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة، ١٩٧١، ص ٣٧.

Coupland, Op.cit P. 281.

- سالمة بنت السيد سعيد، مذكرات اميرة عربية، ص ٣٥.

(١٦٧)فاطمة السيد على زين : المرجع السابق، ص ٤٨.

(١٦٨)الأمين المزروعى : مخطوط ولاية المزارعة، ص ٩٣.

(١٦٩)جيان : وثائق تاريخية وجغرافية، ص ٤١٠.

(١٧٠)سالمة بنت السيد سعيد: المصدر السابق، ص ٣٨.

(١٧١)بيان بأسماء سلاطين بته الذين تعاقبوا على حكمها، أرشـيف زنجبـار، دار الوثـائق القومية، سلطنة عمان.

(١٧٢)جيان : المصدر السابق، ص ٤١١ ، المغيرى : جيهنة الأخبار ، ص ٢٢٨ ، الأمـين المزروعى : المصدر السابق، ص ٩٤.

(١٧٣)جيان : المصدر السابق، ص ٤١٢ ، وزارة التراث ، العمانيون وقلعـــة ممباســـا، ص ٣٣.

(١٧٤)سالمة بنت السيد سعيد ، مذكرات اميرة عربية، ص ٣٩ ، رويت – رودلف ســـعيد : سعيد بن سلطان، ص ٨٣.

(175)selection from the records of Bombary government, op.cit, P. 207.

(١٧٦)رويت: المرجع السابق، ص ٨٤، ابن رزيق: الفتح المبين، ص ٤٧٥ ونـــدل فيلـــبس: تاريخ عمان ترجمة محمد أمين عبد الله، ط٥، عمان، ٢٠٠٣، ص ١٢٤.

(*) جيان يذكر ان المبلغ بالقرش وليس بالريال كما ذكر صاحب كتاب العمانيون وقلعـــة ممباسا. انظر جيان: ص ٤١٤.

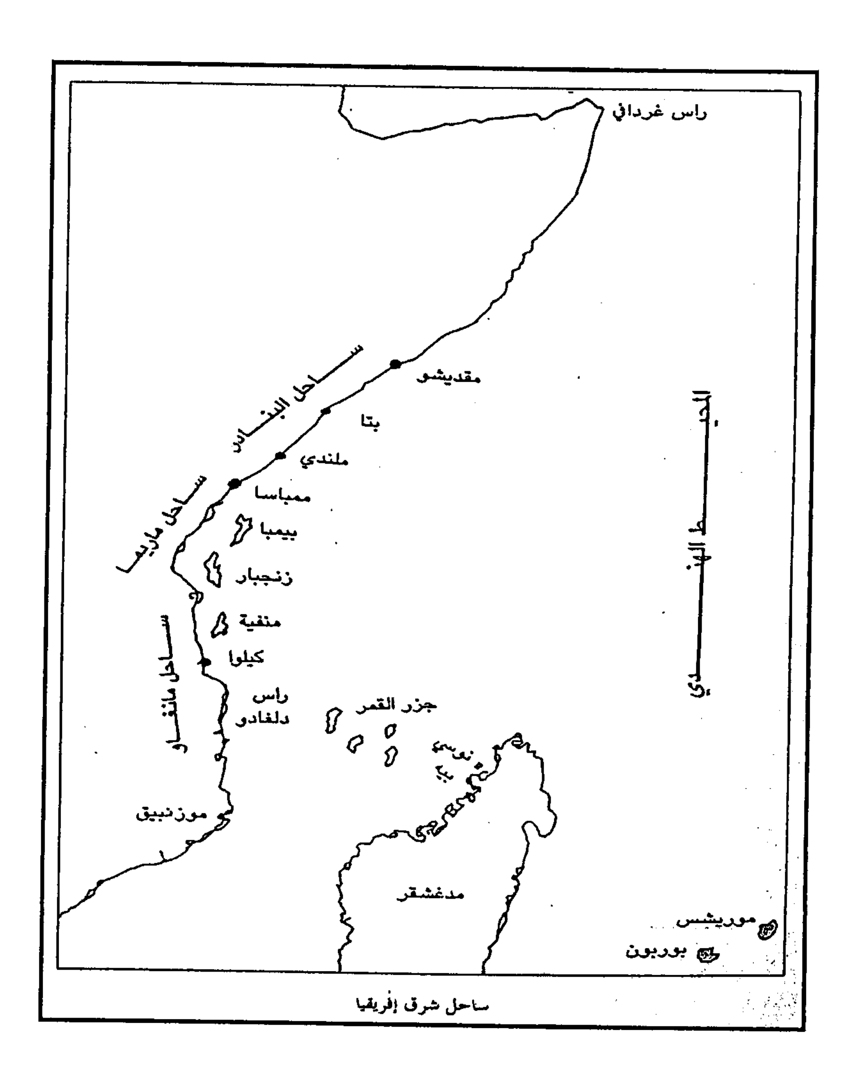
(١٧٧)وزارة التراث ، العمانيون وقلعة ممباسا، ص ٣٥، جيان: المصدر السابق، ص ٤١٥، سالمة بنت السيد سعيد : مذكرات اميرة عربية، ص ٣٩.

(١٧٨)وزارة التراث : العمانيون وقلعة ممباسا، ص ٣٥.

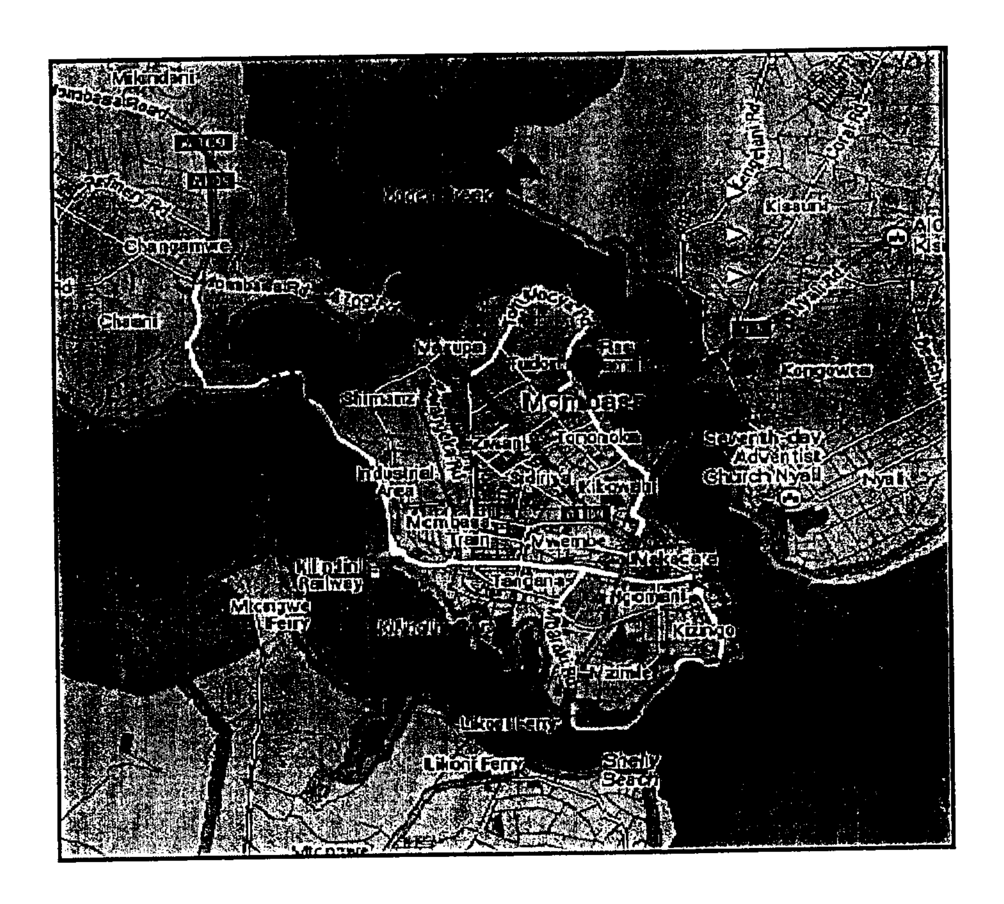
(١٧٩)جيان: المصدر السابق،ص ٤١٧.

(١٨٠)ابن رزيق ، المصدر السابق، ص ٤٧٤.

(181)F,O. 54/ 11 convention of commerce Between Her Majesty and His Highness the Iamam of Muscat, May 31, 1839 Microfilm, No, 336.



ساحل شرق إفريقيا


Mikindani
Changamwe
Chaani
Kisauni
Kongowea
Shimanzi
Tudor
Mombasa
Tononoka
Seventh-day
Adventist
Church Nyali
Nyali
Industrial
Area
Kizingo
Likoni Ferry
Shelly
Beach

المصادر والمراجع

أولا: الوثائق العربية غير المنشورة:

- بيان بسلاطين مملكة بته فى عهد السيد سعيد بن سلطان، ارشيف زنجبار، دار الوثائق القومية، سلطنة عمان.

ثانيا: الوثائق الانجليزية:

- F.O 54/ 3 microfilm No 333, treaty concluded with the imam of Muscat for the suppression of slavery, 1822.
- Co 879/ 35/ confidential Africa 1834- 1966 war and colonial Department and colonial office, Africa 1642- 1892.
- F.O. 54/ 11 convention of commerce Between Her Majesty and His Highness the Imam of Muscat, May 31, 1839 Microfilm, No, 336.
- Lewis Hertslet, A collection of the treaties and comuentions and Reciprocal Regulations at present subsisting Between great Britain foreign poweres, vol 111, London, 1827.
- Aitchesion, C.U., A collection of treaties Engagements and sunnueds Relating to india and neighbouring conuntries, compiled, vol, v11, Calcutta, 1865.
- Aitchsion, C.U., Bombay government selection from the records of Bombay government History and other information connected with the province of Oman, Muscat, Bahrien, and other place the Persian Gulf new series, vol xxiv Bombay, 1856.
- Bombay Archive, Political Department, vol, 20.
- Aitchsion, C.U. Selections from the Records of the Bombay government No, xxv, Report an Zanzibar Dominions, Bombay, 1861.
- Hughes thomes: Selections from the records of Bombay government Arabian Gulf intellignce, New series, No xxiv, Bombay, 1856.

ثالثا: المصادر والمراجع العربية:

- ابراهيم عبد المجيد محمد: الهنود فى زنجبار فى ظل حكم العمانيين فى القرن التاسع عشر.
- ابن بطوطة: تحفة النظار فى غرائب الأمصار، جـ١، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ١٩٥٨.
- ابن رزيق حميد بن محمد: بدر التمام فى سيرة الهمام سعيد بن سلطان، ملحق فى كتاب الفتح المبين فى سيرة السادة البوسعيديين.
- ــــــــــــ: الفتح المبين فى سيرة السادة البوسعيديين، ط٥، عمان، ٢٠٠١.
- ــــــــــــ: السيرة الجلية سعد سعود البوسعيدية، تحقيق ودراسة عبد الرحمن بن سليمان السالمى، عمان، ٢٠٠٧.
- الأزكوى، سرحان بن سعيد: كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة - تحقيق حسن محمد عبد الله النابودة، دار البارودى.
- الأمين بن على المزروعى : تاريخ ولاية المزارعة فى أفريقية الشرقية، دراسة وتحقيق ابراهيم الزين صغيرون، سلطنة عمان، ١٩٩٥.
- الأمين بن على المزروعى: مخطوط ولاية المزارعة فى أفريقيا الشرقية، جامعة أم القرى- المكتبة المركزية ٢٠٤٩.
- الريامى: ناصر بن عبد الله : زنجبار شخصيات وأحداث ١٨٢٨-١٩٧٢، مكتبة بيروت، مسقط، عمان، ٢٠٠٩.
- السالمى: نور الدين عبد الله بن حميد: تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان، جـ٢، مكتبة الاستقامة، عمان، ١٩٩٧.
- السيابى : سالم بن حمود: اسعاف الأعيان فى انساب أهل عمان، وزارة التراث والثقافة، سلطنة عمان، ١٩٨٣.

- السيد رجب حراز، بريطانيا وشرق افريقيا من الاستعمار إلى الاستقلال، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ١٩٧٩.
- القاسمى سلطان محمد: العلاقة العمانية الفرنسية ١٧١٥- ١٩٠٥، ١٩٩٤.
- ــــــــ: تقسيم الامبراطورية العمانية ١٨٥٦- ١٨٦٢، ط٣، ٢٠٠٥.
- المسعودى، أبى الحسن بن على: مروج الذهب ومعادن الجوهر، جـ ٣، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت، ١٩٦٤.
- المعمرى أحمد حمود : عمان وشرقى افريقية، ترجمة محمد أمين عبد الله، وزارة التراث القومى والثقافة، سلطنة عمان، ١٩٧٩.
- المعولى : أبو سليمان محمد بن عامر بن راشد: قصص وأخبار جرت فى عمان، تحقيق سعيد بن محمد بن سعيد الهاشمى، ط١، وزارة التراث والثقافة، سلطنة عمان، ٢٠٠٧.
- المغيرى، سعيد بن على: جهينة الأخبار فى تاريخ زنجبار تحقيق محمد على الصليبى، ط٤، وزارة التراث القومى والثقافة، سلطنة عمان، ٢٠٠١.
- بياترتيشه نيكولينى: جزيرة زنجبار التاريخ والاستراتيجية فى المحيط الهندى ١٧٩٩- ١٨٥٦ ترجمة نزار آغرى، دار النهار بيروت، ١٩٩٨.
- جمال زكريا قاسم : الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٩٩٦.
- ــــــــ: دولة البوسعيد فى عمان وشرق افريقيا، ١٨٤١- ١٨٦١، القاهرة، ١٩٦٨.
- ــــــــ: سعيد بن سلطان، مؤسس امبراطورية عربية، مجلة العربى، العدد ١٦١، الكويت، ١٩٧٢.

- ــــــــــــ: الدولة العمانية فى شرقى افريقيا، حصاد ندوة الدراسات العمانية، وزارة التراث القومى والثقافة، سلطنة عمان، ١٩٨٠.
- ــــــــــــ: تاريخ الخليج العربى الحديث والمعاصر : المجلد الأول إمارات الخليج العربى فى عصر التوسع الأوربى الأول ١٥٠٧-١٨٤٠، دار الفكر العربى – القاهرة، ١٩٩٧.
- جون كيلى: بريطانيا والخليج ١٧٩٥ – ١٨٧٠ ترجمة محمد أمين عبد الله، وزارة التراث القومى والثقافة، عمان.
- جى. كيركمان: التاريخ المبكر لعمان الاسلامية فى شرقى افريقيا، حصاد ندوة الدراسات العمانية، المجلد الخامس، وزارة التراث والثقافة، سلطنة عمان، ١٩٨٠.
- جيان : وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن أفريقيا الشرقية، ترجمة يوسف كمال، ط١، القاهرة، ١٩٢٧.
- حسين عبيد غباش: عمان الديمقراطية الاسلامية، ترجمة انطون حمصى، دار الجديد، ط١، بيروت، لبنان، ١٩٩٧.
- خالد ناصر الوسيمى: عمان بين الاستقلال والاحتلال دراسة فى التاريخ العمانى الحديث وعلاقاته الاقليمية والدولية، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ٢٠٠٢.
- رويت، رودلف سعيد: سعيد بن سلطان ترجمة سامى عزيز، وزارة التراث القومى والثقافة، سلطنة عمان، ١٩٨٣.
- سالمة بنت السيد سعيد بن سلطان : مذكرات اميرة عربية، ترجمة عبد المجيد حسيب القيسى، ط٢، دار الحكمة، لندن، بدون.
- سلوت ب.ج: عرب الخليج فى ضوء مصادر شركة الهند الشرقية الهولندية ١٦٠٢ – ١٧٨٤ ترجمة عايدة خورى، ط١، ١٩٩٣.

- صلاح العقاد: التيارات السياسية فى الخليج العربى من بداية العصور الحديثة حتى أزمة ١٩٩٠- ١٩٩١، الانجلو المصرية.
- ـــــــ: دور العرب والفرس فى مكافحة الاستعمار البرتغالى فى الخليج، دراسة مقارنة، حصاد ندوة الدراسات العمانية، المجلد الرابع، وزارة التراث والثقافة، سلطنة عمان، ١٩٨٠.
- صلاح العقاد، جمال زكريا قاسم : زنجبار، القاهرة، ١٩٥٩.
- عائشة السيار: دولة اليعاربة فى عمان وشرق أفريقيا، ١٦٢٤- ١٧٤١، ط١، القاهرة، ١٩٧٣.
- عبد الحكيم الوائلى : موسوعة قبائل العرب، جـ٥، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، ٢٠٠٢.
- عبد العزيز عوض : دراسات فى تاريخ الخليج العربى الحديث، جـ١، ط١، دار الجيل، بيروت، مكتبة الرائد، الأردن، ١٩٩١.
- عبد اللطيف الرميحى، فؤاد شهاب: قيام الدولة البوسعيدية الأسباب والنتائج، أضواء من ندوة عمان فى التاريخ، وزارة الدفاع، سلطنة عمان، ١٩٩٤.
- عبد الله بن صالح الفارسى: البوسعيديون حكام زنجبار، ترجمة محمد أمين عبد الله، وزارة التراث والثقافة، العدد الثالث، تراثنا، سلطنة عمان، ١٩٨٢.
- عبد المنعم عامر: عمان فى أمجادها البحرية. وزارة التراث القومى والثقافة، سلسلة تراثنا، سلطنة عمان، ١٩٨٠.
- فاطمة السيد على الزين: التاريخ السياسى لسلطنة زنجبار الاسلامية ١٨٣٢- ١٨٩٠، ط١، الرياض، ١٩٩٨.
- فالح حنظل: العرب والبرتغال فى التاريخ ٧١١- ١٧٢٠م، ط١،

منشورات المجمع الثقافى أبو ظبى، الامارات، ١٩٩٧.

- لوريمر ج.ج : دليل الخليج: القسم التاريخى، جـ٢.
- مؤلف مجهول: تاريخ أهل عمان تحقيق وشرح سعيد عبد الفتاح عاشور، وزارة التراث القومى والثقافة، عمان، ١٩٨٠.
- مايلز، س. ب: الخليج بلدانه وقبائله، ترجمة محمد أمين عبد الله، ط٣، وزارة التراث والثقافة، عمان، ١٩٨٦.
- محمد حسن العيداروس: السلطان سعيد بن سلطان، والعلاقات العربية الأفريقية، دار المتنبى للطباعة والنشر، ط١، الامارات العربية، بدون.
- محمد مرسى عبد الله: امارات الساحل وعمان والدولة السعودية الأولى، ١٧٩٣ ـ ١٨١٨، المكتب المصرى الحديث، جـ١، القاهرة، ١٩٧٨.
- نورة محمد القاسمى: الوجود الهندى فى الخليج العربى، ١٨٢٠-١٩٤٧، الشارقة، الامارات، ١٩٩٦.
- وزارة التراث القومى والثقافة : العمانيون وقلعة ممباسا، العدد التاسع، ط٣، عمان، ١٩٩٤.
- وزارة التراث القومى والثقافة: السلوة فى أخبار كلوة تحقيق محمد على الصليبى، عمان، ١٩٨٥.
- وندل فيليبس : تاريخ عمان، ترجمة محمد أمين عبد الله، ط ٥، عمان ٢٠٠٣.
- ياقوت الحموى شهاب الدين أبو عبد الله: معجم البلدان، جـ ٥، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧.

رابعا: المراجع الأجنبية:

- Abdulazizy . LaDHi, Muslims in Eastern Africa their past and present, Nordic journal of African studies 3 (1) uppsala university, Sweden, 1994.
- Almousawi, Hussain Ben Al- seyed yousuf, A History of Omani British relations with special Reference to the period, PHD, thesis, 1888- 1920. University of Glasgow, 1990.
- Berg, F.J.: The swahili community of Mombasa 1500- 1900, Journal of African History 1x, Cambridge university, 1968.
- Biswas, A Parajita : European slave Routs Indian ocean centre for African studies, University mombai.
- Boxer, Carlos de Azevedo, Fort Jesus and the portugese in Mombasa 1593 – 1729, London, 1960.
- Boxer C.R. The Portuguese seaborne Empire 1415- 1825 carcanet, 1991.
- Burton F. Richard, zanzibar city island and coast, vol 11, London, 1872.
- Calvin H. Allen . Jr. the state of the Masqat in the Gulf and East Africa, 1785 – 1829.
- Coupland sir Reginald, East Africa and its invaders Oxford, 1938.
- Coupland, R, Exploitation of East Africa 1856- 1890 the slave trade and scrable, London, 1939.
- Edward corcoan cssp : Mombasa Missian Grouth of the church in mombasa, Kenya, 1888 - 1990, Dublin, 1997.
- eliot, sir scharles : The East Africa protectorate, Frank cass, London, 1966.
- Harkishan Bhagat and Haroub othman colonialism and class formation in zanziBar, tanzania publishing House Dares salam, University of Dares salm.
- Hinawi. Mabarak Ali: Alakida and fort jesus Mombasa. East African literature, Nairobi: 1950.
- Ibrahim E. Soghayroun, The Arab and Swahili culture in Historical perspective some important links in the history of the Mazruis in East Africa By shagkh, Al- Amin B. Ali Al- mazrui centre for middle Eastern studies university of Bergan, sudanic Africa, vol . 12, 2001.
- Irene, S. van Dongen: Mombasa in the land exchanges of East Africa, Erd kunde, Bd, 17, H. 1/2. Jun 1963.
- James kirkman, fort jesus a portugese Fortaressan the East African

coast, oxford, 1974.

- James onley: Britain's Native Agents in Arabia and Persia in the Ninetenth century, comparative studies of south Asia, Africa and Middle East, 2004.
- Krapf . J.L. : Travels Research and Missionary labours in East Africa, London, 1860.
- Lyne, Robert imnez : zanzibar in contemporary times A short History of the southern East in the Nineteennth century, London, 1905.
- Owen, W.F.M. Narrative of voyages of explore the shores of Africa, Arabia and madaguscar final Departure of the portugeses in, 1829.
- Patricia Risso, Oman and Muscat an Early modern History, Crom Helm, London, 1986.
- Reda Bhacker. M.: Trade and Ampire in Muscat and Zanzibar, Roots of British domination, London, New York, 1994.
- Rosemary Mcconkey, Thomas McErlean: Mombasa island: amaritime perspective- international Journal of Historical Archoelogy vol. 11, No,2 June 2007.
- Stigand C.H.: The land of zing the coming of the Mazrui, London, 1913.
- Swartz, Marc.J. Religious courts community and Ethincity Among the Swahili of Mombasa and Historical study of social Boundaries, Journal of the international Africa institute, vol 49, No, 1, 1979.
- Thomas vernet: slave trade and slavery on the Swahili coast, slavery islam siaspora, york university, Toronto, 2003.
- Tomas spear, Williams college : The shirazi in swahili traditions, culture and history vol. 11, 1984.
- Wilkinson, John. C. : The imamate tradition of oman, Cambridge university press, First published, London, 1987 .
- Wilkinson. J.C. Oman and East Africa, New light on Early kilwan history from the Omani sources, Boston University African studies centre and Board of trustees vol. 14, No2, 1981.
- Zomarsh, East Africa, Cambridge, 1961.

الفكر العربي الإسلامي
وانعكاساته على الفكر العثماني

إعداد

د. هاني احمد طالب الشبول   د. غالب عبد احمد العربيات

كلية عمان للعلوم المالية والإدارية

جامعة البلقاء التطبيقية

مقدمة :

تمكنت قبيلة قابي (الحجر) العثمانية من إثبات جدارتها على الصعيد العسكري، حيث حققت في هذا الصدد انتصارات باهرة قلما حققتها قبلها قبيلة مشابهة لها في صناعة تاريخ دولة. فقد عُرف العثمانيون بأنهم ذو نهج عسكري متميز، وتفوقوا في معرفتهم الحربية، وأقاموا لها قواعد وأسس خاصة بهم؛ الأمر الذي اضطُر معه جيرانهم بما فيهم الغرب الأوروبي الي الأخذ بذلك النهج في كثير من الأحيان، وتّوجوا تفوقهم هذا باختراع نظام الدفشرمه المتضمن جمع الشبان المسيحيين من بلدانهم، وتدريبهم علي الفنون الحربية بعد عثمنتهم، وغرس معاني الشجاعة والتضحية فيهم وكذلك حب التفوق .

وعلي الرغم من ذلك التميز العسكري شعر العثمانيون في وقت مبكر

من عمر إمبراطوريتهم بضآلة تراثهم الثقافي وإفتقارهم لأدباء من الوزن الثقيل كما أيقنوا أن النهج العسكري وتسخير علمائهم للإشادة ببطولات فرقهم العسكرية قد يُعجل بظهور هذا التأخر الفكري، ومن ثم شجع أصحاب السلطة والنفوذ في الدولة العثمانية مفكريهم علي إنتاج الأعمال الأدبية والثقافية سواء ابتكاراً أو تقليداً؛ علي أمل أن تتحق لهم مدرسة عثمانية أدبية خاصة بهم أسوة بمدارس العرب العريقة، ونشط بعض من المفكرين العثمانين في إنتاج عدد من الأنشطة الأدبية، وحاولوا الإبتعاد إلي حد ما عن التقليد، ولكن كان من الصعب أن يتحقق لهم ذلك علي النحو الذي يميز ثقافتهم عن غيرها من الثقافات المجاورة لهم أو تلك التي خضعت شعوبها لسيطرتهم، وفي مقدمتها البلدان العربية التي حقق فيها الشعراء والأدباء العرب سبق لا نظير له، بحيث دخلوا التاريخ من أوسع أبوابه من حيث التفوق الأدبي، وعرفوا التصنيف المنظم في مختلف فروعه، ومن ثم فشلت الثقافة العثمانية في الحاق بمثيلتها العربية الضاربة في القدم، كما إستحال علي هذه الثقافة العثمانية المرور بتلك المراحل التي مر عليها الفكر العربي الإسلامي، ونتيجة لكل ذلك حاول العثمانيون تعويض إفتقارهم للعمق الزمني من خلال تكثيف نشاطهم الفكري، ولجأوا إلى اجتياز مراحل المعرفة بالقفز الي الأمام لتحقيق نشاط فكري تتميز به ثقافاتهم. وعندما تبين بعد مرور فترة من الوقت عجز الحركة الثقافية العثمانية عن تحقيق إنفراد وتفوق ثقافي وجدت هذه الحركة العثمانية مضطرة للإستعانة بالثقافية العربية الإسلامية علي النحو الذي سوف يكشف عنه البحث.

تمهيد :

لا يستطيع المؤرخ المدقق أن يستعرض التاريخ الفكري للدولة العثمانية

دون أن يضع في إعتباره حجم التأثيرات الفكرية العربية الإسلامية البادية علي هذا التاريخ، فمن الثابت أن العثمانيين عندما دخلوا الأناضول لم يكن لديهم ما يميزهم سوى الطابع العسكري الذي أسهم بصورة مباشرة في فرض هيمنتهم على ما جاورهم من مناطق، هذه الهيمنة قلما حققتها أمم غيرهم، علماً بأن العثمانيين تطلعوا منذ المراحل الأولى إلى إيجاد فكر خاص بهم،لاسيما بعدما حققوا انتصارات عسكرية باهرة، فضلا عن زدياد احتكاكهم بالأمم الأخرى، بخاصة العرب الذين إمتلكوا تراثاً فكرياً لا ينضب، لكن العثمانيين آثروا الاقتداء فكرياً بالعرب من الناحية الأدبية اعتقاداً منهم أن المخزون الفكري الإسلامي عند العرب انصب حول اجتهادات دينية أكثر مما هي إبداعات أدبية، وقد كبّر على العثمانيين مسألة التقليد حتى ولو كان الطابع دينياً باعتباره السمة الرئيسة المهيمنة على الفكر العربي(١).

لم يعتد الأتراك العثمانيون على أنصاف الحلول حتى على الصعيد الفكري، تخوفاً من الضياع، لأن إبداعاتهم في المجال العسكري ولّدت لديهم حُبّ التعالي، ولهذا ظل علماؤهم لعقودٍ يحاولون إيجاد فكرٍ عثماني خالص، وعندما يئسوا من محاولاتهم لجؤوا إلى العثمنة ومنها عثمنة الثقافات الأخري وخاصة العربية منها التي التي عملوا عليها منذ اتخاذ بورصه سنة (١٣٢٤م) عاصمة لهم.

إن الجهد السلطوي الذي بذله العلماء العثمانيون، لم يكن يرتبط بالفكر، وإنما ارتبط بما حققوه من انتصارات، هذا الارتباط وتلك الشذرات الفكرية لم تكن لتحسب على الأدب، لذلك عمدوا إلى الاحتكاك بالعرب والإستفادة الثقافية، مستغلين الانتصارات التي حققوها عليهم. وقد إنعكست هذه هذه الحقيقة عندما ذكر جودت في هذا الصدد: - "إن الفكر ينبع من تراث

حضاري وعادات، وعلى الأتراك إجراء احتكاك فكري فعال مع الأمم الأخرى من عرب وفرس، وليس عيباً الأخذ من تراث الإغريق، غير أن المخزون الفكري لدى العرب قادرٌ على الإسهام فعلياً في خلق تراث عثماني يغني إلى حد ما عن التراث الإغريقي المتعصب دينياً [2].

وقد أجمع العلماء العثمانيون ومفكروهم على أن الحياة الفكرية نمت وتشكّلت في مرحلة ما بعد فتح القسطنطينية سنة (١٤٥٣م)، وأن الحياة الفكرية التي برزت بوضوح في العالم الإسلامي تبلورت على نحوٍ جلي مع ظهور حركة الاستشراق الأوروبي، علماً بأن حركة الاستشراق لم تتعرض للعثمانيين وإنجازاتهم، وإن كانت هذه الإنجازات محدودةٍ إلى حد ما، لاسيما أن الفكر العثماني نما وترعرع في أحضان الفكر الإسلامي الذي أصبح جزءاً لا يتجزأ منه[٣].

ولهذا شدّد العلماء الأتراك العثمانيون على أن خصوصية الفكر العثماني المنبثقة من رحم الفكر الإسلامي كبرت وترعرت، وكوّنت لنفسها مع مرور الزمن شخصية مغايرة لما تنامى بين الأقطار الإسلامية من أفكار كوّنت هي الأخرى إطاراً مغايراً للحياة الفكرية لدى العثمانيين[٤].

إن المتتبع للتاريخ العثماني يدرك تماماً أن الحياة الفكرية لا تتضح لقارئها بصورة جلية، لاسيما أن هذه القراءة قد تكون مجحفة من جهة، وعسكرية الهوى من جهة أخرى، كما كان عليه الحال في عصر الدولة الإسلامية، وللتأكد من ذلك لابد من الاطّلاع على الأسماء والموضوعات التي قرئت من التراث العثماني الذي أبدع في إنجاز حياة فكرية محضة، ففي مجال العلوم العقلية برز كل من عدنان آديوار في مؤلفه الحياة العلمية والفكرية عند العثمانيين، ورضا المنلا فناري، والمنلا خسرو، وزنبيللي علي

أفندي، وكمال باشا، وأبو السعود أفندي، وهؤلاء الشخصيات العلمية برزت في مجال الجغرافية والتاريخ، بالإضافة إلى بيري ريس الذي تبحر في علم البحار والمحيطات وترك دراسات مهمة جداً في هذا الصدد(٥) .

إن هؤلاء المفكرين العثمانيين، اثبتوا قدراتهم العلمية في كثير من العلوم، فبيري ريس اشتهر بخرائطه التي رسمها، حينما شارك في الغزوات البحرية، في حين اشتهر كاتب جلبي في تصنيف العلوم والمشهور باسم كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون. إن هؤلاء العلماء المفكرين بلغوا مرتبة علمية بحسب رؤية المفكرين الأتراك العثمانيين، تعادل ما بلغه الفارابي وابن سينا والبيروني أو الغزالي وابن خلدون(٦).

الغربيون والعثمانيون والعرب :

لقد تصور الغربيون أن العثمانيين بصفة عامة وطوال عصور دولتهم عديمي الإبداع الفكري، وأن إبداعهم كان يقتصر على نحوٍ واضح على العسكري منه، وهو في تقديرنا تصور متسرع، فالأتراك العثمانيون وبعد سيطرتهم علي المنطقة العربية أصبح لديهم طاقات فكرية طورتها عقيدتهم الإسلامية، كما أن مجاورتهم لحضارات موغلة في الأصالة كالحضارة العربية والحضارة الفارسية، وإحتكاكهم بأداب وفنون هذه الحضارات عاد عليهم بكثير من الفوائد الثقافية والأدبية، خاصة وأنهم أصبحوا بعد أن إستقرت سلطتهم لم يقلدوا كل التقليد، وإنما تطلعوا إلى تشكيل شخصيتهم الفكرية والإبداعية المستقلة، ومما يؤيد ذلك الإستنتاج العوامل الأتية(٧).

١- فقدت الحياة الفكرية عند العرب أو في العالم الإسلامي حيويتها ونشاطها.

٢- وُطّد لدى إن الإيدلوجية العثمانية ومركزيتها في دولتها، أسلوب مرتبط بتلك الإيدلوجية.

٣- طبيعة مركزية الدولة، فالمؤسسة في الدولة العثمانية أسهمت في تنمية نظام بيوقراطي تّجذر في مؤسسات الدولة، وتميز عمن سبقه بأنه عثماني بامتياز.

لم يرتقِ رجال العلم في الدولة العثمانية بل ظلوا للسنوات الأخيرة من عمر الدولة العثمانية إلى وضعية الاستقلال عن السلطة المركزية، إلا في حالات استثنائية، وقد انحصر العلم في الدولة العثمانية في زاوية إرادة الحاكم وسلطانه، وهذا ما أخر ظهور إنجازات علمية خاصة بالعلماء الأتراك العثمانيين كغيرهم من العلماء[٨] .

العثمانيون بين الصراع الفكري والعسكري :

ومن نافلة القول: إن انشغال العثمانيين بالحروب، لم يفسح المجال أمام العالم العثماني، ولم يمنحه الوضع الحربي مناخاً علمياً مستقلاً عن السلطة، كما كان في العهدين الأموي والعباسي، ولكنه وإن لم يتوافر له هذا المناخ، فهذا لا يسوغ له الانخراط كلياً بالنظام البيروقراطي العسكري الذي أضاع جهود العلماء العثمانيين في إبداعهم الفكري، ويّرد بعض العلماء العثمانيين سبب الجمود الفكري إلى التباري مذهبياً مع الفكر الشيعي الذي ظهر في أواخر القرن الخامس عشر. وقد تحول إلى مشكلة سياسية قضت مضاجع العثمانيين، خاصة بعدما اعتنقته الدولة الصفوية على نحوٍ رسمي، وبدأت بالتنافس مع العثمانيين الذين واجهوا المذهب الصفوي بالمذهب السني، فضاع من جّراء هذا الصراع المذهبي، أو إن الفكر العثماني تعرض للجمود لسنوات نتيجة لهذا الصراع المذهبي الذي لم ينته، وإن تحول إلى صراع

غير مذهبي خلال القرون التي تلت القرن السادس عشر، لكنه على الرغم من الملابسات والظروف، فقد أعاق الحياة الفكرية في الدولة العثمانية[٩].

لقد حُشر المفكرون الأتراك العثمانيون في زاوية الصراع العسكري، وأرغموا على مساندة قواتهم العسكرية التي انتقلت للصراع مع الغرب الأوروبي، وقد بدا العلم هو الوعاء الوحيد القادر على استيعاب الجيد لواقع الصراع، فانتج علماً فيه ابتكار وإبداع أكثر مما لو كان جامداً لا تحارب قواته ولا تفرض على الآخرين إرادتها، وعلى الرغم من ذلك، فقد كُلف العلماء بوضع الأسس الفكرية والعقائدية لمبدأ الدفاع عن حدود الوطن. ونهضت هيئة فكرية تزعمها ابن شيخ الإسلام الشهير آنذاك ابن كمال الذي بدأ بابتداع مصطلحات أسهمت إلى حد كبير في تقوية معنويات القوات العسكرية، حيث سميت المحاولة الإيرانية بالرافضية، وهذا ما خلق آنذاك جدلاً حاداً، في حين سميت المحاولات الأوروبية بالنصرانية الصليبية الساعية إلى إبادة الإسلام (هي مصطلحات تستر من خلفها العثمانيون واحتموا بها)، وفي الوقت نفسه خلق جدالاً حاداً، دولة نما فيها تفاوت، هذا التفاوت ساعد المفكرين الأتراك على ابتداع مصطلحات علمية سبقت عصرها بقرون، وهذا أسهم ايضا في تشكيل قاعدة أو نقطة تحول في السياسة الدينية للعثمانيين، وخلق تطوراً في حركة الفكر الديني أيضاً، افتقرت إليهما الدول أو الأمم التي تمتلك حضارات، لأنهم وحضاراتهم ظلوا رهينة الإرادة العثمانية إن لم نقل الجمود، ولأنها غدت مفلسة، فبدأت بالتشدق بما لديها.

لقد خاض العلماء العثمانيون في بحوثهم ودراساتهم مجالات شتى في الحياة الفكرية من أبرزها المجال السياسي والفلسفي الديني، بخاصة مجال

التصوف، وأقاموا دراسات حول بعض الشخصيات الإسلامية والعالمية، وقدموا دراسات في مختلف الموضوعات، لكنها بمقاييس العصر وإن كانت بعيدة عن الوصول إلى نتائج شافية، فضلاً عن ذلك، فإن هذه البحوث لا تزال مقصرة في إثبات أن النتاج الفكري العثماني، وعلى الرغم من هذا التقصير والذي يحتل مكانة مهمة في الفكر الإسلامي،علماً بأن رؤية التقصير – ليست رصداً للواقع التاريخي – لاسيما إذا وضعنا في الاعتبار وجود أوضاع مشابهة للواقع التاريخي الذي عاشته الدولة العثمانية، فالواقع التاريخي للعالم الإسلامي تشابه مع الواقع العثماني[١٠].

لا شك في أن الدولة العثمانية انشغلت بحماية العالم الإسلامي، بخاصة طرفه الغربي (مناطق الشمال الإفريقي)، ولكن بتلك الحماية كانت مجاورة للعالم الغربي، فحملت من جراء هذه الجوار مسألتين. الغزو والجهاد أو إعلاء كلمة الله[١١].

الحياة الفكرية العثمانية والتمازج الفكري:

بقراءة واقعية للمهام التي قامت بها الدولة العثمانية لابد لنا من أن نلحظ أننا قد تعرضنا للمجال الفكري والسياسي والفلسفي والديني والصوفي، لأن هذه الجوانب كانت جزءاً مكملاً للتاريخ العثماني، لاسيما إذا وضعنا في الاعتبار أن بحوثاً تاريخية قد عالجت افتراضات وأطروحات من أبرزها[١٢]:

١- البنية التاريخية للحياة الفكرية عند العثمانيين الذين أقاموا دولة كانت في بادئ الأمر إمارة صغيرة على حدود سكودا في شمال غرب الأناضول مجاورة للدولة البيزنطية من جهة، وللدولة السلجوقية من جهة أخرى، وذلك في أوائل القرن الرابع عشرميلادي، يوم كان العالم الإسلامي يعيش ازدهاراً فكرياً تجسد آنذاك بالمدارس الفكرية

المتنوعة، وقد انتهت ولم يعد لها أثر بعد الخليفة العباسي المأمون، وفي الوقت نفسه سعى العالم الإسلامي المتجسد بالخلافة العباسية إلى تجاوز أزماته السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، لكنه فشل ووقع تحت ضربات المغول الذين دمروا مركز الخلافة العباسية سنة (٦٥٦ هـ / ١٢٥٨م) [(١٣)].

فإذا كانت مقدمة ابن خلدون تعد استمراراً للحياة الفكرية في العالم الإسلامي، فإن كثير من المفكرين والمؤرخين يعدّونها عملية احتضار للفكر الإسلامي (حسب رأي المؤرخين العثمانيين) وهذا ما تعرضت له الحياة الفكرية لدى العثمانيين، فوضعت فوق التراث الإسلامي الراكد، وتفيد المعلومات التي يسوغها العثمانيون عن تفاعل الحياة الفكرية لديهم بأنها ازدهرت يوم تأسست دولتهم. فمثلاً الشقائق النعمانية لطاشكبري زاده الذي صدر في القرن السادس عشر الميلادي يعّد مفخرة علمية لما تتضمنه من معلومات، فقد وضح فيها مسألة تأسيس الدولة والإعجاز الكبير لقادة تلك المرحلة [(١٤)] .

وما يمكن قوله: إن الدولة العثمانية شجعت تطور الفكر خلال العصر الكلاسيكي، وإن الفكر آنذاك لبى الاحتياجات العلمية، وبدا كأنه مظهرا طبيعيا جدا لبناء شيدته وطورته أقلام العلماء العثمانيين، بما يتفق مع نظرة الدولة منه، حيث المفهوم والمحتوى، وفي الوقت نفسه حرصت الدولة بجدية على عدم إقامة هوة بينها وبين الفكر، ولم تكتف بذلك، بل ضربت بشدة على اليد التي تحاول إيجاد تلك الهوة، ولهذا فإن الحياة الفكرية وإن أصابها شيء من الجمود، لكنه جمود لم يضعف مسيرة الحياة الفكرية بصورة كاملة، وإنما عرّضها للاهتزاز، لكنها استمرت حتى عهد التنظيمات العثمانية [(١٥)] .

٢- أما من حيث أسس الفكر العثماني وبنيته، فقد تجسد من خلال هيمنة الدولة عن الفكر السياسي، فلجأت إلى ترك العلماء يدونون بإقلامهم لمسافة من الزمن ما يحلو لهم من فكر سياسي، واجتماعي، وأخلاقي، وهاهو طورسون بك (ت ١٤٩٠م) يخوض هذا المجال حتى وجود الدفتردار صاري محمد باشا (ت ١٧١٧م) الذي طوّر فكرة جديدة تختلف عن الأفكار التي وضعها المفكرون المسلمون من عرب أو فرس.

ومن الجدير بالذكر أن الفكر العثماني المتجدد لم يكن فلسفيا، وإنما براغماتيا بامتياز، فمقدمة طورسون بك في كتابه (تاريخ أبو الفتوح) خلال القرن الخامس عشر الميلادي، ثم كتاب (آضفنامه) للمؤرخ لطفي باشا خلال القرن السادس عشر الميلادي، وكتاب (نصحة السلاطين) لمصطفى عالي أيضاً في القرن السادس عشر الميلادي، وكتاب (أصول الحاكم في نظام الأمم) لحسن كافي خلال القرن السابع عشر الميلادي و(كتاب مستطاب) لمؤلف عثماني مجهول، وكتاب (دستور العمل لإصلاح الخلل) لكاتب جلبي في القرن السابع عشرالميلادي، وكتاب (تلخيصات در أحوال عالم) لقوجي بك، وكتاب (نصايح الوزرا) للدفتردار صاري محمد باشا خلال القرن الثامن عشرالميلادي، وغير ذلك من المؤلفات التي شملت موضوعات مختلفة ومتنوعة [١٦]، إنما هي تكرار براغماتيا لكتب وضعت في الفكر السياسي الإسلامي خلال العصر الكلاسيكي، وفي الوقت نفسه ما هي إلا تحليل لبعض الأفكار المطروحة التي ركزت بمجملها على نقاط ثلاث: الأسس الفلسفية، والأسس السياسية، والأسس الأساسية، وكلها عاشت في بوتقة الإسلام، وذلك على النحو الآتي:

أ- أفكار سياسية تركية قديمة مجردة، أخذت شكلا ممزوجا بالفلسفة

السياسية الهندية القديمة، مثل: كتاب (قوتادغو بيليك) ليوسف خاص جاجب (في القرن الحادي عشر الميلادي).

ب- الفكر السياسي العربي المسلم، الذي بدأ برسائل الفيلسوف الكندي الشهير في القرن التاسع الميلادي، ثم استمر مع الكتابين المشهورين للفارابي المعروفين باسم المدينة الفاضلة.

ج -الفلسفة السياسية الايرانية المختلطة من الفكر السياسي الهندي القديم، وقد مثلها في هذا المجال كتاب (سياستنامه) للوزير السلجوقي الشهير نظام الملك [١٧].

الفكر والمفكرون العثمانيون وتأثره:

بالعودة إلى المفكرين العثمانيين ووضع مؤلفاتهم للتحليل، خلصنا إلى أن الفكر السياسي العثماني تولى مسألة التقليد للمفكرين السياسيين الذين سبقوه، وفي الوقت نفسه تأثر بالتقاليد السياسية للدولة البيزنطية، واستخلص أن العدالة هي دَيْنُ عليه لرعاياه، ولهذا حرصت الإدارة فيها على عدم المساس بالوضع القائم في ولاياتها، بعكس ما تصوره بعض المفكرين السياسيين الإسلاميين الذين توصلوا دون دلائل على أن السلطان الحاكم هو (تابو) ممنوع اللمس، وأن هذه القدسية أجمعت عليها الكتب السماوية (أطيعوا الله والرسول) علماً بأن العثمانيين بحسب وجهة الفكر السياسي الإسلامي فهموا الآية فهما خاطئا، لكن هذا الفهم لا علاقة له بتطور الفكر السياسي لدى العثمانيين[١٨].

كما أنه من المتعارف عليه علميا أن الفكر السياسي العثماني بدأ أولا بالترجمات لمؤلفين إسلاميين شرقيين، والترجمة التي قام بها ابن المقفع في

مؤلفه المشهور (كليلة ودمنة) في القرن التاسع الميلادي عن الترجمة البهلوية التي تمت في العهد الساساني، فقد دخلت اللغة العثمانية لأول مرة بتوجيه من أمير أمور بك حاكم إمارة آيدين في القرن الرابع عشرالميلادي، وقد تم تحويل هذه الترجمة إلى ترجمة منظمة، وقدمت إلى السلطان مراد الأول (١٣٥٩-١٣٨٩م)، وترجمة أخرى من الفارسية إلى العثمانية في عهد السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠-١٥٦٦م)، وقد قام بترجمته علي جلبي تحت عنوان (همايوننامه) [١٩].

وبناء على ما تقدم؛ فإن القراءة لهذا الفكر العثماني يحتم علينا الإقرار بأن الفكر العثماني انفصل عن الفكر السياسي العثماني الذي بدأ بالظهور أولا عن طريق الترجمات، وبذلك بدأ بخوض مجالات الموضوعات الأساسية وتحليلا للأفكار المطروحة في مضامين تلك الترجمات، أو تعرّف إليها كبار المفكرين العثمانيين الذين سلكوا نهجاً مشابهاً لما تعرفوا إليه، ثم بدأوا بالإبداع [٢٠].

ويجدر بنا أن نقر ونعترف بأن هناك شخصيات عثمانية أبدعت في الحياة الفكرية على نحو متميزعلميا وسياسيا،أمثال: حسن كافي (ت ١٦١٦م) وقوجي بك (ت ١٣٤٨م) وكاتب جلبي (ت١٦٥٧م)، وأيضاً لابد من ذكر المؤلف الشهير حسن أفندي (ت ١٦٩٢م) الذي يّعد من كبار هيئة رجال العلم، حيث ألف كتبا عدة في مختلف المجالات، بخاصة كتابه (تلخيص البيان)، حيث رصد فيه مواقع الخلل في الدولة وأجهزتها، وسلط عليها نقدا لاذعا .

أما عن مجموعة القضايا التي واجهت الفكر السياسي العثماني- السلطان ورجال حاشيته - الذين شكلوا (فئة البيروقراطية)، والجيش،

والخزانة، والرعية، ومنه جانب آخر لابد من عرض واجبات الرعية والمسؤولية الملقاة عليها، ضمن إطار تبادل العلاقة مابين الحاكم والمحكوم التي هي – كما ذكرنا سابقا – قضايا رئيسة ذات أسس فكرية سياسية تستند على بعض النقاط السياسية من أبرزها :

١) إن المفكرين العثمانيين عالجوا كتبا سياسية، كان المفكرون المسلمون قد تبحروا بها، ولهذا لم يتمكن المفكرون العثمانيون من الإبداع، فكرروا الأفكار والمعتقدات التي ألفت قبل ثلاثة أو أربع قرون؛ حيث اقتصر إبداعها على موضوعات ثلاثة، هي :

أ- كتب سياسية (سياستنامه).

ب – كتب النصح والارشاد (نصيحتنامه).

ج – كتب أو لوائح الإصلاح (إصلاحلاتنامه) (٢١).

٢) النقطة الثانية التي أعاقت الإبداع هي (جهاز الصدارة العظمى)، فالدولة منذ أن عّهد السلطان سليمان القانوني للصدر الأعظم بإدارة البلاد، بدلاً من أن يكون الصدر الأعظم هو المعاون الأول للسلطان في إدارة دفة الحكم أصبح عبئاً عليه، فإذا كان الصدر الأعظم صالحاً كانت مسيرة الإدارة بخير، وإذا كان عكس ذلك يقضي عليها بحماقته، وهذا ينعكس على الحياة الفكرية، لأن العلماء يصرفون اهتماماتهم إلى مؤازرة الرعية بالقلم أو بالكلام، وإذا لم يحنوا الرقاب للحاكم، ولم يتهمهم بأنهم خالفوا الشرع، وهنا لا مجال للفكر للنهوض، فيضطر بعض من العلماء إلى تأليف كتب في سياسة النصائح أو النصائح السياسية كتنبيه للحاكم من عدم الاستمرار في دفع البلاد إلى هاوية الانهيار، وفي هذه الحالة يضطر الحاكم إلى استرضاء جنده لحفظ الأمن وحماية البلاد، وفي هذه الحالة أيضاً يجب أن تكون

الخزانة عامرة لتشدد أزر الجيش (٢٢).

٣) أما مسألة الرعية، فهي مهمة، لكنها آخر قضايا الحاكم، وأقلام الكتّاب والمفكرين تتناولها، لأنها تشكل حجر الأساس في سياسة السلطان، ولأن الضرائب والجند وأمن السلطان كلها أمور ترتبط في الدرجة الأولى بالرعية، فضلا عن ذلك فالمال لا يأتي إلا من الرعية،لأنها مصدره وسبب توافره.

٤) بشأن البحث عن مفكري الإصلاحات، فلعل لطفي باشا يّعد في مقدمة هؤلاء المصلحين بالقلم والعظة. فما دونّه عن الوزير الأعظم في مؤلفه (آضفنامه) يعدّ مثالا لكتب السياسة وكتب النصائح، علما بأنه يبدو لقارئه على أنه كتاب لوائح وتقارير إصلاحية، ولأنه أكثر من معالجته للخلل الذي تعيشه الدولة في زمن القانوني (٢٣).

أما الفلسفة الأساسية التي تحلل أسباب الخلل والفساد وسبل القضاء عليها برمتها، فقد ركزت الدراسات الفلسفية على الأركان الأربعة، لأنه جرى تسليم الأعمال والمواقع والمناصب لمن يدفع مالاً أكثر، وليس لمن هو أهل لها، مما جعل داء الرشوة يستشرى بلا حدود.

وبــذلك يمكن القول: إن الفكر السياسي العثماني خلال الحقبة الكلاسيكية، ربما لم يصنع أعمالا أخرى تناقش قضية الخلافة التي تعرض لها لطفي باشا في رسالته (٢٤).

أما بشأن الفكر الفلسفي العثماني والمسماة(المحكميات)، فإن العثمانيين تسلموا الفكر الإسلامي وهو في مرحلة ركود، على الرغم من الجهود التي يذكرها الفيلسوف الأندلسي ابن رشد (ت ١١٩٨م).

وفي الحياة الفكرية الإسلامية ؛ فلم يسفر الجهد فيها عن تقدم كبير، وأما عن الحياة الفكرية العثمانية فيها لم تكن بمجملها قادرة على قراءة تقييم لهذا التأثير، ويظهر ذلك من خلال الترجمات التي أنجزها العثمانيون لكتابة (إحياء علوم الدين) وبالقراءة للحياة الفكرية العثمانية نعتقد أن العثمانيين كانوا يفتقرون إلى نظرة فلسفية، وأسلوب للتفكير في حدود معينة، وقد كان التفكير العثماني أقرب إلى التفكير الميتافيزيقي؛ لأنه بمجمله يدور حول مفهوم الخالق والكائنات اذا علمنا بمجالات اهتماماتهم المنصبة حول:

١) المجال الأول في مجموعة علماء عثمانيين أمثال: سنان باشا، ومنلا لطفي، وابن كمال باشا، وأبي السعود أفندي ممن نشؤوا على المدرسة الفكرية لفخر الدين الرازي التي سادت في الحياة العثمانية منذ القرن الخامس عشر ميلادي [٢٥].

٢) المجال الثاني، ويتمثل في التصوف على مذهب وحدة الوجود الذي ترأسه محيي الدين بن عربي، وقد استوعب ابن عربي في فلسفته تاريخ التصوف العثماني، وعلى ضوء هذين المجالين يبدو القاسم المشترك في تيار الفكر الفلسفي أو الميتافيزيقي يدور حول مفهوم الخالق، أما بشأن تيار التهافت في إطار الفكر الفلسفي، فإن المعلومات المتاحة لدى الهيئة العلمية هي أن الفكر الفلسفي العثماني بدا مواكبا لحركة الأنشطة العلمية الأخرى، التي تنامت زمن السلطان محمد الفاتح (١٤٥١-١٤٨١م) علماً بأنه ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالمسار الطبيعي للتطور الثقافي في دولة قطعت نصف حياتها بالصراع مع الآخر، لكنها تمكنت من تكوين حياة فكرية، يصعب على العلماء تجاهلها أو المرور دون الإشارة إلى إنجازاتها العلمية [٢٦] .

إن تيار التهافت الذي ولّد في الدولة العثمانية هو امتداد طبيعي لكتاب

تهافت الفلاسفة الذي أعدّه الغزالي، ونقده لأفكار الفلاسفة التي طرحها حول الله والوحي الالهي والمناهج التي استخدمها في ذلك (٢٧).

إن الجدل الذي خلقه كتاب تهافت التهافت الذي كتبه ابن رشد ردا على الغزالي، أصبح موضوع جدل كلامي تحول فيما بعد إلى صدام أو مواجهة بين الدين والفلسفة، ونتج عن هذا التنافس بين الفلسفة والكلام خلال القرن العاشر الميلادي في العالم الإسلامي جدالا عنيفا بكامله، وقد وصل الجدل إلى العثمانيين، ومواصلة المفكرين للجدل القائم منذ شهاب الدين السهروردي (ت ٥٨٧ هـ -١١٩١م) حتى سيد شريف الجرجاني (ت ٨١٦هـ/١٤١٤م) ولازالت الدراسات تدور في إطار الكلام (٢٨).

لقد تصدى الكتّاب الأتراك للجدل الدائر بين الكلام والفلسفة الذي عاش العرب قرونا في إطاره، ولم ينته الكلام أو الجدل، ولم يكن العثمانيون أقل من العرب جدالا، لأن حداثتهم في الدين كان لها أثر كبير في عدم التراجع، وما وضعه ابن كمال باشا حاشية على تهافت الفلاسفة، هو تحشية على كتاب خوجه زاده في الأساس، وأيضا ما وضعه علاء الدين علي (كتاب الزخر) كان تكملة لطريقة التهافت الذي وضعه الغزالي، وعلاء الدين لم يرفض كتاب التهافت وتهافت التهافت لابن رشد فقد توافق مع خواجه زاده بأنهما قدما للعلوم خدمات كثيرة، وأسهما في تطوير الرياضيات والهندسة والمنطق، وأقرا بأن العقل وحده عاجز عن فهم عدد من المسائل الغيبية، لكنهما لم يتعرضا لمسألة الوصي.

خلاصة ما يمكن قوله :

إن هذه الطروحات ولدّت ما يسمى بحركات مناهضة للفلسفة عرفّها بعض العلماء، خاصة المؤرخين بأنها أكثر شراسة من مناهضة الحاكم، لكنها

لم تكن مسلحة، بدأت أحداثها تزداد منذ القرن السادس عشر الميلادي، واتجهت إلى ما يشبه التعصب المعادي للفلسفة في القرن السابع عشر الميلادي (٢٩).

وارتبط هذا الموقف المتشدد على نحوٍ مباشر بالمشكلات السياسية والاجتماعية، ولم تكن تلك المشكلات نتيجة للمنهج الفكري أو منهج طبيعي للحياة الفكرية العثمانية، التي ترعرعت من خلال كتابات العرب على نحوٍ خاص، وهذا ما أعاق عدم إبداع الفكر العثماني تعصبه الأعمى وعدم إقراره بالواقع، وما قدمته الحضارة العربية، وتجاهلهم للضائقات الخطيرة التي تسربت إلى التركيب الاجتماعي، والاقتصادي الذي ربطه العثمانيون بالدولة، مما أوقعه في مختنق الابتعاد عن القانون القديم والشرع الشريف (٣٠).

من الصعب جدا البحث عن حياة فكرية عثمانية أو إيجادها دون تأثيرات عربية، وهذا ما أكده الكتّاب العثمانيون، لكنهم وصفوها بأنها تأثيرات إسلامية، متبعدين عن ذكر العرب، لأن هذا يشعرهم بالضعف، وتناسوا توأمة العروبة والإسلام، لكن القرّاء يدركون أن العلماء العرب قدموا خدمات كثيرة للإنسانية، وكان الأتراك من أوائل من أفاد من براعة العرب بالعلوم.

واخيراً، قد يؤخذ على الفكر العثماني المتنامي على حساب الأمم والشعوب الأخرى أنه سلبي؛ بسبب افتقاره إلى رصيد حضاري كبير ليقدمه إلى الحياة العلمية في مصر أو غيرها، علماً بأن الأتراك العثمانيين أسسوا دولة بل إمبراطورية امتلكت ثلاث قارات، لكنها ظلت تشكو التراث الحضاري المتوافر بما جاورها من أمم، وعلى الرغم من الافتقار إلى التراث الحضاري إلا أن المفكرين العثمانيين استطاعوا بلباقة الاحتفاظ بتراث

الآخرين بكل جلد وصبر، وتوخوا الدقة في مسألة الاقتباس الفكري[٣١].

الخاتمة :

يخطئ من يعتقد أو يتصور بأن الأسباب والعوامل قد افقدت الفكر الإسلامي مناخ الإبداع والتجديد،أو أنه فقد هويته خلال السيطرة العثمانية على مدار ستة قرون، ولا شك في أن العثمانيين على الرغم من انشغالهم بالحروب والسعي للهيمنة العسكرية، قد أنجزوا بحوثا، وإن دراساتهم التي أجريت سابقا واليوم حول الفلسفة والسياسة والدين والتصوف، وحول بعض الشخصيات العثمانية البارزة، وإن كانت بعيدة بمقياس العصر عن الوصول إلى نتائج مرضية، إلا أنها إسهامات فكرية يُعتد بها، علما بأن هذه النتائج العامة كانت ذات صفة إفتراضية، حتى ولو في قسم الطبع منها أو إطار الموقف، وبناء على ما تقدم، يمكن القول: إن الفكر السياسي العثماني يمثل رصيداً مبينا على ما أوردته بعض مؤلفاتهم القديمة،علما بأنه يفتقر إلى نقاط ارتكاز مستمدة من ماضٍ تليد.

حواشي الدراسة وهوامشها :

1-Fuad uaanosmlanlikurulusGunumuzeFotihkullihsilstanbul 1949.S 140.
2-Lsmdil Hakkiosmanlitarihi Ankara 1945 c.l.s.329.
٣- أحمد جودت باشا، تاريخ جودت، استانبول، ج٣، ص ٤١٣ .
٤- عاشق باشا زادة، ستأنف النعمان، استانبول، ١٣١٧ هـ، ص ١٩ .
٥- لطفي باشا، تاريخ لطفي، استانبول، ١٣١٣ هـ، ج٤، ص ١٧٨.
٦- لطفي باشا، خلاصة العموم في معارف الإمامة، استانبول، ١٣١٧ هـ، ص ١٥٧.
٧- كاتب جلبي – احسان الهداية، استانبول ١٣٣٦ هـ، ص ١١٩ وما بعدها.
٨- اسماعيل حقي اوزون تشارشلي، علمية تشكيلاتي، انقره،١٩٥٤ م، مجلد ٣، ص ٢٢٣.
٩- طورسون بك، تاريخ ابو الفتوح، استانبول، ١٣٢٠ هـ، ص ١٦٥ .
10- Fuadunanمرجع سابق،s.239 .
١١- قرطق زاده، تاريخ محمد الفاتح، استانبول، ١٣٢٩ هـ، ص ٥٦ .
١٢- عاشق زاده، مصدر سابق، ص ٧ .
١٣- لطفي باشا، مصدر سابق، ص ٢٠٠ .
14-Ahmet adivar.Osmanli Turk lerindeilim. Istanbul 1959 . s. 179.
١٥- خوجه زاده، التهافت، استانبول، ١٩٤٦ م، ص ٥٨٧ .
١٦- المصدر السابق، ص ٢٦٠ .
١٧- المصدر السابق، ص ٢٦٣ .
١٨-علاء الدين توسي، تهافت الفلاسفة، استانبول، ١٣٢٩ هـ، ص ٦٩ .
١٩- المصدر السابق، ص ٧٢ .
٢٠- المصدر السابق، ص ٧٤ .
٢١- المصدر السابق، ص ٨٠ .
٢٢- خواجه زاده، التهافت، مصدر سابق، ص ٢٩٠ .
٢٣- قرطق زاده، مصدر سابق، ٢٦٠ .
٢٤- علاء الدين توسى، مصدر سابق، ص ٨٥ .

٢٥- كاتب جلبي وإحسان الهداية، مصدر سابق، ص ٢١٣.
٢٦- خوجه زاده، التهافت، ص ٢٨٠ .
٢٧- كاتب جلبي، المصدر السابق، ص ٢٤٥ .
٢٨- رجائي بك أوغلو، الفكر العربي وتأثيراته، بيروت، ١٩٣٦م، ص ١١١.
٢٩- المرجع السابق نفسه، ص ١٥٤.
٣٠- عبد الله العزباوي، الفكر المصري في القرن الثامن عشر بين الجمود والتجديد، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص ١٨٤.
٣١- المرجع السابق نفسه، ص ١٨٥.

مراجع تم إستشارتها:

١- تاريخ الدولة العليّة العثمانية، تأليف: الأستاذ محمد فريد بك المحامي، تحقيق: الدكتور إحسان حقي، دار النفائس، الطبعة العاشرة القاهرة : ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م.

٢- شفيق جحا، منير البعلبكي، بهيج عثمان، المصور في التاريخ، الجزء السادس، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٩٨.

٣- عبد الرؤوف سنّو: العلاقات الروسية العثمانية: مجلة تاريخ العرب والعالم، العددان ٧٧-٧٨، آذار-نيسان، بيروت ١٩٨٥.

٤- ابن اياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج ٤ . القاهرة ١٩٨٤ .

٥- عبد العزيز سليمان نوار، الشعوب الإسلامية، دار المعارف،القاهرة ١٩٨٠.

٦- ألماظ أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، مؤسسة فيصل للتمويل، إستانبول ١٩٨٨م.

٧- عبد العزيز محمد الشناوي: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، الجزء الرابع، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٨٤م.

٨- محمد حرب: العثمانيون في التاريخ والحضارة، ط1 دار القلم، دمشق ١٩٨٩م.

٩- محمد جميل بيهم: فلسفة التاريخ العثماني ج 2، بيروت، ١٩٥٤.

١٠- مذكرات الأميرة عائشة عثمان أوغلي: تعريب صالح سعداوي صالح، دار البشير، ط١، عمّان ١٩٩١م.

١١- فالح عبد الجبار: المادية والفكر الديني المعاصر، نظرة نقدية، بيروت، مركز الأبحاث والدراسات الإشتراكية في الوطن العربي) ط١، عام ١٩٨٥م.

١٢- منير محمد نجيب: الحركات القومية الحديثة في ميزان الإسلام، مكة المكرمة، مكتبة الحرمين، ط. ١، عام ١٩٨١م.

١٣- ابراهيم خليل أحمد، تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني ١٥١٦-١٩١٦، الموصل، وزارة التعليم العالي- جامعة الموصل ١٩٩٥م.

١٤- كارل بروكلمان تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير بعلبكي، بيروت، دار العلم للملايين، ط ٨، ١٩٨١م.

١٥- أنور عبدالملك: المجتمع المصري والجيش، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر ١٩٧٠م.

١٦- علاء موسى كاظم: لمحات من التاريخ العربي المعاصر، بغداد، دار الحرية للطباعة، عام ١٩٨٤م.

١٧- سيار الجميل: العرب والأتراك الإنبعاث والتحديث من العثمنة إلى العلمنة،بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٩٧م.

١٨- عبد الرحمن بن خلدون: مقدمة ابن خلدون نبيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٢م.

تجربة سليمان باشا الباروني الشعرية والتاريخية

د. إبراهيم محمد أبوعلوش

أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية

كلية الآداب والعلوم الإنسانية-

جامعة آل البيت، الأردن

المقدمة:

كان سليمان بن عبد الله بن يحيى الباروني[١] شخصية أدبية وتاريخية وسياسية متميزة، إذ امتزج بالحياة الثقافية والعقلية في عصره، وأفاد من الحركة الأدبية والفكرية في غيرِ بلدٍ سافرَ إليه، فتوثقت صلته بالعلماء، وتعددت مواهبه وجوانب نبوغه في الشعر والأدب والتاريخ والسياسة والصحافة، فاستأهل أنْ تدرس تجربته وتسلط الأضواء على أبعادها المختلفة.

ولد سنة ١٨٧٣م، في مدينة" جادو"(وتعني الأرض كثيرة التراب) حاضرة متصرفية" فساطو" من جبل نفوسة طرابلس الغرب بليبيا، ويرجع أصله إلى العائلة البارونية ذات الأصل العماني من الجبل الأخضر[٢] وقيل هي أسرة بربرية ذات جاه ونفوذ[٣] . وجاء في مقدمة إبراهيم طفيش لكتاب (حياة سليمان باشا - زعيم المجاهدين الطرابلسيين، تأليف أبو القاسم الباروني) أنَّه من الأرومات العربية العثمانية (البروانية)[٤].

رحل صغيراً إلى تونس طلباً للعلم وعمره ١٤سنة، ليلتحق بجامع الزيتونة، ثم ارتحل الى مصر سنة١٨٩٧م، وجاور بالجامع الأزهر نحو

ثلاث سنين، وعام ١٨٩٥م شدّ الرحال إلى الجزائر وأقام ثلاث سنين أيضاً، وتلقى العلم عن الشيخ محمد بن يوسف اطفيش الميزابي (١٨١٨-١٩١٤م) مرجع الإباضية في العلم الشرعي واللغوي[٥] .

وهو فقيه طرابلسي إباضي ورجل سياسة ألهب عرب بلاده في نضالهم مع إيطاليا. وكان أبوه عبدالله الباروني متكلماً و فقيهاً و شاعراً تولى التدريس في زاوية البخابخة بالقرب من يفرن[٦]، سافر سليمان إلى مصر عام (١٣٢٤هـ/١٩٠٦م)، ودرس في الأزهر الشريف، وأثناء هذه المرحلة من دراسته تمكن من الاطلاع على كل مناحي التجديد في مصر، وتأثر بمفكريها، وعقد صلات حميمة مع مشاهير أعلام ذلك المجتمع، وفي طليعتهم العلماء والأدباء المبرزون مثل الشيخ "طنطاوي جوهري"، و"مصطفى لطفي المنفلوطي"، و"إسماعيل صبري"، و"إمام العبد"، و"زينب فواز" و"برنس القبطي" و "الشيخ حسين المحلاوي"[٧] .

ولما عاد إلى ليبيا مارس دوره شيخاً ومفكراً ومؤلفاً لم تفته حلقة علم أو ندوة إلا وأدلى بدلوه المتعلق بقيم الفكر النير. فهل كان الباروني مفكراً فحسب أم كان أديباً فحسب أم أنه الأديب الشاعر المؤرخ.

وله ديوان شعر طبع غير مرة[٨]، حج سنة ١٩٢٤م، وزار بغداد سنة ١٩٣٥م، وكانت له محاورات مع أدبائها، واتخذه السلطان سعيد الثالث بن تيمور مستشاراً له سنة ١٩٣٥م[٩] .، سافر إلى الهند مستشفياً فتوفي في بومباي في الأول من مايو سنة ١٩٤٠م، وله فيه يوم لا غير، أي بعد يوم من وصوله [١٠]. وفي هذه الدراسة سنلقي الأضواء على أبعاد مختلفة لشخصية سليمان باشا الباروني: مؤرخا، وصحفياً، وشاعراً، وسياسياً، ومصلحاً اجتماعياً، بمنهج تاريخي وصفي نقدي يقوم على استقراء النصوص

ونقدها وتحليلها، لتبيان دوره الريادي في بثِّ الطروحات الفكرية والأدبية النيرة التي سبق بها زمانه، وبذ أقرانه.

أولاً: الباروني وكتابة التاريخ:

ارتحل إلى الجزائر لدراسة المذهب الإباضي (مذهب معظم الشعب الأمازيغي) في الجزائر مدة أكثر من ثلاث سنوات، وله مصنف تاريخي ثابت النسبة له (الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية)، ويقع في جزءين، اِحترق الجزء الأوّل، ولم يبق إلا الجزء الثاني الذي طُبع، وهو كتاب في تاريخ الدولة الرستمية تحدث فيه عن أعلام الإباضية ووصفهم في مقدمة كتابه ب" عمالقة الرجال، وأبطال في مختلف شؤون الحياة، وهي شخصيات تميزت بقوة إيمانها، والاعتزاز بدينها، والإخلاص لرسالتها"[١١].

وأمَّا كتاب (**مختصر تاريخ الإباضية**): فلم تتأكد نسبته القطعية له، وإنَّما نسب له ولأبي الربيع سليمان الباروني(١٨٩٢-١٩٦٢م) وهو زوج ابنته زعيمة لفترة قصيرة في أول حياتها، ومما يزيد الشك في هذا أنَّ مصنِّفَه ذكر في خاتمته، أنَّه فرغ من جمعه عام١٩٣٦م ولم يقل أنهى كتابته وتأليفه، وأذن بطبعه ثانية للمرة الثانية بعد إقامة مظاهره ضده عام ١٩٣٩م، والذي نميل إليه أنَّه لسليمان باشا، ألفه في مرحلة مبكرة، متأثراً بمنهج والده عبد الله في "سلم العامة والمبتدئين في معرفة أئمة الدين"، وأنَّ صهره أبا الربيع جمعه عام١٩٣٦م، أيام إقامة سليمان باشا في عُمَان، في الفترة التي ألمَّ به المرض فيها.

وقال في مقدمته مروجاً لمذهبه ومدافعاً عنه أنَّه جمع فيه ما لا بدَّ لكل مسلم من معرفته من التاريخ، وذهب إلى أنه جلَّى حقائق خفية، ودعا فيه إلى توحيد المذاهب الإسلامية, وإلى دراسة تاريخ الإسلام دراسة وافية، لكي يقف الدارسون المصلحون على خلافات أهل القِبلَة، فيعملوا على إزالتها أو

تهوينها، ويقفوا أمام غارات المبشرين، وهجمات الساسة الغربيين في سعيهم لإضعاف المسلمين، ودفع بعض الشبهات قال إنها تلصق بمذهبه الإباضي، وقال ببراءتهم منها؛ لأنها أفكار الغالين من الأزارقة والنجدية والصفرية. وكان يتمنى في مصنفه أن يزول الخلاف بين المسلمين، أو على الأقل يتلطف ويخف، وتظهر عاطفته الدينية بجلاء في مصنفه، وتبرز قدراته التحليلية المعمقة للأحداث أحياناً وتخبو في أحايين أخرى؛ لتبرز تفسيراته الحماسية الناقدة، ويغلب على منهجه التاريخي الأسلوب الوصفي، وعلى ملاحظاته التعميم.

ابتدأ مصنفه بسيرة الرسول ﷺ، ولفت إلى أنَّه ﷺ بقي خمسة وعشرين عاماً متزوجاً بخديجة وفياً حسن المعشر، لم تطمح نفسه إلى غيرها من النساء الشابات الجميلات، وهو في سن فيها دم الشباب يفور ويثور، ليتأكد لنا أنَّ زواجه بغيرها لم يكن إلاَّ لحكم مهمة عامة تصدى لبيانها وعلة مشروعيتها جماعة من كبار المحققين في هذا العصر، دفعاً لشبهات طالما ذكرها المستشرقون وبعض النقاد المضللون، ثم ثنى بالخلفاء الراشدين، وعطف على الأمويين، وانتهى إلى ظهور المذهب الإباضي في القرن الأول من الهجرة على يد جابر بن زيد الأزدي(٢٢-٩٣هـ)الذي كان كثير المناظرة للخوارج، والجدير بالذكر أنهم نُسِبوا إلى أحد رجالهم المشهورين عبد الله بن أباض التميمي المري نسبة غير قياسية(١٢).

وتحدث عن أشهر أئمة المذهب، وأماكن وجود أتباعه في هذا العصر في شمال إفريقيا في جبل نفوسة وزواره من طرابلس، وجزيرة جربة في تونس، وهم _على حد قوله_ ليسوا كأسلافهم فى تطبيق تعاليم الدين، أما أهل عُمان ووادي ميزاب بالجزائر، فإنهم ما زالوا على ما يرضي الله ورسوله، وذكر أماكن أخرى لوجود أتباع المذهب كزنجبار ودار السلام في شرق

إفريقيا، وذكر أنه توجد جمهورية صغيرة ببلاد القوقاز أهلها إباضية، لكنه لم يسمها[١٣].

وطوف بتاريخ الإباضية في المغرب, وفصل في سير أشهر أئمتهم، ثم عرض لأصل عائلته وبعض أمرائها، وفصَّل في تاريخ عمان وانتشار المذهب بها، مستعيناً بما كتبه الشيخ محمد بن صالح بن عامر الطيواني في مجلة المنهاج، ثم أنهى مختصره بذكر أهم المسائل الخلافية بين الإباضية والمذاهب الأربعة، وما يفعله الإباضية مع مخالفيهم من المسلمين[١٤].

وله تعقيبات وتعليقات وحواشٍ مفيدة على كتاب والده في التاريخ (**سلم العامة والمبتدئين في معرفة أئمة الدين**)[١٥]، أشبه ما تكون بعمل المحقق الأمين، إذ وثَّق في الحواشي كثيراً من الأحاديث والأخبار من كتب أهل العلم، وأوضح بعض المصطلحات، وعرَّف بالأماكن والمدن والوقائع، وله إحالات كثيرة إلى كتابه الأزهار. وموضوع الرسالة الحديث عن نشأة الإباضية، وانتشارها في ممالك المشرق والمغرب، وذكر أئمتها، وسلسلة إسناد المذهب، وفضائل البربر وغيرها .

وكان يعُد المادّة العلمية لكتاب عنوانه: (**تاريخ الحرب في طرابلس الغرب**) غير أنه لم يتمّه[١٦]. وقد نشر معاصره وصديقه اليوزباشي محمد إبراهيم لطفي المصري كتاباً بالاسم نفسه، وصدر من مطبعة مؤسسة الأمير فاروق بمصر سنة ١٩٤٦م، وقد جمعت أوراقه ابنته زعيمة ونشرته بعنوان "صفحات خالدة من تاريخ الجهاد الليبي، د.ت، في جزءين.

ولسليمان مؤلَّف في تاريخ أسرته، عنوانه: "**مختصر تاريخ العائلة البارونية**" (مخطوط). وفي هذا الكتاب يتحدث عن تاريخ السلالة البارونية ويرجع نسبه إلى جد عربي، وكان عندما يراسل الشخصيات الأجنبية إيطالية وغير إيطالية يرفق نسخة من هذا الكتاب مع رسائله معلقاً بقوله:" :

"وستجدون فيه أن عائلتي استوطنت هـذه الأرض منذ أكثر من ألف سنة"(١٧).

وكتب الباروني باشا كتاباً بعنوان: (**الرد على شكيب أرسلان**)، تصدى فيه لآراء أرسلان لما شكك في عروبة المغرب، إذ شكك الأمير شكيب في عروبة المغرب العربي في مقالة فحواها أن: المغرب لا يفرق بين العربي والمسلم، وأن لا جدوى من المغرب لأنه إسلامي أكثر مما هو عربي، ففند الباروني آراءه، ونافح عن عروبة المغرب ببلاغة وحماس تفوق حماس رواد القومية العربية كساطع الحصري وميشيل عفلق، وزكي الأرسوزي، وذلك على حد قول الأديب والمناضل الأمازيغي سعيد سيفاو المحروق (١٩٤٦-١٩٩٤م) في الكتاب الأسود وهي رسالته إلى العقيد معمر القذافي، وقد اغتيل سعيد بسببها(١٨).

ورسمت قصائده- كما ذكرت ابنته زعيمة- صورة متسلسلة لمراحل حياته بحلوها ومرها، ويُعدُّ شعره تسجيلاً تاريخياً صادقاً للحقائق والأحداث التي عاصرها(١٩). فقد ذكر في أشعاره وقائع كثيرة في عصره، أهمها أعمال السلطان عبد الحميد ودوره في حفظ الحضارة الإسلامية والذود عن حياض المقدسات وعلى رأسها قبر الرسول الكريم محمدﷺ، وكذلك أشاد بمآثره في بناء المدارس تقرباً إلى الله تعالى، بعد أن ساد الجهل، ولم تبق قيمة للعلوم والمعارف عند الناس، فخربت معاهد العلم، وتلاشت أوقافها، وأصبح كثير من العامة يجهل أنَّ إحياءها قربة إلى الله تعالى، وكذلك أرَّخَ في حواشي ديوانه لبناء سكة الحديد الحجازية، التي حيرت دول أوروبا وأدهشتها، آنذاك ووصلت المدينة المنورة في شعبان سنة ١٣٢٦ه، والتي أُنفق في سبيلها المال والجهد، واحتيج إلى خرق الجبال لمد قضبانها في بعض الأماكن والبلدان، وكذلك تسجيله لإنجازات السلطان عبدالمجيد في مد خطوط الأسلاك

التلغرافية في كثير من أنحاء بلاد الخلافة العثمانية، وإشارته لاستخدام التلغراف الهوائي (اللاسلكي) في بعض المناطق كدرنة، وجزيرة (رودس).

كذلك ذكر أنَّ دولة الخلافة العثمانية بسطت نفوذها على رقعة واسعة من الدنيا، وخضعت لها شعوب وأقوام مختلفة، وسجل دور مدرسة الباروني التي أنشئت سنة ١٢١٣ه، على يد أبى الهول اليفرني، ثم أخنى عليها الدهر وتداعت للخراب والتلاشي بعد وفاته، وتشتت أوقافها في تونس بالبيع خصوصاً على أثر دخول فرنسا، فأعاد سليمان الباروني وأبوه عبد الله تجديدها، فعاد ألقها في خدمة الدين ونشر العلم، وجاء ذلك كله في قصيدة له في مدح السلطان عبدالحميد يقول فيها:

ظهرتْ محاسنُ ذا الزمانِ فقابلتْ ... بالبشر والإقبال والخير المزيدْ
إذ عاد تشييدُ المدارسِ قربةً ... في ظل سلطان الورى عبدا لحميد
أَسَدُ الملوكِ به المشارقُ أشرقتْ ... وبه المغاربُ حفَّها الرعبُ الشديد
نشرَ المعارفَ والعلوم وبثَّها ... بمدارسٍ عُليا بها الدنيا تميد
خرقَ الجبالَ بنى القلاعَ وشادها ... ملأَ البحارَ بآلة الحربِ الجديد
لولاه ما عُرِتْ مدارسُ طالما ... هُجِرَتْ فنوَّرَ ليلَها للمستفيد
مدَّ الخيوط وفي الشطوط موجهاً ... نحو الحجاز مراكب الخط الحديد
كل الأنام على اختلاف شعوبها ... خضعت لدولته ودانت من بعيد
فيه استقام لنا بشامل عدله ... تجديد مدرسة لها عمر جديد
خدمتك مدرسة البروني إذ غدت ... تشدو بنصرك في مصادمة العنيد
لولاه ما حفظت لطيبة روضة ... كلا ولا كانت حضارتكم تزيد[٢٠]

ويتذكر أحداث التاريخ المضيئة إبرازاً للاتصال الوثيق بين الماضي والحاضر، ولاستلهام الدروس والعبر، واستئناف حمل المسؤولية بأمانة

واقتدار وتسامح، ولا يخفى على المدقق قناعاته المذهبية التاريخية، يقول من قصيدة ألقاها بجامع نزوى:

وبدت لعصر الراشدين دلائل　　إذ لاح من جبل الشراة سناء
فأضاء واسطة البلاد وأشرقت　　بعُمان شمس أمانة سمحاء[٢١]

فهل صح لنا أنَّ شعر الباروني وثيقة تاريخية تكشف عن الوقائع المدروسة، إذ كل نص إبداعي له بعد تاريخي، وهذا التعالق بينهما محوره الإنسان والزمن. فالشعر فن يجادل زمنه، والتاريخ علم، ولا تاريخ بدون زمن. ولكن من منع الباروني وهو يكتب التاريخ أن يكتب بلغة الشعر؟ وهل المؤرخ الشاعر: مؤرخ أم شاعر، أم إنَّه كلاهما ؟ لأنَّ الشعر والتاريخ يشتركان في قدر من التخيل والسرد والتعالق بالواقع عبر صياغة لوقائع إنسانية داخل بناء منتظم مكاناً وزماناً ونظاماً. وبالتالي كل مرحلة تاريخية قد تجد من يرى نظامها محصلة البطولة الإنسانية وأقرب الأحوال إلى الكمال.

ثانياً: الباروني مفكراً وصحفياً:

كان الباروني من الرواد الأوائل الذين أدركوا أهميـة الـصحافة فـي التنوير، إلى جانب المدارس والمطابع. فأعاد – مع والده– تجديد المدرسـة البارونية بمدينة يفرن بليبيا، وأسس مطبعة الأزهار البارونية بمـصر عـام ١٩٠٦م، وأصدر جريدة (الأسد الإسلامي) في مصر عـام ١٩٠٧، وكـان يطبعها في مطبعته, وأنشأ جريدة " الباروني" باسطنبول، وخصَّصها للقضية الليبية عام ١٣٣١ه/١٩١٣م . ونشر مقالاته في جرائـد كبـرى مـصرية وجزائرية، وخاصَّة في جرائد صديقه الصحفي الجزائـري أبـي اليقظـان (إبراهيم بن عيسى) كالأمة، والنور، والبصائر، ووادي ميـزاب، وجريـدة

الحياة (التي أنشأها باسعيد عدوان) إذ له فيها جميعها مقالات وطنية نارية، ضمنها أشعاره، وكان يرد عبر صفحاتها على بعض الجرائد العمانية، مثل الفلق[٢٢].

وكانت له حوارات ساخنة مع الكاتب والأديب والمفكر اللبناني شكيب أرسلان(١٨٦٩-١٩٤٦م)، حول قضايا العالم الإسلامي في عصره، نشرت في الصحف العَرَبِيَّة آنذاك، كاختلافهما حول انضمام الدول المغاربية غير المستقلة -آنذاك -إلى فكرة اتحاد الجامعة العربية[٢٣].

ونشر أفكاره الإصلاحية في الدين والسياسة، حول مفهوم الجامعة الإسلامية وعوائق ظهورها. واطلع على الثقافة الفرنسية، وله مقالات، وخطب دينية وسياسية، منشورة في جرائد البلدان التي ارتحل إليها. وفكره مستنير، وهو ربعة في جسده، لكنه كبير في عقله وفكره، عدَّه كثيرون من عظماء عصره، إذ قدم إطاراً إسلامياً للفكر المعاصر من خلال مقاومته للغزو الاستعماري العسكري، وتنبيهه لتحديات الغزو الفكري، ودعوته للوقوف في وجه محاولات تزييف التاريخ الإسلامي، وطعن رموزه، ودعا إلى إنشاء حزب الدفاع عن الدين، وعبر عن رؤيته للوطن الحلم.

جمع بين عمق القضايا الفكرية وإيحائية الأدب, من يقرأ الباروني يلفته بعدان في نتاجه: فكري وأدبي، وقد نجح في تحقيق أدبية ما هو فكري، وفكرية ما هو أدبي. فالعلاقة بين الفكر والأدب وثيقة، ويتأثر أحدهما بالآخر، لارتباطهما الكبير. وتكشف كتاباته الأفكار التي عالجها في نتاجه على المستوى الفقهي والديني والتاريخي والسياسي والوطني. واستعان الباروني المفكر الإصلاحي بالشعر أسلوباً في التعليم ونشر الأفكار، وكان يؤمن أن الشاعر يخلق باللغة في ميدان الثقافة، معادلاً لما يخلقه الثائر بالعمل في ميدان الحرب[٢٤].

انتشل الحقيقة من بين أنقاض الماضي العريق من خلال أعماله، وأيضاً من خلال فكره الذي جال في كل الألوان الأدبية والتاريخية، واستنطق في مشاريعه الفكرية النهضوية قبسات من العلم والفلسفة العميقة، في سياق يجذب المتلقي إلى ضرام عوالم هذه التجربة، التي تشكل قيمة مركزية في كتابات الباروني الذي عدَّه علي يحيى معمرّ من عظماء ليبيا في عصره، وذهب به إعجابه به إلى الغلو حين قال عنه إنّه:" كان من أفذاذ العالم، لم يعرف التاريخ المعاصر من حارب الباطل بإخلاص كإخلاصه، حارب الباطل في جميع صوره وأشكاله، سواء ما ورد منه من منع الجيوش الاستعمارية الغازية أو ما دُسَّ في الفكر والعلم المنحرف، وقد وقف في الميدان كما يقف المارد الجبار، يَدْفَعُ عن الحمى ضرباتِ المَدَافِع، ويرد جيوش العدو المتعاقبة، ويقود الجنود البواسل من أبناء الوطن. وقد استطاع أن ينير الطريق بفكره النير لعصبة الأمم، فأعجبت بآرائه، ولكن غلبتها شهوة الاستعمار فلم تنفذها، وجاءت اليوم هيئة الأمم المتحدة فوصلت إلى ما دعا إليه من قبل، وأصبحت قضية تصفية الاستعمار من أمجد الأعمال التي قامت بها هيئة الأمم، ولو استمع العالم إلى الباروني لانتهى من مشكلاته، واتجهت جهوده إلى معالجة أخرى. لقد شغل الباروني فكر العالم مدة من الزمن، كانت الدول تنظر إليه بإعجاب فاغرة الأفواه، ولقد مرت فترة من التاريخ لا تخرج منه جريدة في أنحاء العالم ليس فيها خبر عنه أو منه، وليست هذه الشهرة قاصرة على الميدان السياسي أو العسكري، وإنما تشمل جميع ميادين الإصلاح"[٢٤].اللغة في ميدان الثقافة، معادلاً لما يخلقه الثائر بالعمل في ميدان الحرب[٢٥]

وقدم الباروني إطاراً إسلامياً للفكر المعاصر، من خلال مقاومته للغزو الاستعماري العسكري، وتنبيهه لتحديات الغزو الاستعماري الفكري، ودعوته

للوقوف في وجه المذاهب والإيديولوجيات الاستعمارية التي ترنو إلى تغيير العقلية الإسلامية، وضربها من الداخل، بمعاول تزييف التاريخ الإسلامي، وطعن رموزه، والتغريب، والانهزامية، والتبعية، وفرض مقاييس منحرفة في البطولة والفن والموت، وهي تحديات في وجه أصالة الثقافة الإسلامية، لا يدفعها إلا بناء ذاتية إسلامية قادرة على مجابهة الأخطار من خلال فهم روح الإسلام في بناء العقيدة وترسم منهج الحياة، ومن خلال حمل الأمانة في تربية أجيال متعلمة، ومثقفة، ومؤهلة للقيادة، تجاري الغرب في منجزاته العلمية والحضارية وتلحق به، وتجتمع على كلمة سواء، وتتكامل في شرق وغرب لتنهض وتنتصر .

سليمان الباروني المفكر وقضايا أمته:

عالج في كتاباته شعراً ونثراً كثيراً من موضوعات عصره، وعرض لما يشغل الأمة والناس من قضايا سياسية واجتماعية، فأدلى فيها بدلوه، ووقف منها مواقف وطنية صادقة. ولم يكن له أن يغفل عن مشكلة فلسطين، وهي إذ ذاك في احتدامها، فكتب في عام ١٩٣٢ إلى " لجنة نزع السلاح في عصبة الأمم": " وبمناسبة ما يجري من الفظائع المؤلمة في فلسطين المظلومة، المنكوبة بالصهيونية، تلك الفجائع التي هزّت العالم الإسلامي أجمع، أرجو – باسم السلم العام – من مجلسكم الموقر، إعادة النظر في رسائلي المقدمة إليكم في تاريخ..."وكل محب للسلم يؤمل أن توفقوا بحكمتكم إلى أن تعاد لفلسطين حقوقها المهضومة، فتسكن العاصفة، فإنَّ الصهيونيين – ولو بلغوا الملايين– لا يستطيعون أن يحموا أنفسهم في فلسطين، فضلاً عن أن يحموا السكة الحديدية، والمطارات، وأنابيب البترول، إذا انفجر بركان حرب عامة"[٢٦].

وأخذ الباروني صورة من صور التحدي للموقف الحضاري الذي يريد مسخ الحضارة الإسلامية وإلحاقها بحضارات ما وراء البحار، ويمثل شعره فيما يمثله القيم الإسلامية والدفاع عن الفكرة، وبث الروح الإسلامية كجبهة صراع فكري حقيقية مثلها مثل أي جبهة صراع أخرى.

وفي قصيدته (قم يا محمد)التي نشرها في صحيفته" الأسد الاسلامي" في ذكرى المولد النبوي يرثي الواقع الإسلامي، المتمظهر في شيوع الجهل واستفحال أمره ورواج الخمر و الزنا والربا، وغياب مظاهر الالتزام الديني الأساسية بانحسار الصلاة والصوم والحج، وفقدان الأمة بوصلتها، فلا أمر بالمعروف ولا نهي عن المنكر، وفي وصفه لأحوال المسلمين العجيبة في دولة الرجل المريض، دعوة ضمنية لنفض غبار التردي السياسي والفكري والاجتماعي والاقتصادي، ومناشدة

للعلماء أن يأخذوا دورهم في التنوير والتوجيه والإصلاح، وهو بذا يوجه مسار الفكر في دائرة ثقافة هادفة وفاعلة، وفيها يقول:

قم يا " محمد " يا ختام المرسلين ... وانظر بعينك كيف حال المؤمنين
تجد الأمور تحولت عن حالها ... والدين في عهد السياسة قد أهين
حل (الحرام) بلا نصوص تقتفى ... واستهزأ العاصي بحال المتقين
واستفحل الجهال واشتد البلا ... واستصغر العلاء حزب الأميين
(الخمر) في سوق التجارة رائج ... أمَّا الخنا فغدا شعار العالمين
عِيبَ امرؤ قال(الصلاة) فريضة ... (والصوم) ضاع وحرم الحج الثمين
هذا (الزنا) أبوابه مفتوحة ... أما (الربا) فتجارة المستسعدين
آهٍ بمولدك الشريف تنوعت ... طرق المعاصي في بلاد المسلمين
لا نهي بل لا أمر بل لا منتهى ... حار الدليل وغار حزم المرشدين
من ذا لدينك يا " محمد " بعد ذا ... والله أسدى أجره للمحسنين

فليبذل الجهد العظيم مؤدياً حقاً لينصر في دفاع المجرمين[٢٧]

وحيث تلتهب القضايا الكبرى على شفاه المخلوقات التي أبكمها الواقع وكبلها بقيود السكينة النائمة، تبوح الآن خارج عوالم الذات وتتدفق ألسنتها شلالاً، يحركه الشاعر وينثر منه علامات من فوق علامات الاستفهام، بأجوبة ينير بها البصيرة، ويروي بها حقول الصمت بقداسة الحقيقة، فيغسل الحب والوئام مسام النفوس، وتقبض المخلوقات العاقلة على خيط البشارة، رغم سوأة هم الغربة الذي يسلط الضوء على بعض الأوراق الأكثر ملامسة للواقع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، فحين يحمل الهم ضده معه، تنفجر فلسفة المؤلف وهي تحمل في ثناياها كثيراً من الأصناف التقابلية المعززة بأمثلة ظاهرية وأخرى باطنية، تنهل من الأسباب المثلى، وترتقي بالحلول إلى أبعد الغايات وأيضا إلى وجهات أكثر واقعية، تخاطب العقل بقدرة على إحداث خط تواصلي بين التنظير والتطبيق والذي يتعلق لدى المؤلف بمشاريع كبرى من شأنها تصحيح مسار تجمع بشري منظم سياسياً واقتصادياً واجتماعياً، له عراقته التاريخية، وله ثقافته وعلائقه بمحيطه الصغير والكبير.

وارتبط شعره بالعقيدة، مخالفاً التصور الفكريّ الغربيّ بأن الدين ليس له حق في رسم الحياة والتفكير من خلال مغيبات تنطلق من رحم الدين؛ لقدرته على حسم النزاع الفكري الذي تخلفه في الناس الأطروحات المذهبية الأخرى حول المبادئ العامة للحياة والقيم الكبرى التي تقودها، وتتساوق في الإسلام حركة الشعر والفكر بحيث يلتحمان معاً، فيعبر الشاعر المسلم عن روح الالتزام بالإسلام وتعاليمه التزاماً حقيقياً نابعاً من شعور ديني، لا تفرضه عليه سلطة أدبية أو سياسية، أو دينية مؤسساتية، بل بمحض إرادته

يرى نفسه ملتزماً بالإسلام فكراً وأدباً وشعوراً وسلوكاً، فتتمثل في أدبه كل الملامح الإسلامية الراقية، ليخرج إلى الحياة لبنة صالحة تدعم وجود الإسلام فكراً ومنهجاً على أرض الواقع. فآمن أنَّ ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وانَّ الذي يجب أن يتصدر للقيادة والسياسة أولو العزم، الذين توافق أعمالهم أقوالهم، وعلى القوالين أن يفسحوا المجال للعاملين، لأنَّ الأمة أحوج إلى الفعَّال منها إلى القوَّال، يقول:

ما لا تتم الواجبات بغيره حقٌّ اتفاقاً والأصول بذا حكم

ولمثل ذا فليعمل الأقوام أو فليفسحوا عند الزحام لمن عزم

فالفخر فعل لا مقال فكاهة والدين بالأفعال والأقوال تَم[٢٨]

ويرى الباروني أنَّ ما يكتبه المرء عنوان عنه ودليـل عليـه[٢٩]، وأنَّ الرجال يعرفون بالحق، ولا يعرف الحق بالرجـال[٣٠]. ويـؤمن أنَّ واقـع الأحداث في العالم، ومنطق الاستقراء السليم لسيرورة التاريخ، في تجاذبـات الحضارات وصراعاتها، تقوم على القوة والمغالبة لفرض الآراء، واستحواذ الخيرات، والتحكم بزمام المبادرات، أو على الأقل في دفع العدوان، وحماية الأوطان، يقول:

ومن لم يذدْ عن حوضه بسيوفه يهدَّمْ مقالٌ صاغه من تَقدَّما[٣١]

وللباروني قصيدة بعنوان(لكم الطنافس ولي السيوف)نظمها أثناء إقامته في فرنسا أرسلها إلى صديقه المقرب جداً إليه أبو اليقظان الجزائري، ويشهد لأهل الحضور في التاريخ، إذ يكشف الشاعر تاريخياً عما وراء الحجب، حتى تعتقده التاريخ والتاريخ هو، وفي ذلك يقول:

هي النوائب لي فلا أرضى بها للخاملين

العاكفين على اللذائد في رضاء المشركين

لهم الطنافس والتنافس بالغواني والبنين
ولهم معاقرة الخمور ونقْض غَزْل المسلمين
ولهم بلا حد من الأعداء ما للخائنين
ولي التغريب في البحار وفي البراري بالسنين
ولي الجيوب الخاويات مع الكفوف الطاهرين
ولي التباهي بالوقائع في كفاح الغاصبين
ولي السيوف المرهفات الماحيات لكل شين
ولي الجياد الصافنات الصائلات على الدفين
العاديات الموريات الغائرات على الكمين
الجادبات الشاطحات لدى اقتفاء الهاربين
هذا الفخار ولا فخار بغيره في كل دين
فلينهض الأحرار إن راموا نجاة المؤمنين
فمحمد فخر العوالم يستعين ولا معين(٣٢)

فيكشف في مفارقة عجيبة ضنك أحوال الأحرار وما ينتابهم من معوقات التآمر ونوائب الدهر وصروفه فقراً، وتغريباً، ونفياً، وما يلاقونه من مشاق الكفاح في الصحارى والبحار، في مقابل رفاه المرتمين في أحضان الأعداء، المنعمين في القصور على الآرائك، مع الغواني والخمور الذين يعملون على إضعاف صفوف الأمة، ونقض عرى وحدتها، مقابل لذاتهم ليرضى عنهم الأعداء.

- **جريدة الأسد الإسلامي :**

كانت تعنى بالقضية الإسلامية وفكرة الجامعة الإسلامية، فهي من صحف الأفكار والمبادئ والعقيدة لا من صحف الأخبار والأنباء، وهي

جريدة دينية سياسية أدبية أسبوعية، واتخذ سليمان الباروني لجريدته شعاراً قوله عز من قائل:﴿ **وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا** ﴾ **(الإسراء:٨١)** وكان كريماً يرسلها بنصف القيمة لمؤيدي الجوامع وتلامذة المدارس وطلبة العلم بالأزهر الشريف وغيره من المعاهد العلمية، وجامع الزيتونة بتونس. وعُلِقَ عليه آمالاً كباراً في النهضة الفكرية. ولعل سليمان الباروني أولُ ليبي ينشئ مطبعة خارج بلده، أو لعله أول ليبي يكون مطبعة بمفرده. وجريدته كانت ذات أربع صفحات، كل صفحة ملؤها خمسة أنهر من الكلام المتدفق الرقراق، فهو كاتب مسترسل، يندفع معبراً عن عقيدته بالقلم، ومن وراء القلم عقيدة وفكرة.

وحرر جريدته بأسلوب سهل بعيد عن التكلف ونبرات السجع وأشواكه، سطر مقالاتها ببيان واضح ولم يلجأ إلى الزخرفة والهلهلة، فهو يكتب في ذلك موضحاً طريقته في الكتابة الصحفية ومنهاج أسلوبه في الجريدة :"عزمنا على تحريره بكيفية سهلة المأخذ تناسب المقام، فلا علينا إنْ لم نتفنن في أساليب البلاغة ولم نأت من الألفاظ اللغوية بما يعجز العالم فضلاً عن الجاهل ويحتاج إلى مراجعة القاموس. وإلا كانت خدمتنا خاصة باستخدامنا قرائحنا، وتعليمنا أنفسنا أساليب التحرير، وكانت الفائدة المقصودة ضائعة وهي إرشاد العامة. نعم، فسنستعمل في ذلك طريقاً يدرب المشتركين شيئا فشيئا على التدرج حتى يألفوا الأمر "(٣٣).

وعندما وصلته الاحتجاجات على إصداره جريدة ضحك الباروني لأنه كان رجلاً تقدمياً حر الفكر، جمع بين ثقافة القديم وثقافة الحديث، وسافر وارتحل واشتغل بالسياسة والأدب، وشارك في الحروب والجهاد، فهو نموذج لشخصية متعددة الجوانب ؛ لهذا رد على هؤلاء الثائرين من اشتغاله بالصحافة، رد عليهم في رفق ولين وأناة، مدافعاً عن الصحافة وموضحاً

رسالتها في تنوير الآراء وشحذ الأفكار والدفاع عن الأوطان وخدمة المجتمع.

الباروني الصحفي واللورد كرومر :

ويدرك هؤلاء اللائمون قيمة الجريدة عندما تظهر عليهم جريدة الأسد الإسلامي حاملة على اللورد كرومر المعتمد البريطاني لمصر، لمدة أكثر من ربع قرن، وحدثت في عهده الحالك كارثة دنشواي الإجرامية(٣٤)، هذا اللورد حاول إيقاظ الفتنة بين صفوف الأمة الواحدة، فألف كتاباً دنيئاً زيف فيه الحقائق، وطعن فيه على أعظم شخصية مقدسة في تاريخ الإنسانية، متحاملاً على النبي محمد (ﷺ) ولَمَزَ الدين الإسلامي. فتصدى له الباروني راداً عن بطلان دعواه، وكان لجريدة الأسد الزئير المجلجل في هذا المجال، في عددها الثاني بصفحتها الأولى تكتب مقالاً يستغرق ثلاثة أعمدة رداً على اللورد كرومر في كتابه، ودافعت جريدة الأسد عن الفكر الإسلامي، وعن النبي الإسلامي وفندت ترهات المدعين وفظائع كرومر، وبهذه المناسبة قدمت جريدة الأسد اقتراحا بتكوين حزب يسمى (الدفاع عن الإسلام) يكون من العلماء وأفذاذ المفكرين والكتاب، تكون مهمته رد مطاعن المفترين والذين يحاولون أن يشوهوا حقائق الإسلام، واقترحت الصحيفة أنْ يرأس الحزب شيخ الأزهر. وهي في الواقع فكرة نيرة واقتراح سديد، ليت علماء الشرق ينفذون هذه الفكرة في صورة جماعية أو هيئة أو ندوة، تقوم مثلاً بترجمة ما يكتبه الأجانب عن الإسلام والشرق والعرب، ويدافعون عن الإسلام والعروبة، وينشرون ذلك بلغات أجنبية.

وبعد تفنيدها مزاعم الاستعمار، ومساهمتها في نشر الفكر الإسلامي الحر، وعندما لمس فيها القرّاء روحاً إسلامية صادقة، أدركوا أنَّ الصحافة

وعاء ملئ علماً وأدباً، وفضلاً، وهي مهنة لها رسالة سامية وكلمة طيبة عالية تغيرت النظرة لها .

ومن طرائف المعارضات لون آخر ؛ فعندما دخلت الكهرباء (إلى المدينة المنورة) كتب رجل رجعي في إحدى جرائد الجزائر محذراً من هذه البدعة. وانبرى الصحفي التقدمي سليمان الباروني راداً على سخافة الكاتب الرجعي، وموضحاً بأسلوب عصري خطر الرجعية على الأفكار، وشلها للتقدم والعمران. وعملت جريدة الأسد الإسلامي على التنديد بالرجعية العقيمة، ودعت إلى التحرر الفكري من الجمود المعرقل، ودعت إلى الأخذ بوسائل التمدن الحديث، ومقومات الحضارة العصرية، مع المحافظة على دعائم الشخصية الإسلامية والطابع الشرقي.

وهو صاحب مشروع فكري لمجموعة من الكتب التي أخرجها وأشرف على طبعها، فقد أدت مطبعته خدمات جليلة التاريخ والفقه والأدب. ورغم همته وحماسه الملتهب لعمله الصحفي، ورغم نجاح الجريدة من حيث إقبال وتشجيع معارفه وأصدقائه في سائر البلدان الإسلامية فإنها لم تعمر طويلاً ولم تعش سوى ثلاثة أعداد فقط. وذلك لظروف أرغمته على إغلاقها، وليست الظروف السياسية القاسية أول مرة تعاكس الباروني، فقد أحرقت له الإدارة العثمانية كتاباً، وصادرت له آخر بسبب أفكاره وآرائه، الإصلاحية في الدين والسياسة، فقد كتب في جريدته مقالاً حول مفهوم الجامعة الإسلامية والعوائق المانعة من ظهور هذه الجامعة إلى حيز الوجود.

وعبر عن رؤيته للوطن الحلم، الذي ينشد فيها الأمن والعلم والتقدم والرفاهية والحرية والمنعة، وفيها نقد ضمني للحكام والمفوضين الذين أهملوا تقديم الخدمات الأساسية لرعاياهم، كالماء والكهرباء، والتلفون، والقطارات، والمدارس، والمصانع، والجرائد والمطابع، وهو بذا انتصف للفقراء، الذين

يفتك بهم الجوع، ولا يجدون الدواء، ويحرمون التعليم في داخل بلادهم وخارجها، وكأنما يقول كفى فقراً وجهلاً، وهو إذ يربط بين العلم واليقظة، يريد ابن بلاده المواطن المستقيم الواعي العزيز الجانب سيد نفسه متحرراً من الجهل والتبعية والسبات، يعرف حقوقه، ويجاري في العلم والنفع والسياسة الأوروبيين، ويعلن أنه لا يستطيع العيش في بلده ما لم تتغير البيئة والإنسان، وسيبقى رحالة في ديار الإسلام حتى تتبدل الأحوال، يقول:

وداعًا يا ديارَ العزّ حتى ... أعودَ إليكِ في أهنا نهارِ
إذا ما نحوَ قطركِ مُدَّ خَطٌّ ... حديديٌّ إلى تلك القفار
ونورُ الكهرباء أتاكِ يسعى ... وقيل الماءُ في البيداء جار
وطُهِّرتِ العيونُ وقام حزبٌ ... بمعدنكِ النفيس وبالآ ثار
وشُيِّدتِ المدارسُ واستقامت ... رجالُكِ واكتستْ ثوبَ الفخار
وحُرِّرتِ الجرائدُ واستعدّتْ ... مطابعُها إلى نشر القرار
ورُقِّيَتِ الصنائعُ واستقامت ... شبيبتُكِ الحليفة للديار
وجاب الشهمُ منها الأرضَ علمًا ... وخاض بحزمه لُجَّ البحار
وجارى في السياسة من أوربا ... رجالاً زاحموا قطبَ المدار
وأبدى الكدّ مُخترعًا مجداً ... يجرّ النفعَ من تحت الستار
هناك تكون يا وطنَ المعالي ... عزيزَ العلم مجتمعَ النُّضار
يسود المرءُ فيكَ ينالُ عزّاً ... يحوز الأمنَ يطمع بانتصار
ألا يا قومُ قد نمتم طويلاً ... وهمتم بالجهالة في البراري
فهل من يقظةٍ تشفي غليلاً ... وتمحو ما استوى من سُحْب عار
فهمّوا واصدقوا فالصدقُ فيكم ... عريقٌ واحفظوا حقَّ الديار
وإلاّ فالوداعُ وكلُّ قُطْرِ ... به الإسلامُ يصلحُ للقرار (٣٥)

وهاجم الشيوعية والثورة البلشفية التي قامت على القتل والأشلاء والدماء والتطهير الفكري والعرقي, وانتهاك حقوق الإنسان وإفقاره واستعباده، يقول:

اعطف شمالك نحو(الروس) تلق بها أرضاً مخضبة مهتوكة الحُرُمِ[٣٦]

ثالثاً: الباروني شاعراً وأديباً :

انقادت له ملكة البلاغة شاعراً, وكاتباً، وصحفياً، وله إنتاج شعري غزير تضمنه ديوانه، يقع في أكثر من ٢٠٠ قصيدة، وعدّه النقاد من شعراء عصره . وشعره على الرغم من بساطته، وخلخلة بعض أوزانه حافل بالصدق والأمانة والشهامة وحب الفضيلة والأوطان، جارى شعره ونثره أطوار حياته المختلفة القائمة على التنقل ومواجهة المصاعب، ففيه المدح، والفخر، والحنين إلى الوطن، والوصف، لكنَّ نفَسَهُ قصيرٌ، وخياله قريب، وعبارته أقرب إلى النظم، واحتفاؤه بالمعنى أكثر من اللفظ[٣٧].

كان شاعراً رحالة جاب العديد من البلاد العربية والأجنبية. ونال قسطاً من العلوم العربية مثل: كتاب سعد الدين التفتازاني، وتفسير البيضاوي، وتفسير الكشاف للزمخشري . له إنتاج شعري غزير تضمنه ديوانه، وله قصائد نشرتها صحف الأقطار التي حل بها في تونس ومصر وتركيا والحجاز وسورية والعراق والجزائر وليبيا وعُمان.

طبع ديوانه في حياته بمطبعته عام١٩٠٨م, وأعادت ابنته زعيمة طبعه ونشره بلبنان سنة ١٩٧٢م، وأعاد نشر الطبعة الثانية منه (يوسف عياد العزابي) عام ٢٠١١م، وصدر عن دار المحروسة في القاهرة، بالتعاون مع شركة الرواد للخدمات الإعلامية في بنغازي، وذلك بعد ثورة ١٧ فبراير

٢٠١١م، وذكر العزابي في الإهداء أنَّ زعيمة قامت بتوثيق السيرة الأدبية لوالدها، ولكن القذافي طمس المعالم الأدبية الليبية، وألغى قصائد الباروني من المناهج الدراسية، وهمش سيرته النضالية، ونشر بدلها أكاذيب انقشعت بعد ثورة الشباب الذين أهدى لهم العزابي الطبعة الثانية من الديوان عرفاناً ببطولاتهم وتقديراً لتضحيات شهدائهم وجرحاهم[٣٨].

عدّه أحد النقاد المصريين أشهر شعراء عصره، وشيخ الكتاب فيه [٣٩]، امتاز شعره بالوطنية ومقارعة الغزاة المعتدين بروح إصلاحية إسلامية، وأسلوبية رقيقة بسيطة، وثقافة لصيقة بمواقفه السياسية المرتبطة بفكرة الجامعة الإسلامية والخلافة العثمانية. وتبرز من خلال شعره ثقافة شخصية إسلامية تجمع بين الأمازيغية والعربية إلى جانب اطِّلاعه على الثقافة الفرنسية. وتظهر في شعره وطنيته، ونضاله في سبيل تحرير ليبيا، وتضرعه وابتهاله لعودة طرابلس تصدح فيها أصوات التكبير والتهليل فرحاً بالتحرير، وعودة رايات الخلافة (برمز الهلال الإسلامي) خفاقة يعود بها جند المسلمين عبر النيل ليطردوا الإيطاليين، وكان شاعرنا قد حلف ألاَّ يحلق شَعْرَ رأسه حتى يخرج المحتل ويتحرر وطنه، يقول:

هذا هو الشَّعْرُ الذي شهد الحروب الهائلات ... وعليه أُمطرت القنابل كالصواعق نازلات
خاض المعامع لا يهاب على الجياد الصافنات ... حبا بتطهير المواطن من بني الإيطاليات
آليت أن يبقى إلى أن يعبر الجند القناة ... لنرى الغزاة على ضفاف النيل تفتك بالبغاة
ونرى طرابلس العزيزة في ليالٍ باهرات ... تختال في برد الهنا بالانتصار على الطغاة
وتسود أعلام الخليفة في البلاد الضائعات ... ونرى الهلال متوجاً جزر المحيط الخالدات
إذ ذاك يَحلِق بين أفواج الأعاظم والغزاة ... ما بين تهليل وتكبير وتقديم للصلاة
فيكون عنوان الفتوح مدى العصور الدائرات ... وهكذا يبقى إذا لم ننتصر حتى الممات
يا مَن وعدت المسلمين النصر امنن بالحياة [٤٠]

يشكل شعره مصدراً من مصادر تاريخ حركة الجهاد في ليبيا، إضافة إلى قيمته الوطنية، والتاريخية، والاجتماعية، علاوة على جمالياته الأدبية والفنية .فقد عاصر الباروني أحداث الكفاح من ١٩١١-١٩٤٠م وعبر عن كافة الأحاسيس ووثقها في وقت حالك حاول المستعمر فيه القضاء على أصالة البلاد ومقوماتها الوطنية والثقافية والاجتماعية، فكان لشعره دور تنويري مع غيره من منارات الوعي والتنوير والتوجيه والإرشاد، نطق باسم شعبه ووطنه، وكان في الصفوف الأولى لقوات المجاهدين .

وآثاره وبصماته وأعماله تدل على عظمته وعلمه وحبه لشعبه، ولم يترك قضية عربية أو إسلامية إلا وتحدَّث عنها في شعره .وعلى الرغم من ذلك كان متواضعاً يظهر موضوعية نقدية في تقييم شعره فلا يدَّعي أنَّ شعره في درجة ترضي فحول الشعراء، أو يصبو إلى مطالعته عشاق الأدب وأمراء البيان (٤١)

رابعاً: الباروني سياسياً و مناضلاً :

تعرف في مصر على المصلح الإسلامي الشيخ محمد عبده وصادقه وتواصل معه فكرياً وعقائدياً، عاد إلى ليبيا بعد سنوات طويلة من الترحال وطلب العلم , كان قد أصبح شاباً ناضجاً , مشحوناً بالروح الوطنية المعادية للاستبداد التركي في ليبيا إلا إنه بعد عودته سجن ثلاث سنوات وأحرقت السلطات التركية كتابه(الازهار الرياضية) فاضطر إلى مفارقة الوطن في رحلة طويلة شملت تونس والجزائر وفرنسا ومالطا ومصر. تغشى شعره السياسي روح إسلامية إصلاحية مرتبطة بفكرة الجامعة الإسلامية، ورؤيته في الدعوة إليها، والمحافظة على الخلافة العثمانية من الاندثار حتى لقب ب "شاعر الخلافة"، وكرم بلقب "رب السيف والقلم"، على الرغم من مقاومته استبدادها، وسجنه ونفيه بسبب ذلك.

كان مناضلاً طرابلسياً، تصدى للغزو الإيطالي لبلاده، وقاد معارك ضدهم، فأجبرته السلطات الإيطالية على مغادرة طرابلس ومنعته من العودة إليها، حين قاوم محاولة بعض الليبين اللجوء إلى الاستسلام للإيطاليين، ورفض صلح (ابن آدم) مع إيطاليا وأصر على مواصلة الجهاد، وعبأ الشعب لمقاومته، ورسم منهج الخلاص وطريق التحرير، وحذر من ممالأة المستعمر، والانصياع لمخططاته(٤٢).

اسم له شهرة في تاريخ ليبيا الحديث, فقد عرفته ساحات الحروب ضد الايطاليين فارساً مبرزاً و قائداً محنكاً , بالإضافة لكونه شاعراً, وكاتباً وصحفياً ورحالة جاب العديد من البلاد العربية والأجنبية، ومن أبرز قادة الجهاد في ليبيا(٤٣).

رد الباروني على صحفيين إيطاليين- حرَّضوا في جرائد إيطالية على احتلال طرابلس – بقصائد وطنية رائعة سخر فيها من منطق الاستعمار، وادِّعاءاته الزائفة بتحرير الشعوب وتوفير مناخات الحرية لها، وتوعده بشباب يحبون الموت، ويستعذبونه ذوداً عن حياض الوطن، لأن بها فتية يعدون الموت دون وطنهم مغنماً. قال معلناً فرض الجهاد، وحمل السلاح إذا احتل العدو طرابلس، واصفاً بسالة أهلها في وجه من أعماهم الطمع فيها:

لها في الجبال الشامخات معاقلٌ ... أسودُ الوغى تقري السباعَ الجماجما
نفوسٌ ترى حملَ السلاحِ فريضةً ... ترى الرميَ حتمًا قبل أن يتفاقما
لها همَمٌ عليا ترى الذلَّ خِسّةً ... ترى الذودَ عن أوطانها مُتحتِّما
(ومن لم يذدْ عن حوضه بسيوفه ... يهدَّمْ) مقالٌ صاغه من تَقَدَّما
لها بشطوط البحرِ كلُّ غضنفرٍ ... له بسلاح العصرِ علمٌ تحكَّما
بها من صناديد الحروبِ جحافلٌ ... تسيل إذا ما قِيل شُدّوا المحازما
صيامٌ قيامٌ لا يرون فضيلةً ... سوى خوضهم للّه في لُجج الدِّما

فويلٌ لمن قد ساقه النحسُ نحوهم   هم الحتفُ إنْ هزّواالّلوا والعمائما [٤٤]

وقال أيضاً ضمن مقالة له - رداً على مقالة لصحفي إيطالي آخر، حرض دولته إيطاليا على احتلال طرابلس، ولامها على التراخي- فقال في وصف أهل طرابلس، معلناً ألاَّ سبيل لوصل سليمى، وكنىَّ بها عن طرابلس، فدونها مجاهدون يطلبون الشهادة في سبيل الله، ليظفروا بجنته، مذكراً الإيطاليين بهزائمهم، متوعداً بمؤمنين واحدهم بعشر، متناصاً مع قوله ﷻ:﴿ يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون ﴾ (الانفال:٦٥) وهذه المقابلة، وهي معادلة الواحد بالعشرة، لم ينقل أن المسلمين صافوا المشركين عليها قط ولكن الباري فرض ذلك عليهم أولاً، وعلله بأنكم تفقهون ما تقاتلون عليه، وهو الثواب، وهم لا يعلمون ما يقاتلون عليه، ثم نسخ الحكم بعد ذلك، وبقيت البشارة الربانية بنصر الفئة القليلة الصابرة، وتحريض للمؤمنين على مناجزة الأعداء بصبر ورباطة جأش، لأنَّ الله كافيهم، ومؤيدهم على عدوهم، وإن كثروا عدداً وعدة [٤٥]، يقول ممجداً المجاهدين الليبيين:

نصول إذا حان الدفاع ولا نرى   جزاء من المولى سوى جنة الخلد

نحب اللقا لا نبغض الطعن إن يك   نضالاً عن الأوطان والدين والمجد

هنيئا لمن أمسى صريعاً مجاهدا   َله حُلّة من أرجوان على الجرد

فيا مغرماً بنا تقدم لفتيةٍ   ترى الموت فوزاً في مصادمة الضد

خفافٌ ثقالٌ في الجِلاد جوادهم   مكرّ مفرّ مصدر القرب والبعد

أيا بطلاً رام النزال بضعفه   ألم تشف غُلاً نكبةُ الحبش الجعد

أراك زماناً طالما حمت حولهم   ولم يك إلا أن صرعت على الخد

ألم تك ممن أدرك الناس أنَّه ... أخف انهزاماً من رباط إلى السند

ألم يكفك النصر المقهقر خسةً ... فلا حول ما هذا التملق كالقرد

فدعك "بنابولي" لعل جبالها ... تخر فتفنى أو تقيك من البرد

فإن بها أفواه بيت تفتحت ... لتمنح دفئاً عاري الجوف والجلد

وأما "سليمى" لا سبيل لوصلها ... ولو تجعل الجوزاء منطقة الغمد

بإذن الذي بالأمس عزز نصرنا ... فكانت "سراقوزا" لنا موقع الجند

وكانت وكانت في "قطانيا" وقعة ... فسادت "بمسينا" الرجال على المرد

ألم تعلم أن المسلمين إذا سطوا ... فواحدهم كالعشر في الجزر والمد

قديماً حديثاً لا افتراء وإن تشأ ... فسل من "أثيني" قريب من العهد

مُحالٌ محالٌ أن تُدنَّس روضةً ... عليها لواءٌ حُفَّ بالنصر والحمد (٤٦)

وهو إذ يذكر بالأحداث التاريخية القيمة والنادرة مما يجب استحضاره لإبراز الاتصال بين اللحظة التاريخية الحاسمة والأخرى، انطلاقا من الواقع البطولي وما حاكاه من أحداث جليلة، ومواقف جريئة جديرة بالظهور في الساحة العسكرية والثقافية والفكرية، قياساً بالوقائع ذات الأبعاد العميقة في كل نفوس الأحرار، إنما كل ذلك تجسيد لحصيلة مشعة من تاريخ المقاومة الرائدة، واستدعاء للتاريخ الهائل الجامع للمقومات الحضارية، في كل ما تمَّ إبداعه من إنتاج يخص كافة الميادين، في ارتباط وثيق بالمعرفة الحقة .

خامساً: الباروني مصلحاً اجتماعياً :

جمع بين الثقافة الأمازيغية والعربية الإسلامية إلى جانب اطلاعه على الثقافة الفرنسية، فدعا إلى إعادة بناء المجتمع، على أسس سليمة، وربط بين العمل والجهد والمكافأة والتقدير، واعتنى بطرائق التهذيب والتربية، وإصلاح فاسد العادات والتقاليد، للتغلب على التخلف. وله مراسلات سياسية،

وإسلامية إلى رؤساء وملوك العالم، والهيئات العالمية ينصحها، ويوجِّهها، واعترفت له عصبة الأمم بآرائه السديدة .وحاول الإصلاح والتقريب بين الملك عبد العزيز بن سعود وشريف مكّة الحسين بن علي .

واستبشر بإصدار السلطان عبد الحميد للدستور العثماني، وفرح به، لكنه نبه في خطبة له في جمعية الشبيبة المصرية بالمدرسة التحضيرية إلى أنَّ إصدار للدستور أمر جيد، وخطوة إيجابية، لكنها بحاجة إلى سداد رأي في تفعيل الدستور وجدٍّ في تطبيق قوانينه الإصلاحية، وهذه علامة مميزة للأمة الراقية والدولة الحيَّة التي تحكم مؤسساتها القوانين العادلة، وقال شعراً في ذلك:

فليس صورة (دستور) منمقة إن لم نَر الجدَّ في الإصلاح يغنينا
منحت عدلاً وفضلاً أمة فقدت رقيها فأتى الدستور يحيينا[٤٧]

ويقول على لسان الدستور من مغناة له طويلة يفصل فيها محاسنه ومآثره، ويُعَرِّض بحزب (تركيا الفتاة) ومؤسسه في فرنسا مصطفى باشا الأمير المصري الذي نازع فؤاد باشا رغبة في تولي عرش مصر و أعلن الأمير أنه ضمن التيار المنادي بالدستور في الدولة العثمانية، وقدم نفسه بعبارة ممثل حزب تركيا الفتاة وأعجب هذا الاسم المجتمعات الأوروبية المعنية فشاع اسم "حزب تركيا الفتاة" في أوروبا. وحزب (الاتحاد والترقي) التي تغلغلت خلاياه في وحدات الجيش، وبين موظفي الدولة من المدنيين، واتحدا في العمل الموحد بعد اتفاق جناحيهما العسكري والمدني في باريس، للعمل الفعلي ضد السلطان واستطاعت الجمعية بالفعل إجبار السلطان عبد الحميد في ٢٤ يوليو ١٩٠٨م على إعلان الدستور الذي كان قد أمر سابقاً عام ١٨٧٧م بوقف العمل به[٤٨]:

يا فتاة الشرق عني اضربي العود وحني
واسمعي بالقرب مني لاحتفال بي فإني
أنا (دستور) المعالي أنا ترس للقتال
ينشر الأفكار جهراً يورث الأعداء قهراً
وهو سيف لا يجارى فليمت حزب التدني(٤٩)

وقام الباروني بالإصلاح ما بين سلطان عُمان تيمور بن فيصل والإمام محمد بن عبد الله الخليلي، فقضى على عداوة كانت مستحكمة، وقارب بينهما وأزال الخلاف والجفوة . ولاه السلطان سعيد بن تيمور نظارة شؤون الولاة، فقام بإصلاحات سياسية وعلمية وإدارية وعسكرية، وأنشأ المدرسة الكبيرة بسمائل بنظام عصري وانتظمت فيها الدروس لحين(٥٠)، لكن العوائق الخارجية والداخلية حالت دون تمام مشروعه التعليمي الكبير، إذ لم تسمح له بريطانيا بجلب نخبة المدرسين، ولم يشجعه الأهالي آنذاك، إذ كانوا يميلون إلى نظام الكُتّاب القديم.

موقف الباروني من الوحدة العربية:

كانت وجهة نظر الباروني أنّ وحدة العرب لا تكتمل إلا إذا شملت عرب المشرق وعرب المغرب، وخالف بهذا رأي شكيب أرسلان وعبد الحميد بن باديس، إذ كان شكيب يرى أن إثارة الوحدة السياسية بين المشرق والمغرب في تلك الظروف العصبية، يثير عليهم مشاكل جمة ومتاعب عديدة لا قبل لهم باحتمالها ودرئها وكانوا ما زلوا على عتبة الاستقلال والسلطان القومي، ورأى" أنّ هناك أسباب جغرافية تمنع الاتحاد معهم اتحاداً فعلياً، وهم ليسوا من برنامجنا ولا نتكلم على الوحدة معهم لأننا نجعل لنا أعداء أقوياء ونحن في غنى عن ذلك الآن. نحن نريد تحقيق وحدتنا العربية في آسيا،

ولكن وجود وحدة سياسية من إخواننا مسلمي شمالي افريقية (يعني: تكون منهم فيما بينهم) لا يمنع أن يكون بيننا وبينهم وحدة لغوية ثقافية دينية اجتماعية وأن تكون قلوبنا مرتبطة بقلوبهم في السراء والضراء"(٥١).

وكانت لعبد الحميد بن باديس (١٨٨٩-١٩٤٠م) مساهمة متميزة في ذلك النقاش الحامي الذي دار حول وحدة الأقطار العربية بين الأمير شكيب، وسليمان باشا الباروني، بعنوان "مسألة عظيمة بين رجلين عظيمين"، وقد ناصر فيها ابن باديس شكيب أرسلان، مع أن أرسلان هو الذي كتب في المقالة التي أثارت النقاش: " للمغرب العربي وحدته، وللمشرق العربي وحدته، ويمكن أن تكون بينهما علاقات". وخالف ابنُ باديس سليمانَ الباروني مع أنه هو الذي كان يرى ضرورة إدماج أقطار المغرب العربي في الوحدة العربية المنشودة، بدون تمييز بين المشرق والمغرب العربيين(٥٢). وقد يكون لرأي ابن باديس آنذاك ما يسوغه من فقه الواقع وعدم استعجال الأمور قبل أوانها.

خاتمة:

لقد توصل البحث إلى نتائج عدة أهمها:

١-كان سليمان الباروني متميزاً في عقله وفكره و مواهبه كثيرة، نبغ في غير مجال، وجال في غير ميدان.

٢- كانت تجربته في كتابة التاريخ متواضعة كمّاً ونوعاً، وغلب على منهجه التاريخي الأسلوب الوصفي.

٢- توصل البحث إلى أنّ مشاريع الباروني نهضوية، وآلياته عصرية، ترافد مع الحركة الأدبية والفكرية في تطوافه بين البلدان، حتى غدا من أعلام عصره في الصحافة و السياسة و الشعر والتاريخ.

٣- قدم الباروني إطاراً إسلامياً للفكر المعاصر من خلال دعواته للوحدة العربية والإسلامية، ومقاومته للغزو الاستعماري العسكري، وتنبيهه لتحديات الغزو الفكري، ودعوته للوقوف في وجه محاولات تزييف التاريخ الإسلامي، وطعن رموزه، ودعوته إلى إنشاء حزب الدفاع عن الدين.

٣- مثَّل الباروني في كتاباته تطلعات أمته، وجسَّد في شعره رؤيته للوطن الحلم.

٤- امتاز شعره على الرغم من بساطته بالوطنية ومقارعة الغزاة المعتدين بروح إصلاحية، وأسلوبية رقيقة بسيطة وثقافة لصيقة بمواقفه السياسية المرتبطة بفكرة الجامعة الإسلامية والخلافة العثمانية .

وأخيراً يحق لأهل العلم أن يحزنوا عندما يرحلُ عن هذهِ الدنيا المخلصونَ أصحاب العطاء المتواصل، الذين يُفنُون أنفسهم وأوقاتهم لأجلِ أمَّتهم، يبيعون كل غالٍ ورخيص لأجل إعلاء كلمة الحقِّ، لا تأخذهم في اللهِ لومة لائم، لا ينثنون ولا يتقهقرون أمام مغرياتِ الحياة وزينتها، ولا يتراجعون أمام معوقات الحياة مهما صعبت؛ فالعلماء مِلْحُ الأرض إن فقدناهم فسدت الأرض، وعاش الناس في غياهب الضياع والحرمان ؛ لأنَّ الإخلاص هو منهجهم، وطاعة الله ورضاه غايتهم، وبرحيلهم تتولَّدُ فجوة يصعب علينا رتقها وسد فراغها؛ لأنَّ المخلصين نادرون في هذا الزمن المظلم.

الهوامش:

(١) مما يجدر التنويه له وجود عالمين بإسم سليمان الباروني، الأول سليمان باشا(١٨٧٣-١٩٤٠م) موضوع الدراسة، والآخر أبو الربيع سليمان الباروني (١٣١٠هـ/١٨٩٢م-١٣٨٢هـ / ١٩٦٢م)أحد أبناء أرومة البارونيين بليبيا، ولد في كَباوْ بجبل نفوسة، وتلقّى تعلّمه الأوّل في المدارس القرآنية الإباضية بالجبل، ثمّ انتقل إلى جامع الزيتونة بتونس، فالأزهر الشريف بمصر. في عام ١٣٤٣هـ/١٩٢٤م، بعد عودته من رحلاته العلمية التحصيلية، اِلتحق بسلك القضاء، وظلّ به مدّة أربعين سنة تقريباً، وكان آخر منصبٍ شغله هو مستشار المحكمة الاِستئنافية الشرعية العليا بطرابلس الغرب. حارب الاِستعمار الإيطالي، وكان عضواً بالحزب الوطني بطرابلس، ثمّ عضوًا بحزب المؤتمر الوطني. وفي سنة ١٣٧٢هـ /١٩٥٢م، أُختير عضوا بلجنة الواحد والعشرين ثمّ استقال منها عندما أنيطت بها مهمّة تشكيل لجنة الستّين التي عرض عليه أن يكون عضوًا فيها فرفض. زار ميزاب سنة ١٩٤٨م، وهو يقوم بمهمّة جمع الأموال لإنشاء مدرسة ومسجد بمدينة طرابلس، وقد أكملهما، وسمّي المسجد باسم "مسجد الفتح".(**معجم أعلام الإباضية** من القرن الأول الهجري إلى العصر الحاضر، قسم المغرب الإسلامي، جمعية التراث، باباعمي؛ محمد بن موسى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٠ م، ٢/٢٠٦-٢٠٨) .

(٢) **معجم البابطين لشعراء العربية في القرنين التاسع عشر والعشرين**، جمع وترتيب وتنفيذ هيئة المعجم في مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت، ط١، ٢٠٠٨م، م٨/ص٥٩٢، و الباروني، أبو ربيع سليمان: **مختصر تاريخ الإباضية**، الطبعة الرابعة، مزيدة ومنقحة، د. م، د.ت، ص٥٦.وانظر:أبو اليقظان، الحاج إبراهيم بن عيسى: **سليمان الباروني باشا في أطوار حياته**، المطبعة العربية، الجزائر، ١٩٥٩م(١٣٧٩هـ)، ج١/ ص٩ .

(٣) ذكر المؤلف في " **مختصر تاريخ الإباضية** "ص٥٢-٥٧ أصل العائلة البارونية، وبعض أمرائها وأولهم أبو هارون الذي لما انتخب لإمارة جبل نفوسة وما حوله انتقل من تملو شايت إلى بلد أبنابن أم قرى ذلك الوادي المنسوب إلى كباو لاحقاً، فسميت البلده باسم آل بيته إلى الآن(اتبارون بالبربرية المحرفة)، ونفى ما حادثه به أحد

الباحثين الطرابلسيين من أن أصل نسب آل الباروني من أشراف الرومان أو الطليان الذين استوطنوا الجبل قديماً، وكانوا يحملون لقب (بارون) فغلب على العائلة، فلما ظهر الإسلام أسلمت ومعها لقبها الموروث.

(٤) الباروني، سليمان: **الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية**، مقدمة المحقق: محمد علي الصليبي، ص١٠ نقلاً عن: حياة سليمان باشا الباروني ـــــــ زعيم المجاهدين الطرابلسيين، تأليف أبو القاسم سعيد يحيى الباروني، مطبعة الأمير فاروق، مصر، ط٢، ١٩٤٨م، ص١٢.

(٥) الباروني، سليمان: **الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية**، ص٣٧١.

(٦) جبران، محمَّد مسعود: الشيخ عبد الله الباروني دراسة في أخباره وآثاره، المجلَّة التاريخية المغاربية، ع٧١-٧٢، ١٩٩٣م(١٩٥٥)، ص٣٤٩ وانظر : أبو اليقظان الحاج إبراهيم: سليمان باشا الباروني - المطبعة العربية - الجزائر ١٩٥٦.

(٧) خفاجي، محمد عبد المنعم: **قصة الأدب في ليبيا العربية**، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩٢م، ص٣٦٠، نقلاً عن :المصراتي، علي مصطفى: **لمحات أدبية عن ليبيا في نصف قرن**، ص ٢٠٨-٢١١.

(٨) طبعه بنفسه في حياته بمطبعة الأزهار البارونية لصاحبها سليمان الباروني وأخويه في الحبانية بشارع محمد علي بمصر, جمادى الأول سنة ١٣٢٦هـ - ١٩٠٨م, وأعيد نشره بإشراف ابنته زعيمة بلبنان سنة ١٩٧٢، وأعاد (يوسف عياد العزابي) نشر الطبعة الثانية منه بعد ثورة ١٧ فبراير سنة٢٠١١م.

(٩) بصري، مير: أعلام الوطنية والقومية العربية، دارالحكمة، لندن، ط١، ١٩٩٩م، ص١١٣.

(١٠) الباروني، **ديوان سليمان الباروني**، نشر بإشراف وتقديم: زعيمة الباروني، الأهداء بقلم: يوسف عياد العزابي، دار مصر المحروسة بالقاهرة، بالتعاون مع شركة الرواد للخدمات الاعلامية في بنغازي - ليبيا، ٢٠١١م، ص١٢.

(١١) **الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية**، تحقيق محمد علي الصليبي، منشورات وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عُمان، ١٩٨٧م.

(١٢) علي يحيى معمر، **الإباضية مذهب إسلامي معتدل**، ط٥، ٢٠٠٤م، مكتبة الضامري، سلطنة عمان، ص١٧

(١٣) **مختصر تاريخ الإباضية**،، الصفحات :٢-٤، ١٥.

(١٤) **مختصر تاريخ الإباضية**،، الصفحات : ٢٢- ٣٣، ٥٦، ٧٣، ٨١ .

(١٥) ألفه عبد الله الباروني بطلب من سليمان بن زيد اليفرني، أحد وجهاء بلد (تقربوست) من جبل نفوسة سنة ١٢٩٠هـ، ونشره تويلولت في مئة وصفحتين، مضمناً تعليقات سليمان الباروني، مطبعة النجاح - ١٣٠٤هـ/١٨٨٦م.

(١٦) وقد نشر معاصره وصديقه اليوزباشي محمد إبراهيم لطفي المصري كتاباً بالاسم نفسه، وصدر من مطبعة مؤسسة الأمير فاروق بمصر سنة ١٩٤٦م، و جمعته و نشرته ابنته زعيمة بعنوان "صفحات خالدة من تاريخ الجهاد الليبي، د.ت، في جزءين.

(١٧) المحروق، سعيد سيفاو :**الكتاب الأسود: رسالة الأديب والمناضل الأمازيغي إلى العقيد معمر القذافي**، إعداد، سعيد باجي، المغرب ٢٠١٢م، ص١١.

(١٨) المحروق، سعيد سيفاو :**الكتاب الأسود**، ص١١، وانظر:نجدي، عادل :**تفاصيل مؤلمة يكشف عنها سعيد سيفاو**، صحيفة المساء، الرباط، المغرب، العدد:٨٥٣، السبت، ٢٠ يونيو ٢٠٠٩م.

(١٩) زعيمة الباروني، مقدمة الديوان، ص١١.

(٢٠) ديوان الباروني، ص١٥- ١٦ .

(٢١) ديوان الباروني ، ص١٨١.

(٢٢) أبو اليقظان، إبراهيم بن عيسى، **سليمان الباروني باشا في أطوار حياته**، ٢/٢١١، وانظر: محمد مسعود جبران، **سليمان الباروني آثاره**، الدار العربية للكتاب، ليبيا، ١٩٩١م، وانظر :محمد ناصر، **أبو اليقظان ونضال الكلمة**، الجزائر، ١٩٨٠م.

(٢٣) أبو القاسم سعد الله، سليمان الباروني أضواء وملاحظات، **مجلة الثقافة الجزائرية**، ١٩٩٥م، ص ١١٠ - ١١١.

(٢٤) انظر: خلدون الشمعة، الأدب والثورة ؛ بعض المفاهيم المتحكمة بالتجربة، مجلة الفكر العربي، معهد الإنماء العربي، ليبيا، السنة الأولى، العددان:٨/٩، ١٩٧٩م، ص٢٨٦.

(٢٤) علي يحيى معمرّ: **الإباضية في موكب التاريخ**، الحلقة الثانية(الإباضية في ليبيا)، مكتبة وهبه، القاهرة، ط٢، ١٩٩٣م، القسم الثاني /ص١٧٥-١٧٦.

(٢٥) انظر: خلدون الشمعة، **الأدب والثورة** ؛ بعض المفاهيم المتحكمة بالتجربة، مجلة الفكر العربي، معهد الإنماء العربي، ليبيا، السنة الأولى، العددان:٩/٨، ١٩٧٩م، ص٢٨٦.

(٢٦) فاضل السباعي وآخرون، **سليمان الباروني المعلم المقاتل**، دار العودة ,بيروت، ١٩٧٥م، ص٦٥-٦٦.

(٢٧) ديوان الباروني، ص ٥٥.

(٢٨) ديوان الباروني، ص ٢٢.

(٢٩) ديوان الباروني، مقدمة الديوان، ص١٣.

(٣٠) ديوان الباروني، مقدمة الديوان، ص١٣.

(٣١) ديوان الباروني، ص ٤٢ .

(٣٢) ديوان الباروني، ص١٦٢-١٦٣.

(٣٣) فاضل السباعي وآخرون، سليمان الباروني المعلم المقاتل، ص٦٥.

(٣٤) حدثت عام ١٩٠٦، إذ صدرت أوامر الحكومة في مصر لعمد بعض البلاد بمساعدة فرقة تابعة للاستعمار البريطاني آنذاك مكونة من خمسة جنود ممن كانوا يرغبون في صيد الحمام ببلدة (دنشواي)، ولسوء الحظ كان الحَمَامُ عند أجران الغلال يلتقط الحب وما يُأخذ من مجموع أقوال متعددة المصادر أن مؤذن البلدة جاء يصيح بهم كي لا يحترق التبن في جرنه، ولكن أحد الضباط لم يفهم منه ما يقول وأطلق عياره فأخطأ الهدف وأصاب زوجة شقيق ذلك الرجل. واشتعلت النار في التبن، فهجم الرجل على الضابط وأخذ يجذب البندقية وهو يستغيث بأهل البلد صارخا 'الخواجه قتل المرأة وحرق الجرن، فأقبل الأطفال والنسوة والرجال صائحين 'قتلت المرأة وحرقت الجرن، فهرع بقية الضباط الإنجليز لإنقاذ صاحبهم. وفى هذا الوقت وصل الخفراء للنجدة كما قضت أوامرهم، فتوهم الضباط على النقيض بأنهم سيفتك بهم فاطلقوا عليهم الأعيرة النارية وأصابوا بعضهم فصاح الجمع قتل شيخ الخفر وحملوا على الضباط بالطوب والعصى فقبض عليهم الخفراء وأخذوا منهم الأسلحة إلا اثنان منهم وهم كابتن الفرقة

وطبيبها أخذا يعدوان تاركان ميدان الواقعة وقطعا نحو ثمانية كيلومترات في الحر الشديد حتى وصلوا إلى بلدة سرسنا فوقع الكابتن مطروحا على الأرض -ومات بعد ذلك- فتركه الطبيب وأخذ يعدو حتى وصل إلى المعسكر وصاح بالعساكر فركضوا حتى الكابتن فوجدوه وحوله بعض الأهالي، فلما رأوهم الأهالي- - فروا فاقتفوا العساكر أثرهم وقبضوا عليهم إلا أحدهم هرب قبل أن يشد وثاقه واختبأ في فجوة طاحونة تحت الأرض فقتله الإنجليز شر قتلة.

كان رد الفعل البريطاني قاسياً وسريعاً فقد قدم ٥٢ قروياً للمحاكمة بجريمة القتل المتعمد وتم اثبات التهمة على ٣٢ منهم في ٢٧ يونيو ١٩٠٦م وتفاوتت الأحكام فيما بينهم، وكانت معظم الأحكام بالجلد والبعض حكم عليه بالأشغال الشاقة، وتم إعدام ٤ قرويين منهم . ترأس القضاة بطرس غالي وأحمد فتحي زغلول باشا، الأخ الأكبر للزعيم المصري سعد زغلول والذي كان في أثناء المحاكمة في فرنسا لدراسة القانون الفرنسي وقاطعه أخوه سعد بسبب ترأسه للمحاكمة وكان مدعي النيابة " الهلباوي باشا". و كان اللورد كرومر هو الحاكم الإنجليزي في مصر في ذلك الوقت.

(٣٥) ديوان الباروني، ص ٥٥-٥٦ .

(٣٦) ديوان الباروني، ص ١٠٩ .

(٣٧) انظر: ديوان الباروني، المقدمة ص١١.

(٣٨) مقدمة الديوان، الأهداء بقلم: يوسف عياد العزابي، ص٧.

(٣٩) خفاجي، محمد عبد المنعم، **قصة الأدب في ليبيا العربية**، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩٢م، ص٣٥٥-٣٥٦.

(٤٠) ديوان الباروني، ص١٣.

(٤١) ديوان الباروني، ص١٣.

(٤٢) بصري، مير: **أعلام الوطنية والقومية العربية**، دارالحكمة، لندن، ط١، ١٩٩٩م، ص١١٣.

(٤٣) الباروني، أبو القاسم سعيد يحيى: حياة سليمان باشا الباروني ـــــ زعيم المجاهدين الطرابلسيين، مطبعة الأمير فاروق، مصر، ط٢، ١٩٤٨م، ص١٢.

(٤٤) ديوان الباروني، ص ٤٢ .

(٤٥) الصابوني، محمد علي(اختصار وتحقيق) :**مختصر تفسير ابن كثير**، دار القرآن الكريم، بيرو ديوان الباروني، ص ٤٣.ت، ط٣، ١٣٩٩هـ , م٢ / ص ١١٧.

(٤٦) ديوان الباروني، ص ٤٣.

(٤٧) ديوان الباروني، ص ١٠٧-١٠٨.

(٤٨) الصلابي، علي محمد، **الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط**، دار التوزيع والنشر الإسلامية، ط١، ٢٠٠١م.، ص١٢٨.

(٤٩) ديوان الباروني، ص ١١٠، حني : أي اطربي.

(٥٠) ديوان الباروني، مقدمة الجزء الثاني لابنته زعيمة، ص١٢٧.

(٥١) الهرماسي، محمد صالح، **مقاربة في تأصيل الفكر القومي**، الهيئة العامة السورية للكتاب، الكتاب الشهري الخمسون، ٢٠١٢م، ص١٠٤نقلاً عن : تصريح شكيب أرسلان للأستاذ محمد تيسير ظبيان الكيلاني، صاحب جريدة الجزيرة، دمشق، ٢٤ رجب، وشعبان١٩٣٤م.

(٥٢) علي بن محمد، **مرجعيات الهوية الجزائرية في فكر الإمام ابن باديس**، موقع الإمام عبد الحميد بن باديس، وأنظر: عبد الحميد بن باديس، **مسألة عظيمة بين رجلين عظيمين**"، موقع ثوابت عربية، محمد صالح الهرماسي، تاريخ :٢٠١٠/١٢/١٣م.

المصادر والمراجع

(١) باباعمي؛ محمد بن موسى وآخرون، معجم أعلام الإباضية من القرن الأول الهجري إلى العصر الحاضر، قسم المغرب الإسلامي، جمعية التراث، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٠ م.

(٢) البابطين ، هيئة المعجم في مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري جمع وترتيب وتنفيذ، معجم البابطين لشعراء العربية في القرنين التاسع عشر والعشرين ، الكويت، ط١ ، ٢٠٠٨م.

(٣) الباروني، سليمان باشا بن عبد الله:الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية، تحقيق محمد علي الصليبي، منشورات وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عُمان، ١٩٨٧م.

(٤) ديوان سليمان الباروني ، دار مصر المحروسة بالقاهرة، نشر بإشراف وتقديم: زعيمة الباروني، الأهداء بقلم: يوسف عياد العزابي، بالتعاون مع شركة الرواد للخدمات الاعلامية في بنغازي – ليبيا ، ٢٠١١م.

(٥) الباروني، أبو ربيع سليمان: مختصر تاريخ الإباضية، الطبعة الرابعة، مزيدة ومنقحة، د. م، د.ت.

(٦) الباروني ، زعيمة (جمع و نشر)، صفحات خالدة من تاريخ الجهاد الليبي، د.ت، جزءان.

(٧) الباروني أبو القاسم سعيد يحيى، حياة سليمان باشا الباروني ـــــــ زعيم المجاهدين الطرابلسيين، مطبعة الأمير فاروق، مصر، ط٢، ١٩٤٨م.

كتاب في التاريخ ألفه عبد الله الباروني بطلب من سليمان بن زيد اليفرني ، أحد وجهاء بلد (تقربوست) من جبل نفوسة سنة ١٢٩٠هـ، ونشره تويلولت في مئة وصفحتين، مضمناً تعليقات الشيخ المجاهد سليمان الباروني.

(٨) الباروني، عبد الله بن يحيى: سلم العامة والمبتدئين في معرفة أئمة الدين، نشره تويلولت، مطبعة النجاح - ١٣٠٤هـ/١٨٨٦م.
(٩) بصري ، مير: أعلام الوطنية والقومية العربية، دارالحكمة، لندن، ط١، ١٩٩٩م.
(١٠) جبران ، محمَّد مسعود: سليمان الباروني آثاره، الدار العربية للكتاب، ليبيا، ١٩٩١م.
(١١) الشيخ عبد الله الباروني دراسة في أخباره وآثاره ، المجلَّة التاريخية المغاربية، ع٧١-٧٢ ، ١٩٩٣م(١٩٥٥).
(١٢) خفاجي، محمد عبد المنعم : قصة الأدب في ليبيا العربية، دار الجيل، بيروت، ط١ ، ١٩٩٢م.
(١٣) السباعي ، فاضل ، وآخرون: سليمان الباروني المعلم المقاتل، دار العودة , بيروت ، ١٩٧٥م.
(١٤) الشمعة، خلدون: الأدب والثورة ؛ بعض المفاهيم المتحكمة بالتجربة ، مجلة الفكر العربي، معهد الإنماء العربي ، ليبيا، السنة الأولى، العددان: ٨/٩ ، ١٩٧٩م.
(١٥) الصابوني، محمد علي(اختصار وتحقيق) :مختصر تفسير ابن كثير، دار القرآن الكريم ، بيروت، ط٣، ١٣٩٩هـ.
(١٦) الصلابي، علي محمد، الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، دار التوزيع الإسلامية، ط١، ٢٠٠١م.
(١٧) المصري، اليوزباشي محمد إبراهيم لطفي: تاريخ الحرب في طرابلس، مطبعة مؤسسة الأمير فاروق، مصر ١٩٤٦م.
(١٨) معمر، علي يحيى: الإباضية في موكب التاريخ ، الحلقة الثانية (الإباضية في ليبيا)، مكتبة وهبه ، القاهرة، ط٢، ١٩٩٣م.

(١٩) معمرّ، علي يحيى :الإباضية مذهب إسلامي معتدل، ط٥ ،٢٠٠٤م، مكتبة الضامري، سلطنة عمان.

(٢٠) ناصر، محمد : أبو اليقظان ونضال الكلمة، الجزائر ،١٩٨٠م.

(٢١) أبو اليقظان، الحاج إبراهيم بن عيسى: سليمان الباروني باشا في أطوار حياته، المطبعة العربية ، الجزائر، ١٩٥٩م (١٣٧٩هـ).





Egyptian Historian

Studies and Research in
the History of Civilization
(Scientific journal semi-annual)

Issued by the Department of History
Faculty of Arts - Cairo University

Number Forty two
TOMO II

January 2013

A Reevaluation of Enlightenment Activities of Obata Tokujirou – Focusing on Researches Concerning Science and Ethics -

Dr.Hassan Algamal

This research examined how the researchers and thinkers think about the attempts of Obata Tokujirou (1842-1905) of enlightening and introducing the modern knowledge to the Japanese people during the 19 century. To clarify this point, the research examined the early works of Obata Tokujirou dealing with the scientific knowledge and the ones of ethics. Then, it discussed and made clear the distinguishing features of these researches concerning his enlightening thought. To conclude, the most remarkable feature of these researches is that most of them did not try to discover the reality of Obata Tokujirou's modern knowledge and his way of enlightenment. Also, most of researches dealt with Obata as a part of Fukuzawa Yukichi (1839-1901), not as an independent thinker.

Then, due to Obata Tokujirou's educational background, method and ability of translation, I found that he referred that he faced a lot of problem to activate his enlightening ideas.

小幡篤次郎の啓蒙活動を再評価−「科学と倫理」に関する先行研究を中心する−

はじめに

幕末・明治時代の知識人、とりわけ啓蒙思想家の大本願は、日本が列強諸国の植民地にならないことであった。これらの啓蒙思想家は、その本願を実現するため、素早く近代ヨーロッパの様々な知識取り入れ、富国強兵を目指した。その中で、幕末・明治時代に活発的に啓蒙活動を行っていたのは、小幡篤次郎（1842 - 1905(1)）である。小幡は、現在に至るまで日本の研究者の関心となり、彼の啓蒙活動が日本の近代化過程に貢献したと高く評価されている。小幡に対するこれらの評価は、研究者による様々な捉え方や方法論があったので、彼の啓蒙思想の様々な面が明らかとされているに違いない(2)。本稿では、どのように小幡の啓蒙活動が紹介されてきたかを明らかにすることを通じて、彼の思想像を普遍的に把握したいと考えている。

そして、小幡の明治初期の啓蒙活動に関する研究を分類し、これらを検討・考察することを通じて、小幡の啓蒙思想の成立とその背後の要因を把握することでき、また彼の思想を再評価できるのではないかと考えている。小幡は様々な分野にわたり啓蒙していたが、彼の明治初期の啓蒙活動は、「科学」とりわけ天文学と「倫理」である。本論の構成は、二点に分ける。第一点では、小幡の市民倫理を扱う研究を検討する。第二点では、小幡の科学知識の啓蒙活動に関する研究を紹介する。これらの

点を検討することを通じて、様々な分野に関する小幡篤次郎の独自性を明らかにすることができるのではないかと考えている。

小幡の思想に関する研究

これまでの小幡篤次郎の思想、とりわけ科学知識と倫理観に関する研究を見てみよう。全般的に小幡の啓蒙活動所である慶応義塾と彼の師匠、福澤諭吉に関する先行研究は数多いものの、小幡自身に関する先行研究がそれほど多くない。小幡についての考察は、慶応義塾、または福澤を中心主題とする研究の中で主に述べられており、小幡の政治的、経済的、社会的啓蒙活動に関する先行研究は少ない。舩木恵子の「小幡篤次郎と J.S.ミルの『宗教三論』」『近代日本研究』第 21 巻、2004 年と、小泉仰、「ミルの『宗教三論』と福澤諭吉の宗教観」『近代日本研究』（435 - 454）2 巻　慶応義塾福澤研究センター　1985 年、そして住田孝太郎、「小幡篤次郎の思想像–同時代評価を手がかりに–」『近代日本研究』第 21 巻、2004；松永俊男、「チャンバーズ著『科学入門』と小幡篤次郎訳『博物新編補遺』」『桃山学院大学人間科学科』桃山学院大学人間科学 24、（149-168）、2003 年、が代表的な研究とされている。本論では、主にこれらの研究を焦点に当てて、小幡の啓蒙思想の特徴を明らかにする。

1．小幡の倫理観に関する研究

ここでは、小幡篤次郎の倫理観に関する研究を考察する。まず、小幡自身によって書かれた道徳的書物を検討したうえ、日

本の研究では小幡がどのように紹介されているのかを考察する。上述したように、小幡に関する先行研究が少ないので、まだ彼の啓蒙活動の様々な分野に、ほとんど触れられているわけではない。しかし、小幡の倫理の啓蒙活動について、焦点にあてて主に検討したい論文は、船木恵子の「小幡篤次郎とJ.S.ミルの『宗教三論』」である(3)。

船木氏の論文は、以下の三点に分けられる。第一に、J.S.ミルの『宗教三論』の内容と小幡がそれを翻訳した状況についての説明である。船木氏は、J.S.ミルの『宗教三論』が出版されて以来現在に至るまで、『宗教三論』の翻訳は小幡篤次郎の翻訳以外に存在しないと述べている (4)。船木氏は、ミルの著書の内容を詳細に紹介し、小幡の翻訳との関連を解説している。ミルの著作には、「①Defense of Character 性格の相異」、「②Love 愛」、「③Education of Taste 慎みの教育」、「④Religion of l'avenir 将来の宗教」、「⑤Plato プラトン」、「⑥Slander 中傷」、「⑦Foundation of Morals 道徳の基礎」、「⑧Utility of Religion 宗教の有用性」、「⑨Socialism 社会主義」、「⑩Liberty 自由」、「⑪Doctrine that Causation is Will 原因としての意思学説」「⑫Family and Conventional 家族と習慣」の12章がある。船木氏は、小幡が翻訳した『宗教三論』のうちの第二論文はプランの八番目に論文タイトルそのままで存在し、また内容的には④の「将来の宗教」も含まれていると主張している(5)。第二に、船木氏はイギリスと日本でどのように『宗教三論』が取り扱われたかを考察している。第三では、船木氏は小幡の『弥児

氏宗教三論』を紹介している。

船木氏の考えでは、小幡の翻訳の特徴は、意味を把握した的確な翻訳であると述べている(6)。一例としては、「天然論」では、論文タイトルの「Nature」という言葉を「天然」と小幡が訳している点である(7)。ミルが主張する「人力でどうしようもない状態」や「創造物」という意味を含めるには、現代人の感覚でも「自然」よりは「天然」と訳すほうがぴったりしていると感じると解説している(8)。

また第二論文目で「Utility of Religion」を「教用論」と訳しているが、これは小幡が十分に論文内容を理解しているためであると主張している(9)。「宗教の有用性」とか「宗教の功利性」と訳すのは正確ではあるまいが、それよりもミルがこの論文の中で道徳の再生のためには既存宗教に代わる新しい「人間性の宗教」という言葉を使用していることが推測できるのである。さらに、出版されていない第三論文目のタイトル「Theism」を「大極論」と訳すのは、第三論文のテーマが、単に啓示宗教としてのキリスト教における一神論の証明にあるのではなく、自然神学と結びついた宇宙の存在証明論という、宋学の宇宙論(大極論)と非常に似通った宇宙論の証明がテーマであることを十分に理解していたためと推測している。要するに、「Theism」を「大極論」と訳したのは、小幡の儒教に対する教養ゆえと理解できると主張している(10)。

また、小幡が「人間性の宗教」(Religion of Humanity)を「人道宗」と訳している。小幡が「教用論」の「序」で、ミルが道

徳（人道）を宗教の外部に確立しようとしていることを以下のように評価している(11)。

[illegible]原氏ハ人道ヲ宗教外ニ立テント欲シ其能ク立ツ可キ[illegible]古今ノ經驗ニ據テ論析スルニ當リ獨リ希臘古代ノ一例ノミ宗教ニ由ラスシテ教ヲ立テ以テ人ヲ薫陶教化スルニ足ルヲ証セリ余惟フニ氏ニ加スニ數年ノ命ヲ以テシ漢士孔孟ノ教我武士道ノ如キ宗教外ニ大振シ世ヲ化シ人ヲ動スノ教アルヲ知ルニ及ヘシメハ其確信ヲ固フスルモノ果シテ如何ソヤ氏ガ所謂人道宗ナルモノヲ以テ能ク天下ノ人心ヲ籠絡シ得テ皆此道ニ由ラシムヘキヤ否ハ余輩ガ未タ窺ヒ得サル所ナレトモ人道ノ宗教外ニ獨立シ得ヘキガ如キハ數百

小幡によると、ミルが道徳（人道）を宗教の外部に論証するために、ギリシャ哲学を引用し、宗教だけではなく、哲学の中にも道徳性が存在することを強調した。だが、この論文でミルは、19世紀後半の宗教が衰退した時代には、従来のキリスト教に代わる新たな道徳的規準が必要であり、既存宗教によるのではない道徳教育を確立することを主張した(12)。

このようなミルの考え、そして当時のイギリス社会背景に対して、小幡は日本には儒教思想や武士道などが、すでに歴史的に宗教外に道徳や社会的規範として存在していることを強調し、ミルがキリスト教によらない道徳規準をこの論文で論証しようとしたことに対して、もしミルが日本思想について理解したならば、日本が宗教外に道徳規準を持つ国であることを知り、自分の論証に意を強くしたであろうと述べている。さらに、小幡が述べるのは日本社会がキリスト教を、西洋文化とともに導入することをすすめていない。彼は、西洋文明を日本に取り入れる際に、欧米での宗教と道徳の在り方と、日本での事情とをよく理解したうえで導入すべきであることを強調している(13)。

以上のことをまとめると、儒教思想を基礎に持つ小幡は、ミルが「自然論」「宗教の有用性」という二つの論文で論証を繰り返しながら、ためらいがちに既存宗教と道徳教育の分離を主張したことに対して、違和感なくその主旨をいとも簡単に理解し、評価している(14)。

このことから、儒教思想を基礎に持つ小幡はミルの政教分離思想を理解したと評価されているが、彼はミルの理論をどの程

度理解したかには疑問を持っている。つまり、宗教外に道徳を制度化しなければならない理由を理解しているのであろうか。当時のヨーロッパでは、キリスト教に基づくヨーロッパ社会制度が大衆の自立心や内面的自由を奪っているからこそ、キリスト教が今まで道徳教育に果たした効果は認めつつも、これを改良しなければならないという観点から、ミルはキリスト教の外に道徳規準を設ける必要があると考えたのである(15)。

小幡は日本においても封建制度を維持してきた儒教や武士道による社会制度的支配が民衆の自立心を奪ってきたことを理解し、それが近代化の足かせになることを十分承知しているはずであるが、小幡は日本には儒教思想や武士道などを宗教外における道徳や社会的規範として否定せずに、道徳規準としてすすめている。つまり小幡はミルの第二論文の趣旨に同調しつつ、ミルが新しい宗教を造る必要に迫られているイギリス社会の道徳観よりも、日本の儒教的な道徳観を高く評価していると、船木氏は結論付けている(16)。

ここで筆者は、船木氏の意見と同意していない。船木氏は、明治時代中にキリスト教の受容に注意を促している(17)が、ミル同様に小幡も道徳教育に必要性を感じ、「新たな道徳基準を初期教育によって社会に普及し、社会的モラルの向上を考える」というミルの思想を的確に捉えているためであろうと考えていている(18)。

しかし、上述したように、『宗教三論』における小幡の翻訳における欠点、また『天変地異』の翻訳の問題、そして彼の経

歴を見ると、小幡にはミルの思想やイギリス社会の構造などの理解には問題があったのではないかと考えている。換言すれば、小幡が提供してきた翻訳書と彼の経歴を見ると、おそらく彼にはこれらの著作の翻訳において、英語力の未熟さによるミスや、外国文化に対する知識不足ゆえの勘違いがなかったとは言い難い。そのために、解説への理解に困難な箇所が見られるのではないかと考えている。

2．小幡の科学的啓蒙に関する研究

小幡の科学的著作は、主に明治初期に出版された『博物新編補遺』と『天変地異』である。これらの科学書は、慶応義塾で執筆され、その後自然科学の入門書として幅広く明治時代の近代学校で採用された(19)。小幡の著作を概観すると、その内容が博物学・窮理学から政治や経済などに関する翻訳・著作と多岐にわたる。その中で、初等教育においてかなりの役割を果たしている『天変地異』や『博物新編補遺』といった初等窮理学が近代日本の啓蒙に影響を与えた(20)。

小幡は、『天変地異』を執筆する際、基にした西洋書のタイトルや出版年、場所を書いていない。本稿では、筆者は、当時日本で広く使用されていた西洋の科学書、例えばチャンバーズ(W. , R. Chambers) の『科学入門』、クワッケンボス (Quackenbos) の『窮理書』、チャンバーズ (W., R. Chambers) の『博物書』、スウィフト (M A. Swift) の『窮理初歩』などの内容を

調査した[21]。これらの書物の内容と『天変地異』と比較・検討した結果、小幡が基にした西洋科学書はチャンバーズの『科学入門』であることが明らかとなった。

チャンバーズの『科学入門』は、チャンバーズ社のシリーズ刊行物「チャンバーズの教育養書」(Chambers's Educational Course) の一つとして刊行された。この養書は、6 歳から 14 歳までの児童が学校或いは家庭で学ぶための教科書で、1835 年に刊行が始まった[22]。冒頭は、教科書として学校で用いられることを主体にしていると主張している。チャンバーズは、同書で扱う分野を列記して、「天文学、自然哲学、地質学、自然科学、気象学、電気、化学、動物学、人体生理学、精神学」などの様々な分野を扱っている[23]。本書は、22 章に分けられている[24]。『科学入門』の第 9 章は、温度或いは熱についてであり、第 11 章は光について解説している。

一方、小幡も、『天変地異』の「序」をみると、初心者向きの教科書として用いられることを主体にしている。同書で扱う分野を列記すると、「雷避の柱の事」、「地震の事」、「彗星の事」、「虹霓」、「九日同時に出たる事」、「三ツ月並び照らす事」、「流星並びに火の玉の事」、「陰火の事」の 8 章からなる[25]。小幡は、これらの 8 章において、様々な科学的分野に関わる知識を簡単に説明し、日本人に理解しやすい科学主義的考え方を啓蒙している。これは、『天変地異』の「まえがき」に見るように、小幡は年齢や性別などに関係なく子供と大人、男性と女性、都

会の人と田舎の人に制限せずに、一般の日本人を対象とし、「婦人小児の惑を解き、事物の道理を究めしむるを主意」していると述べている(26)。

小幡は、日本人は昔から迷信的に解釈していた自然現象、例えば雷や地震、彗星、流れ星、陰火などを科学的に説明し、現象の自然法則や原因などを近代科学的な立場から解説している(27)。近代時代まで自然現象に対する日本人を含む発展途上国の人々の解釈は、例えば雷が天の怒りとなり、神の仕業などと言い、彗星が兵の兆し、地震が神霊の怒りなどから発生するなどの考えが流行っていた(28)。言い換えれば、大昔から人間がこれらの自然現象の原則や発生する原因などを知らずにいるから、突然これらすべては科学的に実証できると説得するのは非常に困難なことである。従って、啓蒙思想家が、一般の人々に新しい知識、そして新しい理解の仕方を説得することができると、これらの現象が不思議ではなくなるということを、小幡が主張している(29)。そこで、雷、地震、彗星などの理由を納得できるように、一つ一つ例をあげて近代科学の立場から説明を行い、驚いたり恐れたりする必要がないと解説している(30)。

『博物新編補遺』はチャンバラ出版業者で諸述家であるロバート・チャンバーズ(Robert Chambers, 1802-1871)の著書『科学入門』(Introduction to the Sceinces) の翻訳であった(31)。

これらの著作の内容をみると、小幡は単にチャンバーズから情報を得ているのではなく、文字通りにテキストを翻訳している箇所多くある。例えば、チ

ャンバーズは、熱論に関して以下のように説明している。

Some bodies receive and convey heat more readily others. If we stand for some time near a fire, the metal buttons of our clothes will become hot to the touch, while the cloth remains at a moderate heat. This is, because metal receives and conveys heat better than cloth (32).

以上のように、チャンバーズは、例をあげながら、物の成分によって熱の伝わりを論じている。ここでチャンバーズは、物の成分により熱の吸収がそのまま異なり、物の成分により熱が伝わりやすいものと熱の伝わりにくいものがあると示している(33)。また、チャンバーズは次のように例を次々に述べている。

Some bodies, from their nature, contain more heat than others, and some are more capable than others of receiving and conveying heat. It is law of nature, that, when two bodies possessing different degrees of heat are brought together, the

warmer gives out part of its heat to the colder, till the two come to an equality. Thus, if we were to take a stone into our hand, the hand would give out some of its heat to the stone, till the one has reduced and the other raised so much, that both were alike warm.... (34)

以上のチャンバーズの説明に対して、同様な点に関する小幡の解説は以下のとおりである。

今ここに温度斉一ならざる二物を取りてこれを並列せは暖なるものか温を冷なるものに分与し二体の温度平等するを待ちて止めしこれ造化の一定則なり。故に人もし石を取りて掌裏に置かば手はその温を失い石はその温を待て両者温暖平斉に至りて止まんを試むるの始め石の冷やかなるを覚うるは温の我が手を辞し石に奪わるるが為なり。今夫人その右手を熱湯に浸しその左手を冷水に没し暫しありて両手を出し同じくこれを微温湯に沈めば左手は温なるを覚え右手は冷なるを感せん。これ他なし左手は彼の温を受け右手はか温を失う故なりこれにて考うれば冷は温の実物あるに似ずただ温度の微小なると温の我を辞するとより生ずるところの感覚なり(35)。

以上のように、チャンバーズと小幡の説明はほぼ同様である。両者は、物が熱を吸収し、伝わることについて説明している。彼らは、自然の法則として異なった温度の二つの物を接触させると、暖かい物は冷たい物へ熱を与え、両者が一様に平均した温度になると解説している。

また、チャンバーズは、「woolen clothes give us heat; but in reality, their utility arises from their only preventing our own natural heat from leaving us.」と毛織の衣服は暖かいと一般的に思われているが、実際毛の衣服は体熱を外へ能率よく伝えるためであると説明している(36)。そして、チャンバーズはこの点をまとめて、「Bodies which receive and convey heat readily are called good conductors of heat, and bodies of an opposite kind are called bad conductors 」と熱を能率よく伝えるもの(良(伝)導体)、そして逆の物(不良(伝)導体)」について説明している(37)。一方、熱の伝えやすいものと伝えにくいものに関する小幡の説明は以下のとおりである。

> 物によりて温を出納するに難易あり。これを例せば茶鑵に木柄を設けざるはなし蓋し木柄は鑵中の沸騰より温を納むる少なくまた既に温を納めて熱するも温を分つ遅し。これ以て手その熱きを覚えず今もし銀、銅、鉛、大理石および粘土の同小片を使って熱窯内に置きまず窯と同度の熱を得るものは銀なら次

は銅、次は鉛、次は大理石、最終は粘土なり。これ
時に及びて人その端を以て粘土に触るも傷害あるな
けん然るに銀の熱度は既に耐えゆべからざるものと
ならん故に銀を良導体と名づけ粘土を不導体と言う。
何人も毛布は温を我に与えうるものと思はざるはな
し。その実はしからず毛布はただ温の我を辞して去
るものを止むるの用あるのみ。学者温を出納する易
き物体を汎称して良導体と言いこれを反するものを
不導体と唱えり。温の一体より他体に伝うるを引導
すると唱えまた温の流体あるいは空気を経て布漫す
るを搬送すると言いまた爐上に手を保ちて火温の手
を射るがごとく空気を経て一体より他体に注ぐもの
を線出すると名づく(38)。

以上の小幡の説明をみると、チャンバーズが述べている内容とほぼ同じである。その上、小幡は、以上の点を説明するために、チャンバーズが用いた用語を変えずにそのまま採用したのである(39)。また、小幡が用いた文体と用語を見ると、彼の科学知識の啓蒙の特徴が明白に見える。例えば、小幡は、チャンバーズの用語を模倣して、熱の吸収を説明するために、「銀」、「銅」、「鉛」、「大理石」、「粘土」を用いている(40)。以上で触れた小幡とチャンバーズの著作の内容を比較・考察したように、小幡は非常にチャンバー

ズの『科学入門』を基にし、『天変地異』と『博物書新編補遺』を執筆したことが明らかであろうと考えている。繰り返しになるが、『科学入門』が『天変地異』の基であることを実証した先行研究は未だなく、本論文の調査・業績で明らかになったことである。

全般的に小幡に関する先行研究は少ないが、福澤諭吉、または慶応義塾に関する先行研究が数多くある。小幡の科学知識の啓蒙を根本的に扱っているのは、松永俊夫氏の「チャンバーズ著『科学入門』と小幡篤次郎訳『博物新編補遺』」と船木恵子氏の「小幡篤次郎と J.R.S.ミルの『宗教三論』」である。

船木氏は、基本的に小幡の観点から取り扱い、科学の啓蒙から離れているが、小幡の科学の代表的著作である『天変地異』を論じている。船木氏は、「既に慶応義塾の経営にあたっていた小幡篤次郎は、この自然科学の解説書に図解を入れて読むだけではなく実験の図として見ることによって理解しやすい工夫をしている」と述べている(41)。また、船木氏によると、小幡の『天変地異』は、幕末の思想家、佐久間象山(1811 - 1864)の「東洋ノ道徳　西洋ノ芸術」や「和魂洋才」などを基礎にしたテキストであるとは間違いないと主張している(42)。

筆者は、以上の船木の論点に対しては同意できない。小幡が入塾した頃や彼の英語力などの要因を考えると、船木氏の評価には疑問がある。出版年を見ると、『天変地異』は、福澤の『訓蒙窮理図解』とほぼ同時期に慶応義塾から出版されたことが分かる。小幡の著作の内容をみると、『訓蒙窮理図解』と相違する

箇所が数多くあるが、同様な傾向を歩んで、『訓蒙窮理図解』に不足する箇所を補充しているように見える。慶応義塾のほぼ西洋化、そして儒教を「親の敵」と見なしている福澤の啓蒙主義を考えると、船木氏が小幡の啓蒙に対して主張するような「東洋ノ道徳　西洋ノ芸術」ということは理解できない。両書は、科学主義の思考方法を用いて物事を考えるように日本人に勧めており、科学知識の解説において両者はそれぞれ説明する領域を協力的に分担しているようである(43)。

要するに、船木氏が主張するように、小幡が『天変地異』を執筆する際に「和魂洋才」を採用したのではないことが推測できる。彼は、同書を、福澤の啓蒙過程プランの一部を翻訳したことが明らかであろう。

次に、小幡の科学知識の啓蒙を評価している研究は松永氏の「チャンバーズ著『科学入門』と小幡篤次郎訳『博物新編補遺』」である。松永氏は、同論文において、チャンバーズの著書と小幡の翻訳とを比較して、西洋近代科学がどのように導入されてきたかを考察した(44)。そこで、松永氏がチャンバーズの著書、『科学入門』の内容を詳細に紹介し、その著作の特徴と、目指す読者対象について説明している(45)。そして、小幡の『博物新編補遺』の内容を紹介し、解説している。そこでは、松永氏がチャンバーズの著作と比較しながら、小幡の翻訳性について示している。松永氏の考えでは、小幡は、チャンバーズの著書の訳語で、当時の日本の読者が内容をどれだけ理解できて来たか疑わしいと述べている(46)。小幡が使用した訳語をみると、

現在の欧米の読者でも骨相学の背景を知らなければ、無意味な言葉の羅列に見えてしまうだろうと強調している(47)。筆者は、小幡の科学知識の啓蒙活動に対する松永氏の評価は、貴重な資料と考えている。だが、小幡の啓蒙思想より、翻訳性が松永氏の関心の中心だったので、筆者は小幡の思想的な面が明らかとされていないと考えている。

おわりに

以上のことから、小幡の啓蒙活動に関する研究は、小幡の啓蒙思想を含む日本の近代化の理解に貢献していると考えられる。しかし、これらの先行研究には、小幡の近代知識の本質と、英語力に関して明らかにされていない。

小幡の経歴を見ると、1867 年に『天変地異』を書いたことは疑わしいと言える。というのも小幡は、1864 - 1865 年まで儒教の塾で儒学を教え、それまで英語を含む西洋の近代的学問に関しては知識が一切なかったようである(福澤諭吉緒言)。そして、福澤の説得により、江戸へ赴き、翌年に福澤の塾で英語を習い始めた。つまり、小幡の経歴を追求すると、彼は一年の間に英語を習い、物理学を英語で読み、それを理解し、チャンバーズの『窮理書』を日本語に翻訳できるようになったとなる。

また、彼の師匠である福澤(『福翁自伝』)が英語を学習した時間をみると2年ほどかかっているが、このこともさらに小幡の翻訳能力に対する疑いが強くなり、一度も外国語を習ったことがない中年の小幡がそれを習得するには時間がかかったはず

だとの推測も可能である。そして、上述したように、英語を習った後に、物理学、天文学、数理学などの科学知識を習い、理解して啓蒙する段階（レベル）になるまでの時間としては、短すぎるように見える。そのため、彼の翻訳文章を見るとわかりにくい箇所もあるし、意味が通じていない点もあると考えている。松永氏は、間接的にこの点について証言している。松永氏は、小幡の訳語に関して、『チャンバーズ著『科学入門』と小幡篤次郎訳『博物新編訳解』』において、当時の日本の読者が小幡の説明が理解できたか疑わしくて、第22章の訳語は理解しにくい箇所が多いと評価している（48）。

また、『天変地異』が出版されたのは1867－1868の間であったので、福澤の援助或いは福澤の考えがこの本に入っているのではないかと筆者は考えている。だからと言って、福澤は『天変地異』を完全に書いたとは言えないが、小幡に指示をしながら、内容的な干渉を行っていたのではないだろうか。おそらくこの本に書かれている科学知識の翻訳などは、福澤が力を尽くしたと見える。だが、福澤は、弟子である小幡への奨励として、内容の執筆や出版などを小幡に任せたのではないかと推測できよう。

註

1．小幡篤次郎は、中津藩の藩士小幡篤蔵の二男であり、藩黌進修館で漢学を修め、塾長となったが、福澤諭吉の勧めで1864 年江戸に出て福澤の塾に入り英学を学び、塾長を務め、また幕府の関成所英学助教ともなった。小幡の著作を概観すると、その内容が百科全書家的であることが判る。博物学・窮理学から政治、経済に関する翻訳・著作までである。『天変地異』『博物新編補遺』などの科学啓蒙書は人々に歓迎され、科学知識の普及に貢献した教育家である。福澤とともに『学問のすゝめ』を著し、また『時事新報』の創刊に尽力など思想界の指導的役割を果たした。特徴としては翻訳が多く、オリジナル著作物は、『郵便報知新聞』、『民間雑誌』や、『交詢雑誌』上での論説が多い。その中で、主著というべきものを挙げるならば、『英紙経済論』『弥児氏宗教三論』であろう。また、小幡の著作の特徴としては、政治・経済に関する時論が多いことである。また小幡の著作が初等教育においてかなり役割を果たしたことも指摘しておくべきだろう。『天変地異』や『博物新編補遺』といった究理学の初等テキストに加えて、日本史の初等テキストも出している。

2．小幡の思想に関する他の主な研究としては、西澤直子、「小幡篤次郎考I - 書簡に見られる中津士族社会との関わり - 」『近代日本研究』17 巻、2000 年；西澤直子、「小幡篤次郎考II - 慶應

義塾教職員として - 」『近代日本研究』18 巻、2001 年；西澤直子、「小幡篤次郎考III - 女工場の開業を祝する - 」『近代日本研究』19 巻、2002 年；住田孝太郎、「小幡篤次郎の思想像–同時代評価を手がかりに–」『近代日本研究』第 21 巻、2004 などである。

3．船木恵子、「小幡篤次郎と J.S.ミルの『宗教三論』」『近代日本研究』第 21 巻、2004 年

4．上掲書　P．1

5．上掲書　P．2

6．上掲書　P．7

7．上掲書　P．7

8．上掲書　P．7

9．上掲書　P．8

10．上掲書　P．8

11．小幡篤次郎、『弥児氏宗教三論』、丸家善七、1877 年、「序」

12．「小幡篤次郎と J.S.ミルの『宗教三論』」P．12

13．上掲書　P．14

14．上掲書　P．14

15．上掲書　P．15

16．上掲書　P．14

17．小泉仰、「ミルの『宗教三論』と福澤諭吉の宗教観」『近代日本研究』(435 - 454) 2 巻　慶応義塾福澤研究センター 1985 年、上掲書　P．15

18．上掲書　P．15

19．松永俊男、「チャンバーズ著『科学入門』と小幡篤次郎訳『博物新編補遺』」『桃山学院大学人間科学科』、桃山学院大学人間科学 24、(149-168)、2003 年、P．149

20．住田孝太郎、「小幡篤次郎の思想像–同時代評価を手がかりに–」『近代日本研究』第 21 巻、2004、P．21、松永俊男、「チャンバーズ著『科学入門』と小幡篤次郎訳『博物新編補遺』」P．149

21．その中、調査の対象となった西洋の科学書：
W. , R. Chambers, *Treasury Of Knowledge Part III Introduction To The Sciences*, London 1849 ; G. P. Quackenbos, *A Natural Philosophy: Embracing The Most Recent Discoveries In the Various Branches Of Physics*, New Y ork Broadway, 1866 ; W. , R. Chambers, *Chambers's Scientific Reader*, London 1872 ; M. A. Swift, *First Lessons on Natural Philosophy for Children Part First*, Hratford 1859

22．松永俊男、「チャンバーズ著『科学入門』と小幡篤次郎訳『博物新編補遺』」『桃山学院大学人間科学科』24 号、P．151

23．上掲書　P.151、*Treasury of Knowledge*, P. 72

24．Ibid P.61

25．小幡篤次郎、『天変地異』、1868 年　P.6

26．上掲書　P.6

27．上掲書　P.6

28. 上掲書 P.6

29．上掲書　P.7

30．ハルブ・ハサン、『福澤諭吉とムハンマド・アブドウの科学知識 の啓蒙-『訓蒙窮理図解』と『コーランの注釈』を中心に-』大阪大学 2010

31．住田孝太郎、「小幡篤次郎の思想像-同時代評価を手がかりに-」『近代日本研究』第 21 巻、2004、P ．21、松永俊男、「チャンバーズ著『科学入門』と小幡篤次郎訳『博物新編補遺』」P ．149；『科学入門』が『天変地異』の基であることは、前論文で証明され、また次の例から判る。例えば、チャンバーズは、*Treasury Of Knowledge*,P.62 に、熱論に関して、例をあげながら、物の成分によって熱の伝わりを論じている。

ここでチャンバーズは、物の成分により熱の吸収がそのまま異なり、物の成分により熱が伝わりやすいものと熱の伝わりにくいものがあると示している。例えば、火の近くに暫く居たら、衣服の金属のボタンが熱くなるのに対して、衣服自体はそれほど熱くならないと述べる。そしてチャンバーズは、同書のＰ .162 に、数多くの例を次々にあげている。チャンバーズがあげたこれらの例とその説明に対して、小幡篤次郎、『博物新編補遺 中』、尚古堂　1869 年 PP.2-3 に、同様な点に関して、小幡は次のように説明している。彼は、「今ここに温度斉一ならざる二

物を取りてこれを並列せは暖なるものか温を冷なるものに分与し二体の温度平等するを待ちて止めしこれ造化の一定則なり・・・・・」と次々チャンバーズの説明を模倣している。以上のように、チャンバーズと小幡の説明はほぼ同様である。両者は、物が熱を吸収し、伝わることについて説明している。彼らは、自然の法則として異なった温度の二つの物を接触させると、暖かい物は冷たい物へ熱を与え、両者が一様に平均した温度になると解説している。そして二人が、以上の説明を明瞭にするため、石を手に取った時手は石に熱を与えるように、両石が一様の温度になる事、熱い容器に入っていた手は冷たく感じ、冷たい容器に入っていた手は熱く感じる事など、と同様な例を挙げている。

32．*Treasury of Knowledge*, P.62

33．Ibid P.62

34．Ibid PP.62-3

35．小幡篤次郎、『博物新編補遺 中』、尚古堂 1869年、PP.2-3

36．*Treasury of Knowledge*, P.63

37．Ibid P.63

38．『博物新編補遺 中』、P.3

39．上掲書 P.4

40．上掲書 P.4

41．「小幡篤次郎とJ.S.ミルの『宗教三論』」P．16

42．上掲書 P．17

43．福澤諭吉、『福澤全集緒言』、時事新報社 1897 年 P.15/『訓蒙窮理図解 上』、 P.3

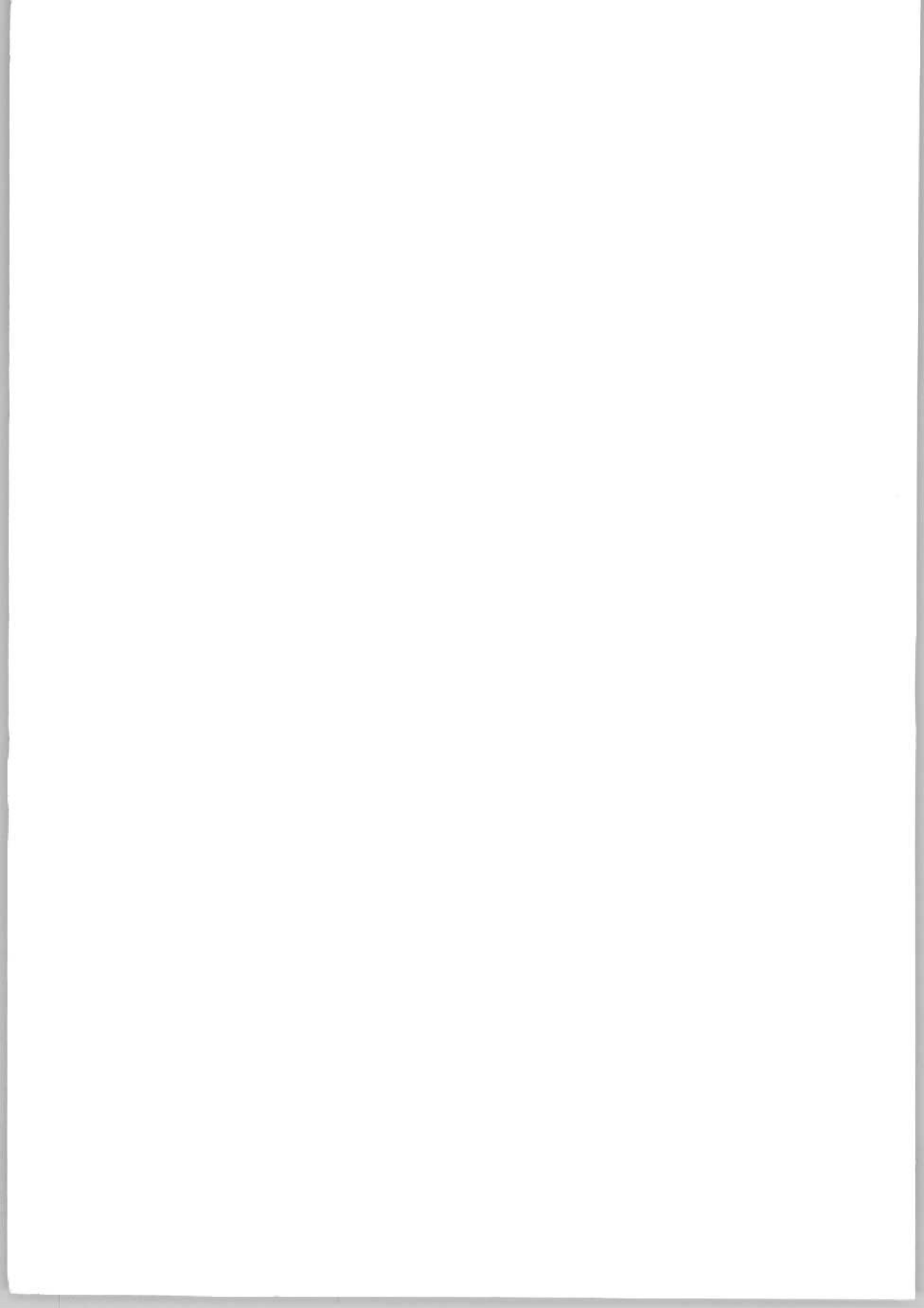
44．「チャンバーズ著『科学入門』」Ｐ．149

45．上掲書　ＰＰ．149 - 160

46．上掲書　Ｐ．162

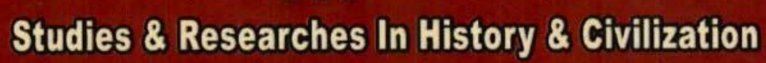
47．上掲書　Ｐ．162

48．上掲書　ＰＰ．150 - 60





Journal Egyptian Historian





(Scientific journal semi-annual)



Issued by the Department of History
Faculty of Arts - Cairo University

TOMO I1

Number Forty Two

January 2013